راهبة الجبل

الكتاب: راهبة الجبل
المؤلف: فكري فاروق
تصميم الغلاف:
تدقيق لغوي:
إخراج فني: سُكون ww.sekoon.com
رقم الإيداع:
ردمك:
الطبعة الثانية: 2018

المدير العام: هالة البشبيشي
المدير التنفيذي: شريف الليثي

تويا
دار تـويا للنَشـر والتَـوزيع

(+2) 01140899887
(+2) 01000706014
dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر والتوزيع dar.toya
@Dar Toya
@Dar_Toya
٣٥ شـارع النصر..
المعادي الجديدة نوفمبر ٢٠١٧

فكري فاروق

راهبة الجبل

رواية

تويا للنشر والتوزيع

سارد الأخبار وكاشف الأسرار

يعقوب العطار

(1812 – 1805)

(١)

السيدة العارية

«لا أملك في هذا الطريق سوى الضوء المرتعش، وظلاله الزائفة»

كان الطريق موحشًا، لا أعرف كيف جئت إليه، مشيت فيه كالمسحور، هائمًا في ظلام الليل كأعمى والقنديل يسحبني، أتعثر في الصخور الحادة المدببة، قدماي مورمتان تؤلمانني بشدة، تنجرح يداي كلما حاولت تحاشي السقوط، ممر جبلي طويل رفيع ملتوٍ كثعبان، على اليسار منحدر سحيق يؤدي إلى هاوية، وعلى اليمين يستمر الجبل في الصعود، الممر يؤدي إلى كهف مظلم يبدو مخيفًا، أخشى أنه قد تسكنه العفاريت، ضوء القنديل يرتعش، يرسم صورًا عجيبة على الصخور، تظهر على هيئة بشر وحيوانات وسحائب وأحيانًا فجوات عميقة أو أشكال بلا أي معنى.

الطريق يمتد تحت قدمي يسحبني نحو الكهف، ما بال رجل يُساق إلى المجهول، وفي النهاية -التي تتكرر كثيرًا- تحتويني الفجوة السوداء..

ألقَى القنديل السلام المتوجس على الجدران القريبة وكشف عن الظلام بعض أغطيته السوداء، فأضفى على المكان شيئًا من الوضوح، لمحتُ جسمًا يتحرك، شعرت حينها بكل شيء في صدري يصرخ، وعلت ضربات قلبي من الهلع، تحسست نظراتي الجسد الذي يتلوّى، تحاول معرفة أبعاده، كم هو مفزعٌ حقًّا أن تجد إنسانًا في مثل هذا المكان، لا لا إنها إنسانة، الضوء يزداد تدريجيًّا، أرى بوضوح أكثر، المرأة تجلس بعد مدخل الكهف بمسافة قصبة بجوار الجدار على اليمين، امتص جسدها المرمري معظم عصارة الضوء، لتبدو مضيئة، كما تبدو أيضًا في العشرين من عمرها، عارية مربوطة اليدين بحبل غليظ خشن، تحاول أن تواري ثدييها بذراعيها، وتضم فخذيها لتواري فرجها، شعرها أسود طويل ينسدل على كتفيها، ذلك السواد الشاحب المعفر بالخوف والإهمال، وجهها الأبيض تخلَّى عنه ماؤه، وردة جفت لكنها ما زالت تحتفظ بسحرها، عيناها سوداوان بعيدتا القرار، نفحات الضوء المنبعثة من القنديل تبرز براءة أساريرها، أما الظل فيمنح حزنها عمقًا نبيلًا.

تعاودني نوبة الرعب مرارًا، كلما اختلى بي هذا الحلم، رعب قدير على أن يوقف القلب، لكن ما يدهشني حقًّا ويجعلني أسهر الليالي أفكر.. هو تلك القوة الخفية التي تقودني إلى ذلك الكهف البعيد المرة تلو الأخرى لأقابل ذات السيدة العارية.

تُرى من قام بتجريدها من ثيابها هكذا؟ ولماذا؟ مؤكدٌ أن الموت عندي أهون من أن أبيت ليلة واحدة في ظلمة ذلك الكهف، لكني أعود فأجادل نفسي متعجبًا مُهدّئًا من روعها، ماذا يخيفك إلى هذا الحد؟ إنه حلم، مجرد حلم، ليس إلا، نعم أدرك هذا جيدًا، ورغم ذلك يرعبني في كل مرة بالدرجة نفسها.

❋ ❋ ❋

أغمضَتْ عينيها قليلًا من أثر الضوء المباغت على مقلتيها، وبعد برهة بدأت تفتحهما تدريجيًّا، ثم مدت ذراعيها النحيلتين وأومأت برأسها تريدني أن أفك وثاقها، لكني خفت أن اقترب منها، ولا أعلم لماذا خفت هكذا وهي امرأة ضعيفة بريئة الملامح، لا تقوى حتى على الوقوف، تكلمَتْ بصوت حزين مكتومة كأنه يأتي من أعماق الحلم، خشيت الإنصات لها فربما تكون جنية، كلماتها ملعونة مسيطرة، قد تتخلل عقلي وأفكاري وتسيطر عليّ، فأهيم مجذوبًا أطارد الظلال في الطريق، قلت لنفسي لا تتقدم، احذر يا يعقوب!

- اقترب يا ولدي، فُكَّني!

هل تعرفني صاحبة الصوت المبحوح المرتعش؟! لكني لا أعرفها! لم أر ذلك الوجه من قبل! ولماذا تقول لي «يا ولدي».. وعمري يقارب عمرها؟!

منذ طفولتي وأنا أسمع كلمة «يا ولدي» بلهجة العطف والحنان من سيدات الحارة، خالاتي كوثر وعائشة وجمالات، لقد أحببت ذلك الاهتمام وشعرت بدفئه، أما خالتي زينب والدة حسناء، تلك السيدة الأنيقة المتحفظة، فكانت تتعمد دائمًا أن تتجاهلني وكثيرًا ما كانت تَنهَى بنتها عن اللعب معي، فهي وزوجها يتعاليان على الناس في الحارة، كأنهما خلقا من طينة مختلفة، ولو ساعدهما الحظ قليلًا لتركا الحارة لأصحاب الحرف البسيطة، فهي لا تليق بتاجر مثله يتطلع لمصاحبة كبار التجار، {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} نُحتت هذه الآية على لوح من رخام أبيض فوق باب بيته.

***

مر عام تقريبًا على ميلاد الحلم الأول، أصبحتُ خلاله مقصدًا دائمًا له، يعاودني في الأسبوع الواحد ثلاث أو أربع مرات، لم أحلم بامرأة عارية قبل هذا الحلم، حتى في أكثر أيامي ضعفًا ورغبة، تلك الأيام التي هاجمتني فيوض الشهوة الفوارة، فكانت تلتهم براءتي وطهري، والتي بدأت منذ رأيتُ النُّطَفَ الأولى من المني تبلل سروالي، حتى المرة الوحيدة التي رأيت فيها عن طريق الصدفة من خلال سطح منزلنا، تلك السيدة التي تسكن في البيت المطل مباشرة على مسجد السيدة زينب بالحارة الخلفية، رأيتها تجلس في الطست النحاسي الأحمر، جسمها مترع بعشرات الأرطال من اللحم والشحم، تكب الماء على رأسها بالكوز، فيلمع جلدها عاكسًا الضوء القادم من الشرفة، ما أشهى ذلك الإحساس الذي تملَّكَني حينها! حيث أصابني الذهول وتصلبت عضلاتي وفار دمي، شعرت حينها برغبة عارمة في أن أطيل النظر، لكن نفسي اللوامة وقفت حائلًا بيننا «إياك وتتبع عورات المسلمين يا يعقوب!» طأطأت رأسي خجلًا وغضضت البصر، لكن لا أنكر أن تلك التفاصيل المكورة تسربت إلى أماكن تعرفها في عمق الذاكرة، لتنفرد بي لاحقًا وتتحرش بغريزتي كلما واتتها الفرصة، يا لضعفي أمام إلحاحها! وكم مرةٍ أضبط نفسي وهي تفتش عنها وتعيد إيقاظها من غفوتها! فأُفيق وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأستغفره كثيرًا، تخيُّل العُرْي لا يليق بمن حمل كتاب الله في صدره، لذلك ألزمت نفسي كل مساء بتلاوة جزءٍ من القرآن لأواجه تلك الحمى التي تغتالني بلا رحمة، حتى توارت صورتها في أزقة الذكرى البعيدة، ولم تجرؤ حتى على الظهور في أحلامي.

الناس ينادونني منذ لبست الجبة والقفطان بالشيخ يعقوب،

ينظرون إلى الثياب ويحسنون الظن بي، كانت تنتابني الخيلاء حتى سمعت مقولة الشيخ عبد السميع الذي يدرس لنا فقه الإمام الشافعي بالأزهر «لا بد أن تتشبع النفس بخشية الله، قبل أن تنعكس على صورنا وسلوكنا الظاهر».

لم تُثرني تلك المرأة الأسيرة بالكهف ولم أحاول أن أمعن النظر إلى جسدها، فقط تعاطفت معها، أو لنقل إني لا أعرف يقينًا لماذا لم تُثرني، كأنّ شيئًا عظيمًا يربطني بها، لكن ما هذا الشيء؟ لستُ أدري! الله وحده يعلم.

حاولت كثيرًا أن أقنع نفسي بأن هذا الحلم ليس إلا انعكاسًا لواقعنا المرير الذي نعيش فيه منذ سنوات عديدة في قاهرة المعز، فالعقل قد يزفر الحزن والكبت في صورة كوابيس، لا سيّما أن القاهرة قد أصبحت كمَركَبٍ حُصِرَ بين موج هائج وصخور حادة كالرماح، ونحن -الراكبين فيه- لا نهنأ بثبات ولا راحة بال ولا نستطيع أن ننأى بأنفسنا بعيدًا عن الوخز المُكَسِّر للعظام.

***

من ظلمات ثلاثٍ تأتي الحياة، تخرج مولودة غضة ليلقفها النور، فيلقمها أثداء من ألوان الطيف المبهجة، نعم هكذا تُسْتَقبل الحياة، القابلة تهنئ الأب المنتظر والأم المرهقة، ثم تخرج الزغاريد من أفواه النساء، أما ظلمات القاهرة المتراكبة فلا تتمخض أبدًا عن قبس من ضوء، ولو بحجم شمعة قصيرة تقتات الثمالة من جذور فتيلها، الألم اليومي تسببه ضبابية الرؤية وعتامة المصير دوختنا الأحداث الجسام المتعاقبة وعجزت البوصلة عن تحديد الاتجاه، لم ننعم بفترة نقاهة حقيقية بعد كابوس الفرنسيس، ولم يكن خروجهم من القاهرة بالأمر

الهين فقد كان بطلوع أرواحنا، لكن ما حال الولاة المتعاقبين، قبل الفرنسيس وبعدهم؟ كانوا جباة طغاة، يتفننون في خلق أنوع جديدة من الضرائب، كل يوم ضريبة جديدة، أو رسم جديد، على أي شيء، على المواليد، وعلى كل من يملك عقارًا، وعلى الخارج والداخل، أي حياة تلك؟! كل يوم مفلس جديد، متعسّر جديد، والمزيد المزيد من الفقراء والمساكين والشحاذين، أثقلوا كاهل الناس وحمّلوهم ما لا يطيقون سواء كانوا تجارًا في الوكالات أو في الخانات أو أناسًا عاديين، أما عن الأسعار فهي ترتفع بصورة يومية، بشكل جنوني، هل يصدق مخلوق أن رطل اللحم الجاموسي أصبح بستة أنصاف، وأردب الأرز بخمسةٍ وعشرين ريالًا، غير الزيادة الرهيبة في أسعار الجبن القريش والبن والسكر الصعيدي والعسل الأسود والصابون، وإن كنتَ حاذقًا وتتكئ على ما لديك من فائض مال فستصطدم بقلة المعروض من البضائع في الأسواق وندرة السلع، تجارات كثيرة بارت وأغلقت الحوانيت، كل هذا كوم وحالة الفوضى وضعف السلطان العثماني وضعف من يوليهم أمور البلاد كوم آخر، انعدام الأمن والأمان هما سمتا هذا الزمان، تخيل كيف نُطأطئ الرأس أمام جنود المماليك وهم يمشون في الشوارع سكارى يتحرشون بالنساء. من عدة أشهر تتبَّعَ جنديٌّ مخمور من جنود الألفي الخالةَ جمالات وبنتَيها وهنَّ عائدات من السوق، سار خلفهن حتى اقتحمن الحارة هلِعاتٍ مستنجِداتٍ، كان المعلم سعيد النجار ممسكًا بمنشاره، يقوم بتشكيل قرص لطبلية من الخشب الأبيض، عندما سمع استغاثة زوجته وبنتيه قام هائجًا كمن أصابته جنّة، فتصدى له وكاد يضربه بالمنشار لكنه تمالك نفسه، شدَّ المملوكَ من فوق صهوة فرسه فسقط أرضًا وجلس فوق صدره،

وأخذ يكيل له اللكمات حتى كسر فكَّه، ولولا تدخل أبي وعمّ عوض الخياط لكان موت المملوك محققًا.

أولئك الأوباش لا رادع لهم ولا راد لأهوائهم، لا تنتهي حماقاتهم، وخصوصًا عندما تتأخر رواتبهم، حينها تصيبهم نوبة من نوبات الجنون فيُعملون السلب والنهب في الأسواق والوكالات، اللهم خلصنا منهم، إنهم مهما علا شأنهم يشعرون بأنهم وضيعون مملوكون، أما نحن فأحرار، وإن كانوا يحكموننا فلن يغير هذا من حقيقتهم شيئًا، إنهم سلعة تباع وتشترى، أما الحر فهو مالكُ أمرِه، قرون من الزمان مرت وهم لا يستطيعون طمس الحقيقة ولا تكميم فمها، حتى جاء الحكم العثماني لينتزع ملكهم عنوة، لكنهم لم يفقدوا كل سيطرتهم وحكمهم، فهم قوة ضاربة في القدم، متحكمون ومسيطرون ويعرفون أسرار المحروسة، دروبها ومسالكها، الآن نعيشُ في تلك المنطقة بين شِقَّي الرحا بين المماليك والعثمانين، كيف نقبل كل هذا العار؟! كيف تحتمل النفس وطأة تلك المهانة اليومية؟!

ورغم كل هذا يلح عليَّ ذات السؤال كل مرة: هل كل تلك الأحداث تستطيع تفسير تكرار الحلم بكل تفاصيله الدقيقة كل تلك المرات المتعاقبة؟

***

للأسف كل ذكرياتي أليمة، يكفي أننا كنا نستيقظ على أصوات مدافع الفرنسيس، أو على انهيار بيت ينهدم على رؤوس ساكنيه، الولولة والصراخ والهلع في كل مكان، وفي كل حين، ثلاث سنوات من الخوف والهلع.

- لماذا لا نتركها يا أبي؟! ما سر تمسكك بالحياة هنا؟!

ضغطتُ عليه ضغطًا رهيبًا ليحكي لي عن ماضيه، عندها أخبرني أننا من عائلة كبيرة تسكن بقرية صغيرة خلف بحيرة عظيمة، تدّعى القرية قرية دير الجبل، حكى كارهًا مُكرَهًا، لا يحب الحديث عنها أو عن أهلها، ولا نية له في الرجوع إليها، عكس كل إنسان غريب، فالغرباء يُحبون الموت في موطنهم بين أهليهم، وكلما جادلته شَرَدتْ عيناه متحسرةً على شيء ما مبهم، رحل بي من القرية منذ عشرين عامًا تقريبًا، ولا أحد ينتزع جذوره من أرضه ويقرر عدم العودة، إلا إذا كان هناك سرٌّ عظيمٌ دفعه لذلك، فعم عنتر مثلًا هجر القرية متلثمًا بسواد الليل قاصدًا القاهرة هاربًا من الثأر، عمل في تجارة الحبوب، وأطلق لحيته، حكى لي عمي سيد الحلاق ذات حلْقة، لحظة الوصول الغامضة لأبي إلى الحارة، وهو يحمل طفلًا مزعجًا لا يتوقف عن البكاء - طبعًا يقصدني أنا- لم يسمح أبي لأي مخلوق أن يتوادَّ معه أو يقترب منه، لا يحب الكلام، أو إجابة أسئلة الشغوفين لكشف أسراره، رآه بعض رجال الحارة وخاصة عميّ سعيد النجار والحداد محمد الجهيني رجلًا مغرورًا متعاليًا، فأصول الجيرة هي الود وأن يحكي كل إنسان حكايته.. أصله وفصله وسبب تركه لبلده، حتى يطمئن الجميع إليه، وأي إنسان يختار الصمت والغموض، يلقى مصيره من تفسيرات المرتابين اللا نهائية فيقولون عنه الأقاويل وربما يلصقون بسمعته ما ليس فيها.

- ربما تغيرت الأوضاع فدوام الحال من المحال!

إني أجادله وأستخدم الحجة ذاتها التي أحاججه بها كل مرة لأسمع ذات الرد القاطع البات:

– كل حال يتغير إلا حال قريتنا يا ولدي.

ليس لدينا في القاهرة ما نبكي عليه، فكل ما نملكه هو بيتنا المتواضع في حي السيدة زينب، بيت صغير محشور بين بيوت الحارة، فيه دكان عطارة يحتل الطابق الأرضي فيشغل المساحة كلها ما عدا حيزًا ضيقًا يسمح للسلم بالصعود، الدكان مطلي بجير أخضر اللون، تقشرت طبقته في أنحاء كثيرة متفرقة لتترك حجارته المجلوبة من المقطم عارية تمامًا تمتص الرطوبة من الجو وتترسب عليها الأملاح، أما الطابق الثاني فمكونٌ من ردهة صغيرة مربعة بطول قصبة أو تزيد قليلًا، ينبثق عنها غرفتان صغيرتان، بها شرفة تطل على حارتنا، لترى من خلال مشربيتها شرفتيْ منزل عبد الرازق وعلى يمينها شرفة مهجة القلب/ حسناء.

اختار أبي من بين أنواع التجارة كلها تجارة الأعشاب والبَهارات والوصفات العلاجية، علاوة على لوازم الدجل والشعوذة، ويرفض أن يغير نشاطه بالرغم أن هذا الحانوت لا يغطي نفقاتنا في أحايين كثيرة، لم يتسبب بيع الأعشاب والتوابل ووصفات العلاج في أي خلاف بيننا، بل على العكس أكون سعيدًا عندما أقوم بمساعدته في بيعها، أو في تركيب الخلطات التقليدية المعالجة، أما عن أدوات الدجل والشعوذة فهي التي تفجر بيننا الخلافات دائمًا، أقسمت له كثيرًا أن ما يبيعه منها لا يرضى الله سبحانه وتعالى عنها، وأغلب زبائنه من النساء اللواتي يؤمنَّ بالخرافة وبأن الجن هو من يتحكم في جميع أمور حياتهن، وأن كل مصيبة تصيبهن وراءها سحر أو عمل سفلي، لكنه شديد المراس ولم استطع إمالة رأسه قيد أنملة.

– ما لي أنا وما يصنع الناس بالبضاعة؟ أنا تاجر وأبيع سلعة لم يحرم الله بيعها، فلا دخل لي بما يصنع الناس بها، كبائع السكين لا دخل له بما سيفعل المشتري بها فقد يقتل بها بريئًا وقد يذبح بها دجاجة، أنا لم أُفوض بالتفتيش في ضمائر الناس.

إن كنا نستطيع خداع الناس ونقنع أنفسنا بالباطل فكيف يا ترى نخدع الله أو نجعل ضمائرنا تغض طرفها عما نفعل؟ وما قيمة الإنسان إلا فيما يحمل قلبه من دين وأخلاق؟ على أية حال لا أستطيع التمادي في جداله فهو عصبي المزاج ويكره أن يسمع ما يخالف رأيه، ويعتقد دائمًا أنه على صواب، وعندما أنجح في حصاره يقول لي: «أنت جاهل بالحياة قليل الخبرة»، وكثيرًا ما ينهي حواراتنا الجدلية بقسوة وعصبية، وقد يتجنب كلانا الحديث إلى الآخر، ليوم أو يومين.

❊ ❊ ❊

(2)

المُلثَّمون

لا أنكر أن أبي رغم كل عيوبه يخاف علي خوفًا عظيمًا، وتحول خوفه هذا إلى مرض بعد حادث الطعن، كنت قد شعرت بتعقب أولئك الرجال الملثَّمين لنا، وكان هذا قبل الحادث بعدة أشهر، كانت عيونهم تراقبنا من خلف لثام أسود، وتيقنت من ظنوني عندما أدرت وجهي فجأة فوجدت اثنين ملثمين يتحدثان، في حين كان أحدهما يشير صوبنا، أما عبد الرازق وأبي فلم يلمحاهما، عبد الرازق لم يصدقني أما أبي فقد جفل، أمر غامض حقًّا، فمن يتربص بنا؟ ولماذا؟ لا يوجد أي صراع أو نزاع بيننا وبين أي إنسان، سألت أبي عنهما لكنه أنكر الأمر برمته، وكأنه ما جفل، ولا شردت عيناه، فكذَّبتُ عيني وأرحت عقلي.

سِنون طوال مشيت خلالها من السيدة زينب إلى الجامع الأزهر ذهابًا وإيابًا، كوِرْدٍ يومي، حتى أصبح نعلي أشبه بالحِمار الذي يحفظ الطريق، فليس عليَّ إلا أن أَرْكَبَه، وأترك له باقي المهمة، فيسير بي حتى نصل إلى باب الأزهر، لم يكن طول المسافة هو ما يضايقني

فقـط، فالمضايقـات كثـيرة، فلكَـيْ أسـتطيع اختصـار الطريـق أضطـر إلى أن أسـير في حـواري ضيقـة فأتعرقـل في الأحجـار تـارة، أو في الجبـة والقفطـان اللذيـن يكبـلاني ويحكمـان وثاقـي تـارة أخـرى، طـول المسـافة كـوم، والزحـام كـوم آخـر، حيـث تمتلـئ الشـوارع والحـارات بالأطفـال الذيـن لا يجـدون غيرهـا يسـتوعب ضجيجهـم، أمـا النسـاء ومـا أدراك مـا نسـاء القاهـرة، ترفـل الواحـدة منهـن في نقابهـا أو عباءتهـا السـوداء تتمايـل وتتبخـتر وكأن الشـارع ملـك لهـا وحدهـا دون النـاس، فأحـاول قـدر الإمـكان تحاشـيهن، فـإن نجـوت مـن التصـادم أو التلامـس لا أنجـو مـن الأعـيُنِ الواسـعة المزينـة بالكحـل، والنظـرات الآسرة، أسـتغفر الله، أذكـر ذات مـرة أني اصطدمـت بنارجيلـة موضوعـة أمـام دكان العـمّ طـه النحـاس، بسـبب فتـاة فاتنـة العينـين، دعجـاء مكحلـة، رمتنـي بسـهامها، سـقطت النارجيلـة أمامـي فتعثـرت بهـا وحاولـت جاهـدًا التعلـق بالآنيـة المرصوصـة بعضهـا فـوق بعـض، إلا أنهـا انهالـت فوقـي أثنـاء سـقوطي، فـإذا بعمـي طـه يهـرول لنجـدتي وقـد راعـه مـا حـدث لي.

– انتبه يا شيخ يعقوب ألا ترى أمامك؟!

وجـدت الثيـاب قـد احترقـت مـن جمـرات الفحـم في مواضـع متفرقـة، لم أملـك مـن أمـري إلا أن عـدت مسرعًـا للبيـت فبدلـت ثيـابي وأرسـلت المحترقـة إلى الرفّـة ليحـاول إنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه.

***

لا يهـوّن عـلي الحيـاة هنـا سـوى حسـناء، فـإن كانـت الجـدران هـي جسـد الحـارة فـإن حسـناء هـي روحهـا، المليحـة التـي إذا بزغـت أنـارت

الدنيا بحسنها، لما لمحت انعكاس نورها على السماء وكنت على أرض الردهة مضجعًا قمت منتبهًا، أنزلَت القلة عن ثغرها، تساءلتُ من فرط الدهشة متعجبًا، هل كانت تصب ما فيها في فيها، أم كانت تملؤها بشهد ريقها؟ كم من كلماتٍ خُطَّت من أجلها! كم من أشعار أعجزتني بحورها وقوافيها كي تليق بها وبعينيها العسليتين الساحرتين! كم من ليالٍ أجلستني في الشرفة! لا تمل عيناي مراقبة مشربيتها، تنتظر ذلك الضوء الذي يبزغ بسطوعها، كم تمنيت أن تظمأ، لتأتي وتأخذ القلة، كم أنتِ محظوظة أيتها القلة عندما تتكئين على شفتها السفلية، كم أنتِ عظيمة وأنتِ معلقة تصبين الماء الفرات تروين ظمأها، حسناء هي قمر الرابعة عشرة في ليل القاهرة، هي المشربيات والقناديل الساهرة، هي الأفراح والأعياد، لم أحب الحارة إلا من أجلها، لم أحب الجلوس في الدكان بالساعات متحملًا جهل النسوة إلا هي، عيني المعلقه على مشربيتها تخشى غفوة أو التفاتة تضيع حلم رؤيتها.

أعد على صفحات الماضي أكثر من ثماني سنوات وقلبي معلق بها، كنت في الثانية عشرة من عمري وهي في التاسعة، قلت لها «أحبك» ولم تفهم سوى لذاذة الصحبة واللعب ودفء الحديث، الحارة احتملت صخبَ أكثرَ من خمسة عشر طفلًا، كما احتوت حبَّنا اليافع البريء المنزه من الشهوات، حارتنا بها صفان متقابلان من المنازل يحتوي كل صف منهما أربعة بيوت، وتنتهي بجدار يسد آخرها ويحمي ظهرها من عبث اللصوص والمماليك، ولها بوابة كبيرة جديدة بدل التي أحرقها الفرنسيس مع بوابات القاهرة

لمنع الثوار من الاختباء خلفها، أهل الحارة أناس طيبون، متحابون ومتقاربون يختلط بعضهم ببعض بلا خشية، إلا عميّ سعيد النجار ومحمد الجهيني الحداد رحمه الله، فكانا الوحيدين المشاغبين بها، يملكان صوتينِ جَهْوَرِيَّينِ ويريدان الاستحواذ على زعامة الحارة، يجبان من آنٍ لآخر اختلاق بعض المعارك لاستعراض قوتهما، أما الشيخ عبد الحميد القيناوي رحمه الله فكان مؤذنَ مسجدِ السيدة زينب وهو أبو عبد الرازق وزوج عمتي كوثر أطال الله عمرها، رجل كفيفٌ، حفَّظ ابنه القرآن صغيرًا حتى توفاه الله، في حين كان يحفظني أبي كل ما ورد في كتاب تذكرة داود الأنطاكي لأعرف كل شيء عن الأعشاب وتأثيرها والعطارة وشغلها، أما عمي حجاج أبو حسناء وزوج عمتي زينب تاجر قماش ميسور الحال أغنى من باقي رجال الحارة، وبجوار بيتنا على اليمين بيت العم عوض الخياط يليه العم رزق المنجد، وعلى اليسار العم سيد الحلاق وهو البيت المجاور لبوابة الحارة، جميعهم أناسٌ طيبون لا نسمع لهم حسًّا.

❋❋❋

عبد الرازق هو صديقي ورفيقي منذ عرفت قدماي تراب الشارع، شاب شهم ذو قلب طيب بسيط سهل بريء مثل الأطفال، لم نتعارك يومًا منذ تصادقنا، ولم نختلف على شيء، كنا نلعب معًا منذ كنا صغارًا في الحارة، لكن توطدت علاقتنا أكثر بعدما درسنا بالأزهر فكان رفيقي في الذهاب والإياب، حسن الوجه لحيم الجسم قصيرًا نسبيًّا، أبيض البشرة، يحمر وجهه لأي

حركة أو انفعال، ذا لحية سوداء لامعة ناعمة، مرِحًا فرِحًا يحب الضحك لأتفه الأسباب، يحفظ مئات النكات ودائم الثرثرة، لا يُتعب لسانه أبدًا ولا تنغلق شفتاه أكثر من هنية عابرة، والله إني لأعتقد أنه يتكلم ويهزر وهو نائم أيضًا، يقوم بتحليل كل شاردة وواردة حتى نظرات الناس وإيماءاتهم بل يصل به الأمر للغوص في ضمائرهم أيضًا، والأدهى من ذلك أنه يتنبأ بما سيفعلونه، بالطبع يخطئ كثيرًا في تنبؤاته، لكنه أيضًا يصيب في مرات عديدة والمضحك أنه كلما أصاب في واحدة ينفش ريشه ويقول لي:

- ألم أقل لك يا بني إن هذا سيحدث؟! لا تنكر عبقريتي مرة أخرى..

فأذكره بالمرات التي أخفق بها، فيجادل ويبرر حتى يثبت أنه على صواب، نعم هو دائمًا على صواب، هكذا يجب أن أعترف لأتخلص من جدالة وثرثرته التي لن يوقفها إلا باعترافي بهذه الحقيقة، كم من مرة يقول لي أبي متهكمًا: «صاحبك تأثر بطول جلسته مع أمه» فأرد غيبته حانقًا:

- دعك من صاحبي يا أبي، إنه أرجل من مئة ويزيد!

ومن فضائله أنه يحفظ القرآن بالقرءات العشر، ويحفظ أكثر من ألف حديث شريف بالسند، صوته عذب ملائكي تطرب لسماعه إذا تلا القرآن أو أنشد بالتواشيح والابتهالات، يحبه شيوخنا بالأزهر لظرفه ويستوقفونه لسماع هزره وأحدث النكات التي يحفظها، خاصة تلك التي تسخر من المماليك وتمرغ كرامتهم في التراب.

اعتدنا الجلوس معًا بعد الرجوع من الأزهر والغداء، نراجع دروسنا وقد نقطع المذاكرة فنتكلم بلا هدف في أوقات كثيرة، أحب قضاء الوقت عنده لأنعم بسخاء أمه الخالة كوثر فهي نبعٌ من ينابيع الطيبة والحنان، والكرم أيضًا والقلب الذي يخاف عليّ بشدة ويشعر بحزني وفرحي وتدعو لي بالليل والنهار، إنها تفرح لقدومي وتقلق لغيابي، منذ كنت صغيرًا وهي ترفض أن تأخذ مني ثمن البليلة والفول المدمس وكذلك الحمص، إنها تعطف علي أكثر من عطفها على ابنها، وكان يقول لها ضاحكًا:

– والله إني لأشك أن يكون هو ابنك وأنا ابن العم علي العطار، وقمتها بالمبادلة، فالعمّ علي لا يطيق إعالة ابنٍ بدينٍ يستنْزف موارده.

فكانت تضحك لكلماته وتردد:

– أحرق الله شيطانك يا عبد الرازق!

زوجها القيناوي –رحمه الله– عمل مؤذنًا في مسجد السيدة زينب، الشيوخ يختارون المؤذنين من العميان حتى لا يشتافوا إلى عورات البيوت إذا ما صعدوا المآذن، ترملت المسكينة منذ أربع سنوات تقريبًا فأخذت على عاتقها مسؤولية البيت ولم تنتظر الصدقات من الناس وكانت تقول لهم:

– لن أربي ابني من مال الصدقات، يجب أن يسير بين الناس مرفوع الرأس.

هذه المرأة القوية وقفت كصخرة ثابتة في وجه الرجال الراغبين في الزواج بها، فهي جميلة الوجه وهي من ورّثت عبد الرازق

استدارة الوجه والشعر الأسود الناعم، نَفَضَت عن نفسها ثياب الراحة وعصّبت رأسها، وقامت تصنع البليلة من القمح واللبن والسكر وتدمس الفول وتسلق الحمص وتبيعها في حلل نحاسية حمراء على ناصية الحارة، امرأة خير من ألف رجل، ولا أنسى وقفتها بجانبنا يوم حادثة الطعن وبعده، يومها كنت وأبي عائدين بصحبة عبد الرازق من السوق، يضحكنا بأحدث نكاته، حينها تلقى أبي تلك الطعنة الغادرة في ظهره، شعرت بأنها اخترقت قلبي أنا، صرخ صرخة عظيمة جعلت المارّة يأتون مسرعين ويحيطون بنا، تشبث بي وهو غارق في دمائه، ذرفت عينيه الدموع من الألم، يقول لي: «نار تسري في جسدي يا ولدي» شعرت بسخونة الدماء التي ألصقت الجلباب بجسده، ثم دارت عيناه تحملق في السماء وسكت حتى ظننت أنه قد فارق الحياة، رأيت وجه عبد الرازق الطفولي قد احمرَّ، والدموع تغمر وجنتيه، يتدافع الناس للمشاهدة، يحجبون الهواء عنا، كانت الدنيا تدور بي ولا أرى غير وجه أبي، أما عبد الرازق فقام يحمله، فحملت معه وجرينا به إلى البيت.

جفلت أمه عندما رأتنا نقتحم الحارة والدماء تغمرنا، تركت أوانيها وصعدت تلحق بنا تصرخ وتلطم وجهها، مر وقت قليل لا أذكر قدره حتى رأيت الحكيم يقف بيننا، قام بواجبه وانصرف بعدما نظف الجرح وطهره ووصف لنا الدواء، أَقسَم أبي بعدما أفاق بأيام أنه لا يعرف شيئًا عن أمر المجرم الذي طعنه وأقسم أنه ليس هاربًا من الثأر كعمي عنتر، صرخت فيه خالتي كوثر التي لم تصدقه:

– قل الحقيقة يا عم علي فربما يتعرض ابنك للأذى بلا ذنب.

ثم سأله عبد الرازق متحيرًا:

– هل يعقل أن يتربص بك مخلوق لعدة أشهر حتى كاد يقضي عليك بلا سبب؟!

❋ ❋ ❋

أصبح هاجس أبي من تكرار الاعتداء مرضًا، حرمني وعبدَ الرازق عدةَ أشهرٍ شجرةَ الصفصاف الباسقة الراسخة على شاطئ النيل.

«السلام عليكِ أيتها الباسقة المقدسة، كم سقيناكِ بأسرارنا وتأوهاتنا، كما سقاكِ النيل فرات مياهه» كنا نرتل عندها وِرْدِ زوال الهم اليومي، نجلس كل أصيل بين جذورها نستند إلى جذعها ونسلم وجهينا لتكسرات الضوء والظلال وانعكاس الأشعة الذهبية على أمواج النيل الناعمة، مكاننا بين جذورها لا يطؤُه غيرنا فنزول المنحدر أمر شاق وخاصة على عبد الرازق، لكنا نجتهد كل مرة حتى نصل إلى غايتنا عند حافة النهر، لتصبح أقدامنا أقرب ما تكون من الماء،

ولا ننسى تلك المرة التي كاد يغرق فيها عبد الرازق، فأذكره بها لأناكفه.

– مرت سنتان على حادثة غرقك يا بدين!

يضحك حتى يرتج جسده كأنه قربة ممتلئة بالماء، وتحمر وجنتاه وتدمع عيناه.

- حقًّا صدق المثل شر البلايا ما يضحك

زلت قدماه بسبب لزوجة الطمي فتكور وسقط متدحرجًا في النيل ولولا أنْ حَجَزَه جذر شجرة بارز لداخل النهر لكنا جرينا وراء جثته حتى دمياط أو رشيد، حينها لحقه عمي غريب الصياد بمركبه فكان يدفع من ناحية البحر وأنا أسحبه من ناحية البر، وبعد انتشاله أغدق علينا الصياد بعرض سخي بأن يمهد لنا موضع النزول لكنا رفضنا حتى لا يكون المكان موطئًا لغيرنا، يكفينا أن نصلح موضعًا لجلستنا، فإن جلسنا خففنا من أثقالنا، وألقينا همنا في النهر ونترك العنان لعيوننا لتطفو على الأمواج ونتأمل مراكب الصيد الصغيرة والصيادين وهم يرمون شباكهم تارة ويجمعونها مملوءة بأسماك البلطي والقراميط تارة أخرى، والمراكب الشراعية الكبيرة التي تنقل البضائع من الجنوب إلى الشمال والعكس، فكانت تمر علينا حاملةً القلل والأواني الفخارية وقصب السكر والفحم وكتل الرخام الضخمة، نستنشق ملء رئتينا الهواء النقي النائي عن الصراعات المحيطة بالقعلة والأزهر، ثم نبدأ في حديث مستفيض يشمل كل ما يجول بخاطرينا، أحلامًا عبثية حول الاستقرار السياسي وأمن البلاد، وأحلامًا أخرى بريئة كزواج كل واحد منا بحبيبته، أنا بحسناء وهو بهند بنت العم عوض.

عندما تميل الشمس فتقف فوق رأس الهرم الأكبر الشامخ، ليبدو كمنارة وسط بحر يلج بالرمال الصفراء، نعود إلى الحارة لنقوم بإسراج القناديل المعلقة فوق أبواب بيوتها الثمانية إلا واحدًا، فوق باب عمي عوض الخياط، فقد عطل من تراشق الأطفال

بالحجارة، ثم نذهب لصلاة المغرب في مسجد السيدة زينب وبالليل نسهر حتى منتصفه أمام الدكان ثم نغلق بوابة الحارة قبل أن نفترق للنوم.

❋ ❋ ❋

مَمَّ نحن هاربان يا أبي؟ لماذا تركت الناس ينسجون ماضينا، يختلقون أصلنا؟ قل لي بالله عليك ولا تستمر في شنق عقلي بحبال صمتك، يجب أن تقول لي من نحن؟ وما حكايتنا؟ أريد أن أسافر لقريتنا، أقبلُ جذورنا، أضمها وتضمني، تحتوي انفلاتي في الحياة بلا جذور، أصل الرحم الذي وهب لنا الحياة، لا بد أن أثبت لنفسي قبل أن أثبت للناس أننا من عائلة كبيرة وأصيلة وأننا لسنا ضعفاء، لسنا كالمماليك لا أصل لنا، إن كان عمي عنتر قد هرب من الثأر فمَمَّ نحن هاربان؟ عمي عنتر ذلك الرجل المسكين الذي وصل إلى الستين وما زال على حاله وحيدًا بلا أسرة، يخشى أن يفتضح أمره ويتعرف عليه طالب الثأر، عمل تاجرًا للغلال ويملك دكانًا صغيرًا في المغربلين، ترك القرية منذ اثنين وعشرين عامًا، لَبَدَ في القاهرة من يومها ولم يغادرها أبدًا، سمّر لونَه الزمانُ ونحفه الهم، طويل القامة انحنى ظهره من قسوة الثقل على كاهله، وجهه مربع، حاجباه نبتا على خط مستقيم يوازي خط شاربه، لحيته قصيرة مخروطة الشكل كالقمع، كثيفة الشعر في أدناها ومنحولة في أعلاها، هو مَن استقبلنا في القاهرة وضيّفنا ثلاثة أشهر حتى ارتفع بيتنا وملأ ذلك الفراغ الضيق في الحارة.

كان الرجل ولا يزال نعم القريب والصديق، ليس له غيرنا، يخاف الاختلاط تمامًا كأبي، يخاف أن يعرف حقيقته إنسان، وهو من يحتوي غضباتي كلما جئت إليه شاكيًا أبي، فكان يطفيء نار غضبي بكلمات كالماء تغمر قلبي بردًا وسلامًا، فالحزن والوحدة علماه الحكمة.

– إن أباك كان بطلًا قويًّا وأغلب أهل قريتنا يحبونه ويهابونه، ارفق به يا يعقوب ولا تغضبه، فلا يعلم فضله إلا الله.

– فضل من؟ أبي كان بطلًا! أتخدعني يا عم عنتر، أم أنك تجّمل صورة صديقك الوحيد.

– لو لم يكن ذا فضل لتجاهلته ذلك اليوم عندما رأيته صدفة يسير هائمًا بالشارع.

أنا لم أرَ من أبي أي دليل يثبت تلك الشجاعة، وإني والله لأعتقد أنه ينظر لأسفل قدميه وهو يمشي، خشية أن يدوس على ظله فيعاركه، أو يعرقله، ولم أضبطه يومًا متلبسًا في مشاجرة أو حتى مشاحنة، بل ما يحدث هو العكس تمامًا، فهو يتحمل إهانات الجيران ويتجنب الاصطدام بهم ويتوارى إن نشبت بالحارة أي مشكلة، مما كان يجعلني أمشي بعد كل مواجهة بينه وبين من يشاكسه مطأطئَ الرأس، لا أستطيع أن أواجه نظرات الشماتة من بعض الصبية ونظرات الشفقة من الآخرين، كان جبنُه هذا السببَ الرئيسَ في أغلب مشاجراتي فكنت أعود إليه كل يومين أو ثلاثة مصابًا من أثر مشاجرة مع الأولاد، كنت أريد أن أعوض جبنه بشجاعتي، هربه بإقدامي، أيامٌ ولت إلى حال سبيلها، أما الآن فقد كبرت على الشجار، وكذلك لم

يعد هناك من يضايقه، فقد هدى الله المعلم سعيد النجار واتعظ بعدما توفي غريمه المعلم محمد الجهيني منذ سنتين في سن الثامنة والثلاثين، فجأة ومن دون إنذار ولا سابقة مرض.

– أَذكُرُ يا يعقوب أول مرة رأيت فيها أباك وأُعجبت به كانت قبل سفري من القرية بسنة أو يزيد قليلًا، عندما وقف في وجه واحدٍ من الخفر كان يعتدى على امرأة مسكينة، فحال دونهما لا يخشى بطش العمدة، صُلبًا كالحائط مانعًا ضربات الخفير أن تصل إلى المرأة، كانت عيناه كعينَي الصقر وجهه نحيلًا طويلًا حادَّ الملامح كأنه نُحِتَ من الصخر، بشرته قمحية لامعة تعكس ضوء الشمس، عضلاته قوية عروقه نافرة، نظر بقوةٍ وتحدٍّ للخفير الذي أُنهِكَ من محاولته الوصول إلى المرأة دون جدوى حتى انسحب مهددًا ومتوعدًا، ذهبت إليه حاملًا القُلَّة قبلتُ كتفيه وعانقتُه وأثنيت عليه، تكلمت معه وعرَفتُ أنه عليٌّ، الابنُ الوحيد لأحمد الطيب، الغائب دائمًا في رحلات التجارة.

***

آخر خلاف نشب بيننا كان بسبب الوالي محمد علي، فكل أهل القاهرة يحبونه أما أبي فهو كالعادة له رأي مخالف، يقول لي ساخرًا من حماستي المفرطة مرددًا المثل:

– «الطينة من الطينة واللتة من العجينة».

فيكون لسان حالي: «خالفْ تُعرف، أنت هكذا دائمًا» وأرد غاضبًا عليه:

- لا يعجبك العجب!

يستهين بغضبي ويمعن في استفزازي فيقول:

- أنتم حمقى لا تفهمون شيئًا.

عندما أسمع تلك الجملة التفت له فنترامى بالنظرات، أنا ساخطًا وهو ساخرًا.

دائمًا يستفزني بآرائه السياسية التي تسمم بدني، لكني أصر على رأيي بعلو صوتي وتهكمي، بالطبع هناك فارق عظيم لا شك فيه، واضح كوضوح الشمس لمن يملك شيئًا من بصيرة، بين محمد علي وغيره من الأمراء أو المماليك، فهو رجل طيب عُرِف بين الناس بالتقوى والورع والميل إلى الرأفة بأحوالهم، يؤذيه ما يؤذيهم، ويسوؤه ما يسوؤهم، يتقرب إلى الشيوخ ويجلهم، أما السلطنة الشائخة فهي لا ترحم ولا تريد لرحمة الله أن تنزل، لكن الله غالب على أمره، ولذلك فنحن لا نقف في المنتصف بينهما مجرد مشاهدين، لا، فدائمًا لنا دور مهم، ولشيوخ الأزهر دور فعال وقوة لا يستهان بها، فلم ولن نترك الوالي لقمة سائغة يلتهمونها، فشيوخ الأزهر لهم يد طولى في تغيير مسارات الأحداث وهذا ما كنا نترقبه كل يوم منهم وننتظر وقفتهم الشرسة في وجه قُوَى الظلام التي تريد لمصر الانغماس في الذل.

وليست هذه مشكلته الوحيدة فأبي يجمع في جعبته الكثير من الصفات العجيبة، فهو مثلًا لا يثق بأحد، ويريدني أن أكون شبيهًا له في نظرته للناس، مرتابًا في كل شيء، وألا أعطي سري لمخلوق،

وألا أعتمد على إنسان أو أطلب منه شيئًا «لا يحك جلدك سوى ظفرك». لماذا هذه النظرة الدونية للناس وعدم الثقة بهم؟ لكن أيًّا كانت أسبابه فلا شأن لي بها، ربما تعرّض لحادثة غدر أو خيانة أفقدته الثقة بالناس، لكن ما لي أنا وحوادثه وعقده.

– اصبر يا حبيبي؛ إن غدًا لناظره قريب.

أما عبد الرازق فهو لا يقبل أي رأي يقلل من قدرة الوالي على حسم الصراعات أو يطعن في نيته الصادقة لإنقاذ الناس من الويلات، حتى إني عندما ذكرت له رأي أبي في الوالي رد متهكمًا:

– ماذا يفهم أبوك في السياسة؟ والله إني لأراهنك أنه لا يعرف الفرق بين الفلفل الأسود وحبة البركة التي يبيعها هاهاها.

***

(3)

والنيل إذ وفّى

«انتشينا وغنينا كأننا سعداء»

لصباح اليوم مذاق مختلف، الطريق تزينه الأفراح، الوجوه بشوشة، فمنذ خرجنا اليوم من بيتينا والناس تتلقانا بالبشر والحبور والتهنئة، اليوم عيد وفاء النيل، لقد نسينا في غفلة الهم أنه قادم، سيوفي النيل لأحبابه ويرضي النفوس المشتاقة إلى خيره وثمره، وكما فرح الناس فرحنا، وكما هنؤونا هنأنا، وانتابتنا حالة من التفاؤل لم يكن لها حساب، صاحبتنا حتى وصلنا إلى باب الأزهر ودخلناه، لكننا دخلنا وحيدين، فقد ودعتنا البهجة عند الباب، وكأن باب الأزهر يفصل بين عالمين متناقضين، فالقلق هنا يكسو الوجوه، قابلنا الطلابُ بالوجوم فوجمنا، سرنا بين أروقة المسجد ننظر إلى حال المجاورين المبعثرين في كل مكان، يجلسون في جماعات متفرقة وكل جماعة منهم تتحدث في أمرٍ مختلف، سألت عبد الرازق:

- لماذا لا يلتزم كل شيخ بعموده ويلقي درسه؟

فوضى غير مفهومة، الشباب والشيوخ يتكلمون في السياسة، نعم، ولا شيء غير السياسة، لا أحد يتكلم في العلم أو الدين، استوقفْنا الشيخَ حسنين الأسيوطي لنستوضح منه الأمر فرد قائلًا:

- ألا تعلمان أن اليوم هو يوم وفاء النيل؟

- بلى، وماذا في هذا، إنه عيد وفرح.

- هذا أول احتفال بيوم وفاء النيل يأتي منذ تولي الوالي محمد علي الحكم، وسيكون مشغولًا بالاحتفال، ستكون الفرصة سانحة للغدر به.

هناك من الشيوخ من يقول إن هناك حركة غريبة تحدث حول القاهرة، يشمون رائحة الخيانة تسير في الأروقة.

- أمكشوف عنكم الحجاب أنتم أيضًا؟ يكفيني أبي الذي يرى ما لا يراه الناس.

اقتحم عبد الرازق الحوار معليّا صوته متهكمًا:

- عندنا الشيوخ يعشقون التحليل والتأويل وتشغيل الفهامة حتى تشطح بهم الأفكار حد الخزعبلات!

رد عليه الشيخ حسنين بنفس الجدية ولم يبالِ بتهكم عبد الرازق:

- يؤكدون أن هناك مؤامرة تتم من المماليك، لكن ما هي؟ وما تفاصيلها؟ لا أحد يعلم أو يجيب..

«الستر من عندك يا رب، اجعل الساعات القادمة تمر على خير».

مر النهار كله ولم يقم واحد من الشيوخ بالدرس أو الشرح ورجعنا من الأزهر بخُفَّي حنين، نقدم رجلًا ونؤخر أخرى، أمسينا في حالة من التوتر والقلق عكرت صفوًا كنا قد أصبحنا عليه، ما دامت

هناك مؤامرة فهذا يعني أن الدماء ستراق وستحل الفوضى، ترى هل سيتمكنون من اغتيال الوالي أو خلعه؟ وتعود ريما لعادتها القديمة، نعود للظلم والثورات مرة أخرى، إنا قد تمنينا أن نحيا عهدًا جديدًا مع رجل نحبه ونثق به، ولا نقبل الرجوع تحت رحمة المماليك مرة أخرى، ليتنا ما ذهبنا اليوم إلى الأزهر فلم نجن من الذهاب غير وجع القلب، «اللهم نجِّ الوالي من غدرهم»، نتمتم بالدعاء طوال الإياب حتى وصلنا الحارة، وجدنا أبي قد أحضر بضاعة للدكان لتوه، نظر إلينا في أثناء دخولنا من بوابة الحارة فأشار بيده أن أسرعا فأسرعنا، فذهبنا إليه مهرولين وقمنا بمساعدة المكاري في إنزالها، نناول أبي إياها فيأخذها ويقوم برص بعضها بالداخل على الأرفف المخصصة لكل صنف، ويفرغ بعضها في المقاطف التي تحتوي الأعشاب والبهارات، ويعلق الأخرى في واجهة الدكان على مسامير تحيط بحلق الباب مثبتة في مسافات متساوية تقارب الشبر، انتهينا واسترحنا.. أحب عبد الرازق أن يناكف أبي كعادته فقال له ممازحًا:

– اليوم هو عيد وفاء النيل، يقولون إن العادة منذ زمن الفراعين هي إلقاء فتاة جميلة بهذه المناسبة، لذلك فمياه النيل مُسكَّرة..

أبي يحدجه، منتظرًا تكملة النكتة لآخرها:

– الناس بالأزهر يقولون إن الوالي محمد علي سيكون هو عروس النيل اليوم، تُرى ماذا سيكون طعم النيل بعد ذلك؟!

فرد أبي ساخرًا يجاريه مزحته:

– سيكون مُرًّا كالعلقم!

– تخيل يا عم علي لو كنتَ أنتَ فتاةً في زمن الفراعنة واختاروك لتكون عروسَ النيل واااا...

لم يستطع عبد الرازق تكملة جملته وضحك مقهقهًا مما أثار غيظ أبي فقام يمسكه من رأسه، فلفَّ ذراعه حول رقبته وعبد الرازق يرتج جسده من الضحك، ويحاول أن يخلص نفسه لكن بلا فائدة:

- ألن تكف عن هزرك هذا يا لئيم؟!

أسقط أبي عمامة عبد الرازق وأخذ ينكش شعره الأسود الناعم حتى سقط البدين قاعدًا على الأرض وقد احمرَّ وجهه الأبيض حتى صار لونه كالدم لكنه لم يتوقف عن الضحك حتى أضحك أبي، سمعنا صوت الخالة كوثر تتكلم ضاحكةً من شرفتها:

- أدبه يا عم علي، فهو لئيم طويل اللسان!

خرج العم سيد الحلاق من دكانه على جلبتنا، فلما شاهد أبي ممسكًا بعبد الرازق وسمعنا نضحك.. ضحك وقال مازحًا:

- هل أحضر لك المقص يا عم على لتقطع لسانه؟ أعرف لسانه طويلًا!

- لا يا عم سيد، هات الشفرة وتعالَ، فهو يحتاج إلى الختان!

ضحكنا كثيرًا، ومهما علا الضحك لا يبدد مخاوفنا، ماذا نملك سوى اختلاق الضحكات والنكات حتى نبدد أوهامنا وتوجسنا، وبقدر ما نخاف من المجهول بقدر ما نقهقه..

صعدنا إلى بيتي، بعدما تناولنا الغداء عند خالتي كوثر، السطح عندي سيكون مركز مراقبتنا للأحداث، ساعتان وتأفل الشمس، ترى هل سيكون الوالي معها من الآفلين؟

***

تعممت السماء بعمامة كحلية مبرقشة بالنجوم، يزداد تلألُؤها كلما زادت الظلمة، وقفنا ناحية الحارة مستندين بمرفقيتا إلى سياج السطح، رأينا العم رزق المنجد يقوم بإسراج القناديل ثم عاد ليجلس على الفرشة التي فرشها أمام دكانه، مَسَكَ بالقوس والمطرقة الخشبية وبدأ يندّف القطن المتشابك أمامه، ثم نظرنا إلى القلعة وقد أضيأت قناديلها، ترى كيف سيكون حالها الليلة؟

سمعنا أناس تهلل خارج الحارة ويقولون: «وفّى النيل وفّى النيل» ارتفعت المياه ستَّ عشرةَ ذراعًا، رد أهل الحارة مهللين ومكبرين ينظرون إلى لمارة خارج الحارة..

فرغنا من صلاة العشاء، وفرغت المساجد من المصلين، خرجت الناس فرحة يهنئ بعضهم بعضًا، مثل أسراب النمل ينبثقون من كل مكان، رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، متجهين صوب شاطئ النيل، كل جماعة تحمل قنديلًا، وكثير من الأطفال يحملون الشموع والفوانيس، لمحت ذلك الوجه الذي يعكس نور قنديله ويتلألأ، إنها أميرة الأميرات حسناء، من وسط ألف إنسان أعرفها، لا نقاب يعجزني ولا زحام ولا ظلام، فالأرواح تعرف طريقها للتلاقي ولا تعترف بالحواجز أو الموانع، لكن مع الأسف غلبنا الزحام وابتلعتنا الجموع المبتهجة، تلفتُّ أبحث عن قبس من قنديلها، ومددت عيني حتى آخرهما أتعلق في قشة المستحيل، الطبل والمزامير والأهازيج وأصوات الأطفال ومراكب القناديل التي تتأرجح على أمواج الليل، كلهم ضدي، أفلتها وأفلتتني، يا له من حظ عاثر!

الناس مبتهجون وعبد الرازق فرح يغني، وكأننا ما سمعنا شيئًا بالصباح عن المؤامرة، انسلتنا من بينهم وانعطفنا متجهين صوب

شـجرتنا التـي تحفـظ جـل أسرارنـا، لنشـاهد معهـا الاحتفـالات، رأينـا المراكـب المزينـة متجهـة صـوب مقياس النيـل بالروضـة، تنافسـت أصوات المغنـين القادمـة مـن كل اتجـاه مـع نقـرات المطبلـين في الوصـول إلى آذاننـا، حالـة عظيمـة مـن البهجـة كانـت قـادرة عـلى إسـعادي لـو لم أفلت حسـناء..

تكلـم عبـد الـرازق بصـوت عـالٍ محـاولًا إيصـال كلامـه إلى سـمعي ولفـت بـصري

– مؤكـد أن الـوالي قـد نـزل مـن القلعـة مـع الأمـراء مـن سـاعة عـلى الأقـل ومؤكـد هـو الآن فى الذهبيـة، هـل تعتقـد يـا يعقـوب أن المؤامـرة تمـت بالفعـل أم لم تتـم بعـد؟

لا أعـرف مـا أقـول لـه فقـد نسيت تمامًـا أمـر الـوالي والمؤامـرة ولا أذكـر سـوى فتـاتي، فقلـت لـه باقتضـاب لعلـه يسـكت:

– أو قل لا توجد مؤامرة مطلقًا.

اعتـدل في جلسـته ونظـر إلي بـكل وجهـه مبحلقًـا في وجهـي وقـال والدهشـة باديـة عليـه:

– هل تعتقد هذا؟

– نعم.

مـر الوقـت وبـدأت الميـاة تتدفـق وهـذا يعنـي ببسـاطة أن الـوالي قـام بمهمتـه وضرب السـد بمعولـه الفـضي مـن دون أي مشـكلات تمنعـه، فاسـتبشرنا وانـشرح قلبينـا، ضحكنـا وسـخرنا مـن شـيوخنا، فانتشـينا وغنينـا، ومـرت السـاعات بـلا أهـوال فقلنـا: «اللهـم أتـم الليلـة عـلى خير».

❋❋❋

مشينا شاميتن، وحلَفنا أن نملأ الأزهر سخرية ونكات من توقعات الشيوخ -نكد الله عليهم كما نكدوا علينا- وسمعنا العامة يتكلمون في الشوارع بكلام مبهم لم نفهم منه شيئًا، واحد يقول:

- خرعهم الوالي هاهاها!

ومن رهط آخر أسمع من يقول:

- سخم الله وجوههم، في النار وبئس المصير!

أول ما دخلنا نادينا الشيخ حسنين، فانسلت من بين ثلة من المجاورين ألقينا عليهم السلام رافعين ذراعينا، وقلنا له ساخرين:

- ما أخبار شيوخنا العباقرة؟

فرد متعجبًا من تهكمنا:

- ألم تصح نبوآتهم؟

أجلمنا كلامه الغامض وقلنا له: كيف؟ فشرح لنا وبيّن، لقد صدقّت نبوءة الشيوخ الذين ظنناهم مخرّفين، فقد كان الناس في وادٍ يبتهجون، والمماليك في الخفاء يتحركون، نظرنا فإذا شيخ الأزهر الجليل عبد الله الشرقاوي قادمٌ من بعيد، كان كلما اقترب من صحن المسجد تجمَّع الطلاب حوله وأحاط به الشيوخ، وقف في منتصف الصحن تمامًا، شامخًا مهيبًا خفتت الهمهمات حتى بدت زقزقة العصافير أكثر علوًّا من أي صوت في المسجد، الجميع شغوف لسماع تفاصيل تلك المعركة الضروس وفك طلاسمها، لحيته تتقطر ماء من أثر الوضوء، تكلم بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ زاده صمتنا هيبةً ووقارًا:

«الحمد لله الذي رفع السماء بلا عمد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولد، أما بعد، فقد نما إلى علمنا بأنه اتحد من المماليك ألفُ مقاتل أو يزيد،

متآمرين مع مجموعة أخرى من قادة جند محمد علي، لينضموا لهم بمجرد دخولهم إلى القاهرة، مستغلين انشغاله بالعيد لينقضّوا عليه ويخلعوه فيستولون على حكم مصر مرة أخرى، لكن عناية الله ورعايته كشفت المؤامرة، وعلم الوالي بما يخططون فوضع خطة تقوم على استدراجهم إلى داخل القاهرة وحصارهم ثم حصدهم مرة واحدة، وبالفعل دخل فرسانهم ومقاتليهم إلى الفخ المنصوب لهم وبدؤوا يتحركون صوب باب زويلة ومنطقة الدرب الأحمر فلقيهم هناك جند الوالي وقاتلوهم قتالًا عنيفًا حتى قُتِلَ منهم مئات وأسر مئات آخرون، وسيقوا إليه فأمر بقتلهم جميعًا وواصل مطاردة الفارين منهم حتى وصل إلى الجيزة فاستولى عليها وطرد منها فلول خورشيد باشا الوالي المعزول، واستولى على أسلحته ومعداته وبسط نفوذه وسلطانة على عموم الجيزة والمناطق المحيطة بها».

ما إن انتهى الشيخ الشرقاوي من سرد وقائع المعركة حتى علت الأصوات مهللين ومكبرين، والله إن القلب لفرح بنصره أعظم فرح، فرحة لم نذق مثلها من زمن طويل، حال الأزهر اليوم غير الذي كان بالأمس، الفوضى بلغت ذروتها، إنها سكرة السعادة الغامرة.

❊ ❊ ❊

(4)

الخزائن المغلقة

«كيف أتخطى تلك المسافة بين الشك واليقين؟»

وسط هذا الزحام والضجيج عادت سيدة الكهف تظهر في أحلامي مرةً أخرى لتزيد حيرتي وعذابي، وزاد ظهورها في الأيام اللاحقة حتى أصبحت أراها كل يوم تقريبًا، لم تؤثر فيها أحزان القاهرة ولا أفراحها، حدثت ألفة عجيبة بيني وبينها، وتبدد الخوف القديم، حتى إني أصبحت أنتظر الليل حتى أراها، وأحاول كل مرة أن أتأمل التفاصيل بالحلم أكثر وبعقل واعٍ، وأفكر في أسئلة كثيرة لأطرحها عليها، وكأنها حقيقة وليست مجرد حلم، وأفكر أيضًا بالاقتراب منها وفك قيدها، لكن ماذا لو نجحتُ وحررتها؟ هل ستذهب وتختفي إلى الأبد؟ أشعر بالشفقة والالتياع لشدة حزنها وجزعها وأتمنى أن أمد إليها يد العون، نظراتها إلي مليئة باللوم لتخاذلي وتأخري عن نجدتها، وعجزي عن تحريرها، أقول لنفسي كل مساء قبل النوم: يجب أن أحررها وأخلع ثيابي فأغطيها، وربما أضمها إلى صدري، أكفكف دموعها، أهون عنها

آلامها، لكني رغم هذا الإصرار أعجز عن فعل أي شيء، رغم وعي الكامل برغبتي في مساعدتها، هناك قوة تحول بيننا، حاجزٌ وهميٌّ منيع لا أراه، يمنعني الاقتراب منها.

- اقترب يا ولدي!

إنها تمد ذراعيها بحذر تخشى أن ينكشف صدرها، كم هي خجولة حيية، العبرات ترتعش في عينيها.

- لا أستطيع الاقتراب منك يا سيدتي أقسم لك بالله، هناك قوة خفية تحول بيننا.

انهمرت دموعها فغمرت وجنتيها، بكيت متأثرًا لحالها ولعجزي عن فعل أي شيء من أجلها، قاومت بكل قوتي كي أتخطى ذلك الحاجز الوهمي حتى أُنهكت قواي.

- أرجوكِ أخبريني: من أنتِ؟ ومن قيدك وحبسك في هذا الكهف الرهيب؟ أرجوكِ أجيبيني!

الكهف العميق تتدلى من سقفه الوطاويط، منثور في أرجائه عظام وجماجم بشرية، أصبحت أرى تلك التفاصيل الدقيقة بصورة واضحة، وهي تجلس وسط كل هذا الرعب وتسمع سؤالي لكنها لا تجيب إلا بالدموع!

- أستغفر الله العظيم وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

هل أنتِ طيفٌ من الشيطان أم ماذا؟ جننتِني، عجزت تمامًا عن تفسير هذا الحلم الذي أنهك عقلي وقلبي، فتنازلت عن رغبتي في أن يكون سرّي وحدي، فحكيته لعبد الرازق لعله يفكر معي ويعينني بكلمة أو جواب يريح قلبي، وصفت له ملامح السيدة وموقع الكهف

وشكله، وصف تفصيلي دقيق، فأصابه ما بي من حيرة وعجز عن فك الأحجية، فقال لي بعد طول تفكير: «إن خير من يفسر هذا الحلم هو الشيخ عبد العليم، فهو أعلم شيوخ الأزهر بتفسير الأحلام» خرجنا من الحارة قاصدين الأزهر أو بمعنى أدق عمود الشيخ عبد العليم حيث يعطي درسه، عندما وصلنا وجدناه واقفًا مستندًا بظهره إلى العمود المواجه لمئذنة الأشرف قايتباي، انضممنا إلى الطلاب وسمعنا الدرس معهم. شيخ كهل تخطى الخمسين، مليح الوجه باسم الثغر، مرح يحب التطرق لأمور جانبية خارج موضوع الدرس تبرز لطفه وتنوع معارفه واتساعها، انتهى الدرس وتفرق الطلاب، رمقنا الشيخ بنظرات متسائلة ثم أفصح:

- خير يا شيوخ المستقبل، أقبلوا؟

أقبل عليه عبد الرازق في حين بقيت ساكنًا، تحدث معه بصوت خفيض وبأدب جم، أخذا يتكلمان لبرهة، الشيخ ينظر إلي حينًا وينظر إليه حينًا، ثم ناداني:

- اقترب يا يعقوب!

صافحني ثم ربت على كتفي بيد ودودة طيبة ثم دعانا للجلوس، جلس ووضع الكتاب الذي شرح منه الدرس في حجره ثم أخرج من جيب الجلباب لفافة بيضاء من الكتان بها تمر جاف فناولنا بضعًا منه، كانت رائحة التمر مسكًا تعلق به من العطر المنثور على ثياب الشيخ، نظر إلي عبد الرازق وقال محفزًا:

- احكِ يا يعقوب عن أحلامك فأنت في حضرة خليفة سيدنا يوسف في تفسير الأحلام.

ابتسم الشيخ عبد العليم ابتسامة جميلة، بيّنت أسنانه، شرعتُ أسرد له الحكاية، وهو يصغي بكل اهتمام وكلما شعر بغرابة الحلم، ظهرت الدهشة على قسمات وجهه، فعلمت من قبل أن أسمع منه ردًّا.. أنه لن يريح فؤادي.

– عجيب أن ترى هذه المرأة في كل الأحلام بنفس الصورة وفي ذات المكان، أمر عجيب حقًّا، ولا أرى أن بك جنة أو بلهًا، فعيناك براقتان ذكيتان، أعتقد أنها رسالة من الله يا يعقوب، ربما يريد منك شيئًا ما، لكن ما هذا الشيء؟ لم ينكشف بعد، لكني على يقين بأن ستأتيك إشارات أخرى تدلك على الطريق، فالله إذا ما أراد لأمر أن يظهر فإنه سيظهر وإن اجتمع الإنس والجن على عكس ذلك.

سكت الشيخ لبرهة وكأنما طرأت على عقلة فكرة مفاجئة، ثم برقت عيناه وسألني:

– قل لي يا يعقوب، أين أمك؟

– أبي يقول إنها ماتت وأنا صغير في المهد.

سكت مرة أخرى وكأنما يحاول ربط إجابتي بفكرته ثم قال:

– ربما تكون تلك المرأة هي أمك، وقد ارتكبت وزرًا ما يحول دون دخولها الجنة، وتحتاج إلى مساعدتك، لعل عليها دينًا أو كفارة وتريدك أن تقضيه عنها!

لم أفكر يومًا في هذا الاحتمال.

– أمي؟! لا أظن... ربما!

أخفض الشيخ رأسه وأخذ يقلب أوراق كتابه بلا هدف ثم نظر إلي مرة أخرى وأردف:

– اسمع يا ولدي، إن كنت تتذكر ملامحها جيدًا فلماذا لا تذكرها لأبيك لعله يريح قلبك ويساعدك في تفسير الحلم.

رغم عجزه عن التفسير.. فإنه استطاع أن يضيء بعض النقاط القادرة على كشف الغشاوة عن عقلي ووضع بين أناملي طرف الخيط، مؤكد أن حل اللغز العجيب عند أبي فهو يخبئُ عني سرًّا عظيمًا، وجاء الوقت ليميط عنه اللثام.

– أخبِرْني إن جدَّ جديد يا يعقوب.

قالها الشيخ ثم قام مستأذنًا:

– سأذهب لأجدد وضوئي.

تبعته بعينين زائغتين، حتى شق زبد الحمام واليمام الذي يملأ ساحة المسجد، فطاروا موسعين له، صعدت عيني تحلق معها حتى حط بعضها على مئذنة الأشرف قايتباي، ثم لفت نظري السحاب الذي يجري فوقها، قلت لعبد الرازق وأنا أتنهد:

– لماذا لا تكون الحياة بسيطة نقية مثل هذه السماء؟

ثم عدت لصمتي ولكن عبد الرازق لم يتمهل حتى أفيق من شرودي، فلكزني في كتفي بيده المكتنِزة:

– هيا قم لنذهب لدرسنا فالشيخ عبد الباسط سوف يبدأ الدرس بعد قليل، وهو لا يحب المتأخرين.

❋❋❋

كيف أتخطى تلك المسافة بين الشك واليقين وهو واقف في منطقة وسطى بينهما، كلما حاولت الاقتراب منه يبتعد، ترى كيف أستطيع استدراجه لسرد ذكريات الطفولة والشباب؟ أو الكلام عن بلدته

وعائلته، كيف أجعله يفتح الخزائن الموصدة المليئة بالأسرار؟ عقدت العزم على محاصرته وأقسمت ألا أتركه يتهرب مني هذه المرة.

دخلت من باب الحارة، وكانت هادئة على غير عادتها، لا أسمع ضجيج الأطفال، جميع الدكانين مفتوحة إلا دكان أبي فتعجبت لهذا، فهو لا يغلقه إلا في أوقات الصلاة، على أي حال لا داعي للقلق فالغائب حجته معه، لعله ذهب ليشتري بضائع للدكان، نظرت لعم سيد الحلاق الواقف على باب دكانه معلِّقًا القايش على مسمار حديدي مثبت في حلق الباب، وأخذ يسن نصل الموسي، تطل من الداخل رأس عمي سعيد وقد خلع عمامته.

- السلام عليكم.

- عليكم السلام، كيف حالك يا يعقوب؟

- الحمد لله.. هل رأيت أبي؟

- لا يا ولدي، لقد أغلق الدكان من ساعة أذان العصر لعله بالسوق.

صعدت السلم فسمعت أصوات خبط الأواني، فعرفت أنه بالداخل يعد لنا الغداء، إنها فرصة عظيمة لأحاصره.

- اقترب يا يعقوب وهات مشنة العيش ودش لنا بصلتين وتعال فقد أعددت لك أكلة تشتاق إليها كثيرًا.

فضحكت ساخرًا، أي أكل هذا الذي يفكر فيه؟

- ماذا؟ هل اشتريت لنا لحمًا أم ذبحت ديكًا؟

- لا تكن طماعًا يا يعقوب، اللحم والديوك لهم أوانهم، لقد أعددت لك البصارة ونثرت على وجهها التقليّة كما تحب، إن رائحتها شهية، تعال اجلس وسم الله.. آه ولا تنس القُلة.

أحضرت كل شيء، فوضعت الطبلية في منتصف الردهة وجلست على الكليم في الجهة المقابلة للشرفة في ناحية تسمح لي بالتطلع إلى شرفة حسناء لعلها تخرج في أي وقت، أما أبي فقد جلس في مواجهة الباب.

لم أمد يدي إلى الطعام، واصطنعت الوجوم والشرود.

- ما بك لا تأكل يا يعقوب؟ سمِّ الله وكُلّ!

- أبي.. أريد أن أسمع منك شيئًا، وبعد ذلك سآكل إن شاء الله.

- أي شيء؟!

- أريدك أن تصف لي أمي.

- الآن؟!

- نعم الآن.

ظهرت علامات الدهشة من هذا السؤال المباغت، وسكت لبرهة يبدو أنه يبحث عن شيءٍ ما يقوله.

- إن أمك ماتت منذ أكثر من عشرين عامًا، كيف أتذكرها الآن؟!

- بل، كيف لا تتذكرها؟ هل هناك من ينسى صورة زوجته؟

- يا بني، أقسم لك بالله أني لا أتذكر شيئًا.

- قل لي.. هل كانت بيضاء أم قمحية مثلًا؟ نحيفة أم سمينة؟ شعرها أسود أم بني؟ ناعم أم أجعد؟

زاد ارتباكه وبدا تلعثمه.

- لا أذكر يا يعقوب، أقسم بالله، دعك من هذا الحديث وكل يا بني، يهديك الله!

- إذًا، لا طعام ولا شراب حتى تتذكر.

قمت غاضبًا، وخرجت هائمًا على وجهي ولم أعر نداءاتِه أي اهتمام، مشيت في الطرقات ولا أعرف إلى أين أنا ذاهب، أخذتني قدماي في غفلة مني لأجد نفسي في «المغربلين» أمام دكان العم عنتر، وجدت عنده بعض التجار يساومونه في سعر البضائع، نظر إلي ثم نظر إلى الدكة قاصدًا أن أجلس حتى ينتهي، وبعدما فرغ من البيع وانصرف الرجال، قام فأوصد الباب، ثم جلس أمامي:

– ما لك يا فتى؟ شكوى جديدة من أبيك؟

أفرغت بين يديه معاناتي، الحلمَ المُلِحَّ، ورأيَ الشيخ عبد العليم، ثم ما دار بيني وبين أبي، تعجب من تفاصيل الحلم، وحلف أنه لا يعرف شيئًا، هل يعتقدان أني مغفل؟ هناك شيء يخبئانه عني، أستغفر الله العظيم، اللهم صبرني عليهما!

– أقسم بالله يا عم عنتر، لا أزورك مرة أخرى ولا أكلمك، حتى تخبرني بالحقيقة!

– لا تنس يا يعقوب أني قدمت إلى القاهرة قبل قدومكما بسنتين، أي إني لم أحضر الأحداث التي سبقت رحيلكما عن القرية، وأنت تعلم أكثر مني أن أباك كالصندوق المغلق، يوصد على ماضيه بأقفال ومزاليج، يستحيل على أي إنسان سبر أغواره أو كشف أسراره.

عدت إلى البيت وكانت الطبليةُ على حالها بصحونها، غطاها أبي بقطعة قماشٍ بالية، كشفت الغطاء فإذا بالطعام على حاله لم يمسس منه شيئًا، شعرت بغصة وتأنيب أوجعا فؤادي، من المؤكد أني ضغطت عليه وحملته ما لا يطيق، لكن ألمي وحيرتي أعظم، لذلك أنا مُصِرٌّ على موقفي، دخلت لغرفتي فخلعت ثيابي ثم ألقيت ببدني

على الفراش وأطلقت عينَي تتفحصانِ العروق والألواح بالسقف حتى خيوط العنكبوت المتفرقة بسقف الغرفة، سمعت صوت قبقابه يقترب مني، حتى شعرت بظله يتحسس وجهي، ثم تكلم بصوت هامس:

- يعقوب.. هل أنت مستيقظ؟

جاوبت بصوت خافت:

- نعم.

جلس بجواري مربعًا رجليه ثم وضع كفه على كتفي ثم ربت برفق على صدري

- ماذا بك يا ولدي؟ ما الضرورة المُلِحة كي تتذكر أمك وتغضب لنسياني لها، ماذا يفيدك إن كانت طويلة أم قصيرة، بيضاء أم سمراء، نحيفة أم سمينة، لقد ماتت وانتهى الأمر إن كنت تريد أن تعمل لها معروفًا.. فاقرأ القرآن وادعُ لها كثيرًا فهذا سيفيدها أكثر.

- يا أبي، اسمعني بالله عليك ولا ترهقني بجدالك، هناك ما هو مُلِحٌّ بالفعل ولا بد أن تصفها لي، هناك أمر يؤرّقني، بل يكاد يُجِنُّني، فإن كنت تحبني وتخاف علي.. فأرح قلبي.

- أيُّ أمر يا ولدي، خير إن شاء الله؟

قصصت له الحلم وكم تكرر وكم يعذبني.

- إن في الأمر سرًّا وأنت تعرفه جيدًا، وفي يدك وحدك راحتي.

- يا ولدي.. لا توجد أسرار، ولا أعرف من تكون تلك المرأة العارية، إن لم تكن تصدقني فأنا مستعد للقسم على المصحف.

أصر أنه لا توجد أي أسرار، وأنه لا يعرف شيئًا عن السيدة رغم

جفولـه الواضـح وتلعثمـه، لذلـك أصررت عـلى قسـمي بـألا آكل ولا أشرب حتـى أعـرف منـه كل مـا يخفيـه عنـي.

– أنـت لم تحـكِ لي أي شيء عـن أهلـك أو بلـدك أو أمـي، أريـد أن أعـرف شـكلها وطبعهـا، ومـن أي أسرة كانـت، وكيـف ماتـت، أليـس هـذا مـن حقي؟ إن كنـت بالفعـل لا تخبـئ عني أي أسرار.. فاحـكِ لي كل شيء.

– يا ولدي.. ارحمني ولا تعذبني بأحلامك.

– أقسـم بـالله.. لئـن لم تحـكِ لي كل شيء لأتركـنَّ لـك البيـت ولـن أعـود ثانيةً.

صمت قليلًا وأغمض عينيه لبرهة وكأنه يعلن استسلامه.

– سأحكي لك ما تريد، لكن غدًا، وبشرط أن تأكل معي الآن.

فرحت بهذا الانتصار الذي يمثل خطوة لفتح الخزائن المغلقة.

❋❋❋

– وسع لي قليلًا.

جلـس بجانبـي عـلى المرتبـة مسـتندًا بظهـره إلى الحائـط/ وفـرد رجليـه بعـرض المرتبـة، ثـم شرع يحكـي:

– سأحكي لك كل شيء لكن عليك بالصبر.

أومأت براسي موافقًا على شرطه المتعنت.

– إننـا مـن قريـة تدعـى قريـة ديـر الجبـل، كانـت صحـراء قبـل أن يقـوم الأقبـاط بنحـت الديـر في الجبـل منـذ مئـات السـنين، فلـم يجـدوا...

– صـبرًا بـالله عليـك يـا أبي، أي رهبـان وأي قريـة؟ هـل سـتحكي لي تاريـخ القريـة منـذ نشـأتها؟!

- إن لم تصبر وتنصت لكلامي فلن أكمل، هذا شرطي.

هذا الرجل يتلاعب بي، صّبرني يا ربي!

- تفضل احكِ يا أبي!

- أين توقفنا؟ اممم.. آه.. مرت القرون عليهم وهم يتوسعون في نحت الدير في قلب الجبل، حتى أصبح ديرًا كبيرًا، عمل الرهبان في الزراعة وصيد الأسماك من البحيرة ليستطيعوا مواصلة الحياة والإنفاق على الدير، وبعد مئات السنين جاءت عائلات مسلمة وسكنت عند البحيرة مبتعدين عن الدير قليلًا، ومع مرور الزمان زاد عدد السكان حتى أصبحت قرية كبيرة بها عائلات كثيرة من المسلمين والأقباط، وعرفت بقرية دير الجبل، أغلب أهل القرية يعملون في الزراعة والصيد، والباقون عملوا في التجارة والحرف المختلفة فأصبح فيها حدادون ونجارون وبناؤون وإسكافيون، أما الصيادون والفلاحون فيعملون في مراكب وأراضي الدير أو مراكب وأراضي أثرياء القرية، الأرض الممتدة بين البحيرة والجبل تخص أثرياء القرية والأرض الواقعة خلف الجبل ملك للدير وهي أرض واسعة لا آخر لها، بها أشجار النخيل والأعناب والزيتون والرمان، أكبر وأقدم عائلتين في القرية هما عائلتا الجارحي وسالم، وهما يملكان أغلب مراكب الصيد وأجود الأراضي الزراعية شاسعة المساحات، كانت هناك ألفة عجيبة بين الدير وأهل القرية ولم يحدث بينهما أي مناوشات على امتداد قرنين من الزمان، الحقيقة لم يكن الدين من أولويات العائلتين الكبيرتين بالقرية فقد كان همهما الأعظم هو توسيع رقعة نفوذهما وملكيتهما، حتى إن القرية كلها لا يوجد فيها سوى مسجد واحد متهالك مبني بالطوب اللبن ومسقف بجذوع النخل ومعرش بالبوص والجريد، أما

باقي سكان القرية فكانوا فقراء مستضعفين يعملون بالأجر اليومي، ولم يزد الأجر المتعارف عليه سوى مرة واحد خلال السنوات العشرِ الأخيرة قبل رحيلي، ولا يملك هؤلاء الفقراء من أمرهم أيَّ شيء، حتى المحاولة الوحيدة لاشتراك مجموعة من الصيادين لشراء مركب ليصبح ملكًا لهم حُرِقَ، ليكون إنذارًا شديد اللهجة لمن تسوّل له نفسه الخروج عن القبضة الحديدة لأولئك الظلمة، سكن الأغنياء في أجمل مكان يطل على البحيرة وسكن الفقراء في عشش متهالكة بجوار الجبل، عُمَدُ القرية منذ أنشات من الجوارحة وآخر عمدة قبل رحيلي كان الطاغية خالد الجارحي، رجل بدين قصير، شكله مُضحك لكنه ظلوم غاشم غليظ القلب، كان يعذب ويقتل العمال والفلاحين والصيادين لأتفه الأسباب، وبفضل قوته وشراسته دامت الغلبة والكلمة العليا في القرية لهم، فخبا نجم السوالمة وكسرت شوكتهم بعدما كانوا يتطلعون إلى كرسي العُمودية.

– ومن أي عائلة نحن؟

– نحن من السوالمة.

– ولماذا هربنا وتركنا القرية؟

– سأجيب عن هذا السؤال بشرط أن يكون الأخير حتى يأتي الوقت المناسب لحكي المزيد.

– موافق.. تفضل.

– عندما كنا صغارًا، كانت تحدث منافسات دائمة بين أطفال السوالمة والجوارحة، وكنتُ دائمًا من الغالبين، وبعدما كبرت عملت في التجارة مع الحاج فتحي رحمه الله، وبدأ حالي في الازدهار، زادت

معهـا كراهيـة وحسـد شـباب الجوارحـة، فتربصـوا بي ذات يـوم لكـن بفضلٍ مـن الله تغلبـت عليهـم وهزمتهـم منفـردًا كـما كنـت أهزمهـم عندمـا كنـت صغـيرًا، وأصبـت ابـن العمـدة بلكمـة في عينـه فازرقـت وتورمـت، ممـا أفقـد العمـدة صوابـه، وأقسـم ليجلـدني حتـى المـوت، ولم تفلـح معـه أي توسـلات مـن أبي أو جـدي، فأمـرني أبي بالهـرب بـك إلى القاهـرة لأنجـو مـن بطشـه.

- ألهذا الحد كان رجلًا ظلومًا؟

- بل أكثر من ذلك يا ولدي.

- قـل لي يـا أبي مَـن تلـك السـيدة التـي كانـت تزورنـا منـذ سـنوات وانقطعـت زياراتهـا فجـأة، المـرأة التـي ترتـدي ملابـس القساوسـة.

- جارة قديمة لنا من أيام القرية.

- جيد، والآن قل لي كيف ماتت أمي؟

- يا يعقوب.. هل نسيت شرطي؟ «لا أسئلة أخرى».

- لـو اسـتمر الحكـي بهـذا المعـدل، فسـأعرف الحقيقـة كاملـة في غضـون عـشرِ سـنوات عـلى الأقـل.

- إن الله مع الصابرين يا ولدي.

***

بالصبـاح نـاداني عبـد الـرازق مـن أسـفل البيـت ليقطـع حبـل أفكاري، فنظـرت لـه مـن الشرفـة:

- هيا لقد تأخرنا!

يقـف بصحبـة سـليمان ابـن العـم رزق المنجـد وأحمـد ابـن المعلـم سـعيد

النجار، لمحت في آخر الحارة الخالة زينب واقفة أمام عم رزق تحدثه في أمر ما، ليس من عاداتها أن تخاطب أو تخالط بسطاء الحارة، ربما تريد إعادة تنجيد مراتب البيت.

ارتديت نعلي وهرولت نازلًا، صافحت الشباب ثم أخذت صاحبي وانطلقنا، بدأ يتكلم كعادته، لكني لم أستمع لحديثه، وهو لم يلحظ شرودي، يعيد سرد ما نال المماليكَ من الوالي، يرى أن حلم المصريين يتحقق وأنه سينجح فيما فشل فيه السلطان العثماني والمماليك، أما أنا فكنت أحاول تفسير الحلم وربطه بما حكاه أبي محاورًا نفسي، كانت كلماته تخترق أذني كلما علت نبرة صوته.

«ترى هل تلك المرأة العارية هي أمي حقًّا؟ فهي محبوسة بكهف في الجبل وقريتنا بجوار جبل».

– أتعرف يا يعقوب.. هناك مَن رأوا بعضَ أحداث المعركة بين المماليك وجنود الوالي...

«لكن ماذا فعلت ليكون هذا جزاؤها، هل اكتشف أبي خيانتها له مع رجل آخر؟».

– لقد رأوهم وهم يحاولون الفرار من الحصار كالفئران وجنود الوالي يصطادونهم جماعات وأفرادًا هاهاها...

«هل أبي من القسوة أن يربطها عارية بداخل كهف في الجبل، لماذا لم يقتلها ويدفنها إن كانت فاحشة.

– ومنهم من لطم خده وولول مثل النساء هاهاها...

وصلنا لبوابة الأزهر ولم أصل لأي تفسير معقول لما أفكر فيه، رأيت حالة الانتشاء ما زالت غالبة على المجاورين كحال عبد الرازق،

يلقون النكات التي ألفها العامة وأقول لنفسي: هل سنظل نحكي عن تلك الواقعة إلى الأبد؟

مرت الأيام بعد ذلك هادئة محافظة على استقرارها، وعادت الدراسة تنتظم كسابق عهدها، والأمور تتحسن كل يوم وحالة الهدوء والاستقرار تطول، لكنه مع الأسف ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة، فقد وصلت لنا أخبار معركة بحرية شرسة دارت بين الأسطول الإنكليزي والأسطول الفرنساوي، قرب رأس طرف الغار في قادش، انتصر فيها الإنكليز انتصارًا ساحقًا، ولم نتخيل أن معركة كهذه وقعت بعيدًا في غرب الدنيا، سيكون لها دورٌ كبيرٌ في تبديد غلالة الهدوء البيضاء وسحق أماننا الواهي، فقد أدى هذا الانتصار لتقوية شوكة الإنكليز وسيطرتهم الكاملة على البحر المتوسط، وامتد نفوذهم إلى ضفاف البسفور، على مقربة من السلطان العثماني في الأستانة، فبدؤوا يستغلون انتصارهم في تلك المعركة بالضغط عليه ليقوم بعزل الوالي محمد علي وتولية ربيبهم وخادمهم المملوك «محمد بك الألفي» ولحسن حظ الألفي أن تكتمل خطة الشيطان بموافقة طلبُ الإنكليزِ الهوى العثمانيَّ، الذي فُرِضَ عليهِ محمد علي من الشعب المصري فرضًا، وبالفعل لم تمر سوى أيام قليلة لم يألُ السلطان العثماني فيها جهدًا ليفكر في أمر العزل، فوافق وأصدر فرمانًا بعزل محمد علي من ولاية مصر ونقله إلى ولاية سالونيك وتعيين موسى باشا بدلًا منه، كما قرر عودة المماليك لحكم الأقاليم وسيطرتهم عليها كما كان الوضع من قبل، بشرط كفالة العلماء لهم.

كالريشة عُدنا تلعب بنا الريح، النافذة المشرعة على الأمل أوصدت في وجوهنا وحالت دون نوره، عاد التشنج يحمل حروفنا،

وعادت نفوسنا تزفر لهيب الغضب والغيظ، ووسط كل هذا التخبط والظلام الدامس المخيم على القلوب تختفي حسناء تمامًا عن المشهد بصورة تدعو إلى الريبة، أروح وأجيء وأجلس بالساعات في الدكان لعلها تظهر! يا للعجب، مؤكد أنها موجودة ولم تسافر لزيارة خالتها بالمنصورة ككل عام، فهي عادة ما تخبرني بأمر سفرها قبله بأيام، ولنا طرق كثيرة لنتواصل من خلالها، خاصة عندما تنام الحارة، فنسهر نتحدث بلغة العيون وحركة الشفاه والأيدي وربما نكتب بعض الكلمات على الهواء...

سألتُ خالتي كوثر عن سر الاختفاء فوجدتها أكثر مني جهلًا، تقول إنها لم تأتِ لزيارتها ولا أمها زينب من ستة أيام فاقترحت عليها أن تزورهم وتأتيني بالخبر اليقين.

❊ ❊ ❊

(5)

تكالب الأحزان

«وفي خضم هذا الألم اليومي أتفقّدُ حسناء في هذه الحياة المقفرة؛ فلا أجد لها أثرًا»

تمر الأيام بخطًى وئيدة كأن عداد الزمن ثُبِّتَ على ظهر سلحفاة، تملك منا الخوف والقلق على مستقبل البلاد، ونحن نرى الأمور تسير في دروب وعرة لا آخر لها، ألقت الأحداث الجديدة بظلالها على كل شيء، لون الشمس رائحة الهواء مذاق الطعام، كل شيء أصبح مقيتًا، وفي خضم هذا الألم اليومي، أقتفي طيف حسناء في هذه الحياة المظلمة فلا أجد لها أثرًا، الناس يعيشون في همٍّ واحد أما أنا فأعيش همَّين، فقد مررت بالأيام الأكثر سوادًا في حياتي، خصوصًا بعدما علمت من خالتي كوثر بعد أيام من التخبط أن حسناء تمت خطبتها وعَقْدُ قرانها. تمت الجريمة في أول الأسبوع وسوف تغادر إلى بيت زوجها بالجمالية في غضون أيام قليلة.

- هكذا فجأة!

– تم الأمر في سرية تامة حتى أُنْجِزَ (دارِ على شمعتك تُضيء) يخافون أن يحسدهم أهل الحارة على نسبهم من أسرة القاضي، أكبر تجار قماش في القاهرة.

استطعت أخيرًا تفسير ذلك اللقاء الذي جمع خالتي زينب وعمي رزق المنجد، وكأن حسناء كبرت في غفلة مني وأصبحت عروسًا، ما زلت أراها طفلة بضفيرتين تلعب بالحارة، كمْ أنا غبي ضيعتها مني، لا أعرف لماذا لم أتقدم لخطبتها، كنت أعتقد أنها ملكي، خُلِقت لي وحدي، لم أكن أتخيل للحظة واحدة أن هناك من يجرؤ على خطفها، ويدّعي أنها ليست لي، الكون كله يشهد إنها لي، القمر والنجوم والجدران والمشربيات حتى ثغر إبريقها الذي يرتشف من فمها العسل يشهد إنها ملكي وحدي، لم تمر ساعة بعدما سمعت الخبر من الخالة كوثر حتى انطلقت الزغاريد، أسبوعٌ كاملٌ والزغاريد تنطلق فيه كل يوم مئات المرات لتطعنني بسهامها مئات الطعنات، كيف يتحمل قلب جريح تلك السهام والأهازيج التي تفلق القلب، ومطارق الطبل والمزامير، أيُّ عذاب هذا، استغفرت الله كثيرًا ودعوته أن يهون على قلبي ثقل هموم كالجبال، اجتمع أهل العروسين وأُسرجت القناديل وحمل الأطفال الفوانيس ذوات الشموع الصغيرة وغنت النساء أغاني الأفراح، وتزين بما لديهن من ثياب وحلي، جاء الهودج الذي سينقلون به غنيمتهم ويسبون به حبيبتي، زينوه بالتهاويل الملونة، ورقائق من القماش خفيفة تشف ما خلفها، النساء تتنادى مبتهجة «حضر هودج العروس أسرعي يا أم حسناء»، سامحه الله، وقفتُ في الشرفة لعلي أراها قبل الرحيل لبيت زوجها في الجمالية، خرجَتْ من باب بيتها وسط زحام النساء المغنيات والأطفال الذين يلعبون ويجري بعضهم وراء بعض،

انفتح الباب وخرجت مضيئة تتحدى النهار كخروج الدر من المحار، ساحرة تبهر العيون وتأسر الألباب، خرط جسدها خرّاط البنات، فأضاف إلى جمال صورتها الطفولية البريئة، جمال الأنثى التي فتنت حواسي العاشقة، كانت عيناها تخاطبانني ببريقهما المتألق وترميني بسهامها فتصيب سكون القلب ونبضه الرتيب، أماتت أشياء بداخلي وأحيت أشياء بطرفة عين، ما بال زوجها؟ كيف سيحتمل كل هذا الجمال؟ أم أنه بارد المشاعر لا يعرف قيمة الجوهرة التي سيقتنيها؟ كم أحقد عليك أيها المحظوظ المرفه!

زحف الموكب منسحبًا من الحارة حتى ظهرت خلفهم البوابة المشرعة عن آخرها، بعدت ضجة الدفوف والطبل التي هزت بجلبتها مهجة الفؤاد، غربت شمس الحارة وماتت روحها.

فترة عصيبة أحاطت بي خلالها الأحزان، فكرهت الخروج من البيت وآثرت العزلة في غرفتي، خاصمت شرفتها وأصبحت أعاقب عيني كلما اختلست النظر إليها فأحكمت إغلاق كل ثقب قد يطل عليها، لكني فشلت في أن أمنع عقلي من استرجاع ذكرياتنا، كرهت أحاديث عبد الرازق الصاخبة المليئة بالضجيج وبالضحكات الرنانة، ونفرت منه لأنه لا يشعر بذلك الألم الذي يعتصر فؤادي، انزويت في غرفتي ولزمت الصمت والسكون، لكن الزمن كعادته مارس هوايته فَحَثا رماد التناسي على نيران الأحزان، خبا الوهج وكذلك الألم، ألح عبد الرازق على انتشالي من عزلتي، وسحبي من بحر الضياع:

- لا بد أن تستمر الحياة يا صديقي.

بالفعل لبيت رغبته واستجبت لإلحاحه واستأنفت المسير، مسيري بين اللا أشياء المتناثرة المتبقية لي بعدها.

في تلك الفترة انضم لنا رفيق جديد «طارق الدمنهوري» كان يجلس بجوارنا في الدروس، ويتداخل في أحاديثنا بدماثة ولطف، حتى دخل قلبينا بكل يسر، فأصبحنا في وقت قصير ثلة من ثلاثة أصدقاء بعدما كنا اثنين، فشل الكثير في مشاركتنا تلك الصداقة الجميلة خلال سنوات دراستنا العديدة، رأيت أن الله سبحانه وتعالى أرسله لي ليعينني على الخروج من هذا الحزن الذي تمكن مني، شاب نحيف متوسط الطول، قمحي اللون، أجعد الشعر، شاحب سواده، لحيته عشوائية شعرها مبعثر مشتت على وجنتيه، عيناه بنيتان تميلان للسواد، فقير جدًّا ينتمي لعائلة ريفية تمتهن العمل في الحقول نظير الأجر اليومي، كان يخرج ليقايض عيش الجراية نظير قطعة جبن قريش أو الحلاوة المعقودة، جلبابه ممزقًا تملؤه الرقع، لكنه إنسان نظيف عزيز النفس ولا يقبل المساعدة أو الصدقة، أحببت دماثته ولطف حديثه، حكى لنا عن بلدته والغيط والسواقي وأشجار التوت والنخيل، ودعانا للذهاب إليه بعدما ننتهي من الدراسة.

***

كان دير الجبل يمتلك مئات الأفدنة الزراعية خلف الجبل ومراكب صيد كثيرة تعمل لحسابه في البحيرة، الرهبان يشرفون على إدارة أملاك الدير، ويبيعون المحاصيل ويشترون كل ما لذ وطاب، الأب بولس وثلته المقربين يعيشون في رغد وترف لا يليقان براهب وهب نفسه لخدمة الرب وقرر الزهد في الدنيا، أما باقي الرهبان فكانوا يعيشون في زهد وتقشف، لكن كيف يستطيع الإنسان الخلوة والصلاة واحتمال الجوع والصيام وهو يرى الدير أصبح مثل وكالة تجارية مليئة بالصخب والحركة، عمال يحملون قناطير القمح والشعير

والـذرة والبلـح المجفـف والزبيـب لمخـازن الديـر، هنـاك أقبـاط كثـيرون مـن سـكان القريـة أصبحـوا مثـل براكـين تكظـم نيرانهـا، لـولا الخـوف لانفجـرت، لا يملكـون مـن أمرهـم سـوى الحقـد والحسـد لبولـس وأتباعـه المتخمـون، الذيـن تركـوا أقبـاط القريـة فريسـة للفقـر والمـرض، يسـكنون بيوتًـا مهدمـة لا تقيهـم قيـظ الشـمس في الصيـف ولا البـرد أو السـيول في ليـال الشـتاء القارصـة، وكلـما شكَوا للبابـا سـوء حالهـم، يأمرهـم بالصـبر والاقتـداء بالرسـل والقديسـين، فـيرد الفقـراء سـاخرون فيـما بينهـم قائلـين: «ولمـاذا لا تقتـدون أنتـم؟!».

تطابـق الحـال بـين فقـراء المسـلمين والأقبـاط في القريـة فكلاهمـا فقـراء، لا يجـدون مـن يحنـو أو يـرأف بحالهـم، حتـى الأجـر اليومـي لا يتزحـزح قيـد أنملـة ولا يكفـي لسـد الرمـق، ومـن عجائـب الأمـور في القريـة أن تجـد الحمـير والبغـال والأبقـار عنـد العمـدة أكثـر صحـة وسـمنة وأفضـل حـالًا مـن حـال أهـل القريـة المسـاكين، أمـا عائلتنـا فرغـم أنهـا ثـاني عائلـة مـن حيـث الثـراء والمقـام فـإن عـدد الأثريـاء المسـتحوذين عـلى الثـروة منهـم قليـل، ويمكلـون أغلـب أراضي العائلـة ومراكـب الصيـد، وقـد وضعـوا أيديهـم في أيـدي خالـد الجارحـي وائْتمـروا بأمـره واتبعـوا تعليماتـه وقراراتـه التـي يقررهـا بالاتفـاق مـع البابـا بولـس مـن حيـث تحديـد الأجـور أو سـاعات العمـل أو عقوبـات المخالفـين.

حكـى لي أبي كل هـذه التفاصيـل الدقيقـة والأمـور الفرعيـة ولم أفهـم مغزاهـا وأشـعر بـشيء مـن الريبـة لهـذا اللـف والـدوران، أراه يتعمـد الإطالـة.

– مـا لي أنـا بالديـر والرهبـان؟ ولمـاذا تـصر عـلى حكـي كل هـذه التفاصيـل؟

- اسمع يا يعقوب ولا تجادل، إن كنت تريد أن تعرف ماضينا وأصلنا فيجب أن تسمع كل شيء بالتفصيل وبلا جدال، لا حاضر بغير ماضي، وستعلم لاحقًا ما علاقة كل هذا بنا.

أتطلع إلى وجهه، اختلاجاته، نبرة صوته في أثناء الحكي، هذا الرجل غامض ومحير حقًّا، لا أستطيع أن أجزم بصدقه أو بكذبه، فلا أجد كلامه مرتبًا وواثقًا تمامًا، وفي ذات الوقت لا أشعر بتردده ولا تضارب أقواله، والنتيجة الوحيدة التي خرجت بها بعد ساعات من الحكي المتقطع والمتواصل هي أنه يريد أن يقول لي أمرًا خطيرًا عن أمي وعن حقيقتها لكنه يحاول إيصال الكارثة على مراحل حتى لا يحطم قلبي.

***

حلمت بصليب خشبي، نعم حلمت بصليب، بعد تلك الأحاديث المتكررة عن الرهبان والأقباط والدير رأيت الصليب في الحلم، كان مربوطًا بخيط سميك في يدي اليمنى، انتفضت وحاولت التخلص منه، أو فك عقدة الخيط، لكني فشلت، قمت مستيقظًا هلعًا من هذا الحلم ودعوت على أبي بسبب ما فعله بي، ألا يكفيه سيدة الكهف؟!

لم يبالِ باستيائي واستمر يحكي قصته الطويلة التي لا تنتهي، يسافرون شمالًا للإسكندرية بالصيف، وجنوبًا لمدن الصعيد في الشتاء، لجلب البضائع المتنوعة لبيعها بالقرية والقرى المجاروة حول البحيرة، اختار جدي أحمد الطيب أن يرسل ابنه ليعمل في التجارة كصبي من صبيان المعلم فتحي، فعمل أبي معه من سن العاشرة حتى العشرين، وبالفعل ظهرت عليه مظاهر الترف من الثياب الباهظة الثمن والمراكيب الجلد الفاخرة التي يجلبها من الإسكندرية ويعجز إسكافيّو

القرية عن صنع مثيلها، وكذلك أنفق ببذخ، تنبأ له الجميع حينها بمستقبل عظيم في التجارة حتى حدثت المشاجرة التي هرب بسببها إلى القاهرة، ولا زلت أراه هاربًا خائفًا من شبح يلاحقه، ربما أولئك المتربصون الذين طعنوه بالسوق هم رجال العمدة أرسلهم للانتقام.

❋❋❋

فتحنا لطارق بيتينا من دون تردد كما دخل قليبنا من قبل، وشاركناه أفراحنا وهمومنا، ولم أفهم سبب الموقف الغريب الذي اتخذه أبي منه فيما بعد، وخصوصًا بعد يوم الوليمة، ولكن هذا طبيعي بالنسبة لأبي، وربما جاء رأيه متأثرًا بذبح ديكه السمين، وافق بعد طول رجاء واستعطاف أن أدعو عبد الرازق وطارق على وليمة متواضعة، سيكون الضحية فيها الديك الأحمر السمين، وهذه كانت نقطة خلاف كبيرة بيننا، عشتنا فوق سطح البيت ممتلئة بخير وفير، لا أعرف لماذا هذا الشح الشديد فهو لا يذبح دجاجة ولا ديكًا إلا إذا هرموا أو مرضوا، رأيته صاعدًا على السلم لينتقي الديك الذي سنولم عليه - هاهاها لا حول ولا قوة إلا بالله- قمتُ مسرعًا أجذبه من طرف جلبابه وأقسمت عليه ألا يصعد وأن يرتاح في غرفته وأنا سأقوم بهذه المهمة، وهو يقسم على قسمي ويحاول تخليص جلبابه من قبضتي، فأنا أعرف أنه سيختار لنا الديك الهزيل، وهو يعرف أني سأختار الديك الأحمر السمين، وبالفعل هذه هي نيتي فكيف سيكفينا الهزيل؟ فعبد الرازق بمفردة لا يكفيه ذلك الديك حتى لو أكله كاملًا بريشه، يجب ألا تهتز صورتي أمام صديقي الجديد، استسلم أبي أخيرًا لإلحاحي ونزل مكرهًا، كاظمًا غيظه، حتى أصبح وجهه محمرًّا كصفيح مُحمًّى على النار.

- افعل ما تريد يا يعقوب لعلك تستريح!

بين طرفة عين وانتباهتها كنت قد وثبت على الديك وأجهزت عليه، أعلم يقينًا أن أبي يفرفر بالأسفل ألمًا، كما يفرر الديك أمامي على السطح، لا أنسى تلك النظرة منه وهو يرى حبيبه الغالي بعد أن فارق الحياة، نظرت له مبتسمًا وقلت مداعبًا:

- الديك في ذمة الله تعالى، ألهمك الله الصبر والسلوان!

كاد يسقط مغشيًّا عليه من الحسرة.

انتشرت رائحة الديك وهو يحمر في السمن، رائحة شهية تدغدغ البطون، استمتع أصدقائي بطعامهم فعبد الرازق أكل بشراهة حتى أنهى الحفل برفع صحن المرقة إلى فيه فأفرغه حتى كاد يلعقه، ولو لم أقم بتفريق الديك لجار البدين على نصيبنا، أما طارق فقد استمتع بكل نسيرة من صدر الديك، والملوخية والخبز المسخن على الكانون، كنت أكرر الترحاب بهم بصوت عالٍ وأنظر لأبي لأغيظه وأنا أشعر بالغبطة والرغبة في الضحك لكني كنت أكتمها، فلصبر أبي حدود، وحدوده ليست بعيدة.

- المعذرة يا أصدقائي من قلة الطعام.

رد عبد الرازق ضاحكًا وهو يعلم ما أرمي إليه.

- لا تعتذر يا يعقوب فديك المحب خروف، لكن ما كان يضير لو كان بجانب الديك رطل لحم جاموسي مسلوق، إنها ستة أنصاف فضة فقط لا غير، لن تفقر العم علي.

ضحكنا ولم يفهم طارق سببًا لضحكنا، لكنهما ولله الحمد أكلا حتى شبعا، أحضرت الكوز والطست والصابونة وصببت لهما الماء

فغسلا أيديهما وتمضمضا ثم صب لي عبد الرازق، وجلسنا بعد ذلك في الشرفة نتجاذب أطراف الحديث حتى جاء أبي بأقداح الكركديه الأسواني من أجود ما نبيع في دكاننا الصغير، انبسطت أسارير أبي في النهاية وضحك لضحكنا، فهو يفرح لفرحي رغم كل المناكفات بيننا، وجدته يغسل الأواني قبل أن تتمكن الدهون منها، جلست بجانبه وتناولت يده وقبلتها شكرًا وعرفانًا، فابتسم وأومأ بالرضا.

– ما رأيك في طارق يا أبي؟ إنه ابن حلال، أليس كذلك؟

– الله أعلم يا يعقوب، لكني لا أرتاح له.

أدهشني رده، فأنا لم أرَ من طارق إلا كل خير.

– صعب على أي إنسان أن ينال رضاك يا أبي.

– قلت لك يا يعقوب في الأول الله أعلم، هل تريدني أن أقول لك ما يعجبك أم أقول ما أشعر به؟

لقد زاد ارتيابه في كل شيء، ويخشى الوجوه الجديدة وخصوصًا بعد حادثة الطعن، فهو لم يصادق أحدًا في القاهرة ولولا معرفته المسبقة بالعم عنتر لاستمرَّ من دون صديق إلى الآن، حتى تلك المرأة التي كانت تزورنا مرتدية زي القساوسة، انقطعت عن زيارتنا منذ عشر سنوات تقريبًا، عندما كانت تزورنا تلثمني بالأحضان والقبلات بحب واشتياق، يقول أبي إنها جارة قديمة بالقرية ويعلل اختفاؤها بأنها تعرضت لحادثة تسببت في شلل رجليها فلم تعد تستطيع المجيء، وهو لا يعرف عنها شيئًا الآن.

❋❋❋

نزلت أفتح الدكان مكرهًا، حكم قراقوش، لا بد أن يفرغ غضبه ويعاقبني انتقامًا لديكه، الحقيقة أني كنت أحب مهنة العطارة وأحفظ أسماء الأعشاب والعطارات المتداولة والشائعة الاستعمال عن ظهر قلب، وأعرف أهم خواصها الطبيعية والكيميائية، بالإضافة إلى تأثيرها وفائدتها، كما حفظتها تمامًا من كتاب تذكرة داود الأنطاكي ولكن مع الأسف فإن التجارة الرائجة اليوم هي تجارة أدوات الشعوذة.

هممت بالباب وهو ذو مصراعين، المصراع العلوي يرفع فيصبح مظلة، أما السفلي فيستخدم كمنطدة لعرض البضاعة وبيعها، ولرص بعض الأصناف، الدكان يستحوذ على مساحة البيت إلا موضع السلم، سمحت لنا المساحة بأن نخصص ركنًا جعلناه أجزاخانة، توضع بها بعض القوارير المملوءة بالأدوية ومساحيق الأعشاب، والأحقاق التي تحتوى على أنواع من الدهان واللبخات وسوائل لزجة مركزة تستخدم في علاج الأمراض الجلدية والعظم، جلست في الدكان كثيرًا من قبل وأعرف أسعار البضائع وأتقن وزنها وتركيبها فأبيع وأشتري بدلًا عن أبي في الأوقات التي تنقطع فيها الدراسة، كنت أجادل النساء متأففًا من تكالبهن على أدوات الدجل، ولسوء حظي أن دكاننا عامر بتلك الأعاجيب -رحماك يا الله- كنت أستشيط غضبًا فأزجرهم أحيانًا كثيرة، وأحيانًا كنت أضحك ساخرًا منهن ومن جهلهن، حتى إن أكثرهن يغضبن ويذهبن لشراء حاجاتهن من أماكن أخرى، لو علم أبي بما أفعل لقطع لساني وباعه مع لسان النمر الأخرس إن كان رحيمًا بي.

جلست أهش الذباب منتظرًا عودته من السوق، لم أعد أنظر إلى مشربية حسناء فقد جفت قُلتها، وذبلت الشجرة تحت بيتها، فقط أجلس كل يوم أتأمل الذباب الذي يتحرك على المصراع السفلي يفرك

يديه حينًا ويمد أنبوبه يلعق الخشب المسود من أثر البقايا عليه حينًا، بدأ الأطفال ينبثقون من أبواب البيوت بالحارة، سيملؤون الدنيا صياحًا وضجيجًا علاوة على العفر الذي سيثيرونه، وما هو إلا ربع ساعة حتى رأيت ما لم أكن أتوقع رؤياه، فقد لمحت حسناء وأمها تدخلان من بوابة الحارة، بطنها منتفخة من أثر الحمل، وعيناها دامعتان ذابلتان ويظهر عليها الإعياء الشديد، تمشي مترنحة تسندها أمها التي تبكي بحرقة وتردد كلمات من قبيل «حسبي الله ونعم الوكيل»، «اللهم انتقم من الظالمين» ولم أفهم من هم المقصودون، نظرت لي نظرة شغف ثم أطرقت وجهها للأرض، مر الوقت وأنا جالس أتعذب كأنما نبتت أشواك الصبار في مقعدي.. «تأخر أبي كثيرًا، لماذا تأخر هكذا؟» مرت ساعة بقسوة عام كامل من الانتظار المؤلم، لا بد أن أذهب إلى خالتي كوثر واستجلي منها الحقيقة، مؤكد أن عندها الخبر اليقين فهي خير من يعلم كل شاردة وواردة في الحارة، بمجرد أن عاد أبي استأذنته وانطلقت كالصاروخ صاعدًا لعبد الرازق وجلست معه أحدثه عما رأيت فقال لي يبدو أنها غاضبة من زوجها وتركت له البيت، لكن ما عرفته لاحقًا من الخالة كوثر أكثر من مجرد شجار عادي بين زوجين، فقد طُلِّقت، وعلاوة على ذلك رفض أهل زوجها إعطاءها أي شيء من شوارها حتى ثيابها، عانت المسكينة ولازمها الهزال والمرض لأكثر من شهرين من شدة ما لاقت من الضرب والإهانة في بيت القاضي، تقول خالتي كوثر إن حماتها امرأة شديدة الطبع غضوبة متحكمة متسلطة تعتبر نفسها سلطانة البيت وبناتها هن الأميرات أما زوجات أبنائها فهن الجواري اللواتي يخدمنهن ويأتمرن بأمرهن ويتحملن إهاناتهن، والويل كل الويل لمن تعترض، فلا تلقى

إلا سوء المصير، تضاربت المشاعر بداخلي بين الشفقة عليها والفرحة لطلاقها وعودتها مرة أخرى لتضيء الحارة، فكرت كثيرًا في الأمر ورأيت أن طلاقها وحملها لن يكونا عائقين في طريق الوصل بها، بل بالعكس سيكونان ميزة تزلل العقبات وتيسر الصعاب فلن يطمع أبوها في مهر كبير، أو يغالي في شيء من متطلبات الزواج، أعتقد أن المشكلة الحقيقية قد تكون في أبي، لكني سأحاول إقناعه بطريقة أو بأخرى.

تكلمت معه ذات غداء عن حكاية حسناء وما أصابها جراء جشع أبويها ولهاثهما خلف المال والنسب الرفيع، ولم يدرك ما أرمي إليه أو ربما أدرك لكنه يستمتع بمراقبتي وأنا أحوم حول الهدف حوم الثعلب حول الدجاجات، فيجاريني في الحديث ويتمتم من حين إلى آخر بجمل مثل «لاحول ولا قوة إلا بالله» و«لا إله إلا الله» وأظهر عطفه ولعن وسب من آذوها، فوجدتها فرصة وُجِب علي استغلالها، فقررت أن أتخطى مرحلة التلميح وأن أدخل في صلب الموضوع مباشرة.

– هل تعتقد يا أبي أن الزواج بمطلقة قد يعيب في شيء؟ أتعلم أن سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– لم يتزوج بكرًا سوى عائشة؟

نظر في وجهي متفرسًا، ثم رد بصرامة وقد بدأت ملامحه تتحول لشكل «أبو الهول» بعد أن ضرب بونابرته أنفه بالمدافع.

– لا يعيب، بشرط أن يكون العريس شابًّا غيرك.

تعجبت من رده، فالحقيقة لم أجده يتكلم ببلاغة قبل هذه المرة.

– هل تقصد أنه حلال لغيري وحرام عليّ؟

– يا ابني، المطلقة تليق برجل كبير ماتت زوجته ويبحث عن امرأة مغلوبة على أمرها تقوم بخدمته وتعينه في تربية عياله،

أو تليق بمطلق مثلها، أما أنت فشاب جميل تليق بك البكر، وردة يانعة تتفتح وريقاتها على يديك، فتكون أول فرحتها، وتكون لك أول فرحتك.

– لكن مطلقةً مثلها لن يتكلم أبوها في نفقات الزواج، وقد يقبل بأي شيء، وهي لن تتأفف من خدمتك ولن تتمرد على طاعتك، ولا تنسَ أنها جارتنا منذ كانت في المهد ولم نر منها غير الهدوء وحسن الخلق.

– ولماذا طلقها زوجها بهذه السرعة؟ إنه لم يطق أن يصبر عليها حتى تضع مولودها، قد تكون كسولة أو بذيئة اللسان أو مهملة، ما لنا نحن والمطلقات يا يعقوب؟

أخذت أجادله ويجادلني، فيقول لي وأرد عليه واستمر الأمر بيننا سجالًا حتى لمس شغفي بها، فنظر لي نظرةً طويلة متفحصة، ثم قال:

– أكمل دراستك وجِدْ لك عملًا، ثم افعل ما تشاء، لكن تذكر أني نصحتك وأنك وحدك من سيتحمل عواقب هذا القرار.

فرحت فرحة عظيمة بما وصلت إليه، وإن كان لا يلقى قبوله واستحسانه، ومن شدة فرحتي أني قررت الذهاب إلى أبيها أفاتحه في هذا الأمر، لكن خالتي كوثر نهتني:

– البنت ما زالت في شهور العدة، وعيب أن نتحدث في مثل هذا الأمر، اصبر حتى تلد.

فطلبت منها أن تلمّح لأمها برغبتي، لعل وعسى أن يحدث ما يريح فؤادي ويقر عيني، ومع الأسف لم يمر إلا خمسة أيام حتى جاءني ما فطر قلبي وأطاح بأحلامي، فقد ردت خالتي زينب على

طلبي ردًّا قاسيًا، حيث قالت لخالتي: «إن يعقوب شاب فقير وأبوه بخيل وبيتهم صغير كالحُقّ، وقديم تسكنه الثعابين وأبو العُرّيس».

غضبت غضبًا عظيمًا كاد يفجر عقلي، وأخذت أحدث نفسي مغتاظًا: «ناس مثلهم يجب أن يفرحوا ويحمدوا الله أن هناك من يطلب زواج ابنتهم وهي مطلقة وتحمل في أحشائها طفلًا، من أين يستمدون ذلك التعالي؟» لكن ما أراح فؤادي مرة أخرى أن حسناء ذهبت للخالة كوثر وعبرت لها عن قبولها لي وأنها تنتظر اليوم المناسب لتقنع أمها وأباها بالموافقة عليّ، حينها اجتمعت آراء عبد الرازق وأمه على أن أنتظر كما قال أبي حتى أنتهي من الدراسة وهي تضع مولودها وتنهي فترة النفاس ثم أتقدم لها.

❊ ❊ ❊

(6)

إشراقة

«أنت الآن ملِكٌ متوجٌ في مملكة الحب الجميلة»

رمانا المارة بجلبتهم، صياحًا وضجيجًا، قمت من الفراش منتفضًا فجريت إلى الشرفة أستطلع الأمر، فإذا عبد الرازق هو أيضًا خارجًا بالشرفة يفرك عينيه محاولًا تخليصهما من بقايا النوم العالقة، وأمه جالسة بالحارة تفرش بساطها وتضع أمامها الحلل النحاسية، وأمامها بعض الصغار، والنساء يتزاحمون لشراء الفول والبليلة للإفطار، وعند باب الحارة المشرع عن آخره وقف العم سيد الحلاق عند البوابة يحادث أحد المارة، خرج طارق الدمنهوري منسلتًا من بين الناس وانعطف داخلًا إلى الحارة، ارتدينا ثيابنا وذهبنا معًا للمشاهدة كما خرج أغلب سكان القاهرة يشاهدون.

إن ما يحدث اليوم لعجيبة من أعاجيب الزمان، فرحة الناس لا توصف، الوجوه مستبشرة نضرة يتقابلون بالتحيات والضحكات، يقولون أهل رشيد هزموا الإنكليز هزيمة نكراء، من يصدق هذا؟

النكات والضحكات تنطلق كالسواريخ من كل اتجاه، وكل نكتة تقال يعقبها ضحك عظيم يحرر النفوس من كبتها.

وصل الأسرى ورؤوس القتلى إلى بولاق، قادمين من رشيد، ذهبنا نستقبلهم عند ساحل بولاق، فخرج العسكر القادمين بصحبة الأسرى إلى البر وأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة، كانت الطبلخانة تتقدمهم محتفلة تضرب بعنف، كان من ضمن الأسرى ضابطين كبيرين أذكر أن أحدهما يدعى «فسيال» أما الآخر فلا أذكر اسمه وكانا مقيدي اليدين من الخلف، مَحمولَين على حمارين، وبقية الأسرى مشاة وسط العسكر، ورؤوس القتلى مثبتة فوق نبابيت طوال يزيد طول النبوت عن قصبة ليراها القاصي والداني، ولم يزالوا سائرين بهم حتى وصلوا إلى بركة الأزبكية، واستمر الاحتفال إلى الليل حيث أشعلوا حراقات النفوط وأطلقوا سواريخ تصعد في الهواء، يوم من أيام القاهرة السعيدة استرجعنا فيها ذكريات الفرح، تشفّى الناس وسخروا، وشتموا الجنود الإنكليز المهزومين الذين لا يفقهون كلمةً عربيةً واحدة إلا أن السخط الذي تنطقه الوجوه أكثر بلاغة من الكلام.

نصر عظيم يتحقق من دون أدنى مجهود أو تدخل من الوالي الغائب عن المشهد هنا، حيث يشن حربًا ضروسًا ضد فلول المماليك في الصعيد، وبنظرة تأمل بسيطة أبصر النقيب عمر مكرم بعقله المتّقد الذكاء وقلبه النقي بأن معركة رشيد ليست آخر الحرب فمن يعرف الإنكليز يعلم بأنهم ماضون في أمرهم وسوف يثأرون لكرامتهم فوضع الخطط المناسبة للذود عن القاهرة تحسبًا إن عاودوا الكرة مرة أخرى، أخذ على عاتقه في الأيام التالية مهمة حفر الخنادق وتسليح الجنود،

كما أطلق نفْرة الجهاد، ودعا المتطوعين إلى الذهاب إلى شمال القطر المصري لنصرة أخوانهم هناك.

انشغلنا في الأيام اللاحقة بمساعدته والالتفاف حوله، فكنا نذهب كل صباح مع الجماهير المتحمسة نتبعه إلى حيث يشتغل العمال في إقامة الاستحكامات وكثيرًا ما يبقى هناك النهار كله في خيمة أعددناها له، نبه على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لقتال الإنكليز، لم يستثنِ منهم أحدًا حتى مجاوري الأزهر والمشايخ أمرهم بترك الدروس، فالساعة ساعة الجهاد والذود عن الوطن.

***

انكسرت حرارة الصيف وجاء عصفور أزرق وبنى لنفسه وكرًا بين الحجارة أعلى بيت عبد الرازق، لم يبالِ بالعواصف أو الصراعات الطاحنة، ولا المجهود المضني الذي نبذله في حماية القاهرة، لم أرَ من قبل ذلك النوع من العصافير، والأعجب من هذا والأكثر جمالًا أن يصير صياح الديوك صُداحًا يطرب الآذان، وألوان ريشه تزداد جمالًا وبريقًا خصوصًا عندما تنعكس عليه أشعة الشمس، وعجيبة أيضًا تلك السحابات القطنية التي تفترق حينا وتتحد أحاينًا في فلكها السماوي الشفيف، تعيش في عالمها الخاص سعيدة، كيف صارت الحياة بكل هذا الجمال منذ رجعت حسناء؟ حتى العشش فوق أسطح المنازل التي كانت تؤذي عيني قديمًا رأيتها جميلة وهي تعانق السحاب، وتلك العصافير التي تقف على المشربيات وتوسّخها بفضلاتها رأيتها لطيفة، وشجرة الياسمين المزروعة أمام بيت العم عوض الخياط أصبحت تبعث أريجها إلي فأشُمّه بكل سهولة ولم أكن ألحظه من قبل، الجمال هو صنيعة النفس.. القلب والعقل.. والأعجب من كل ذلك هو أن

سيدة الجبل لم تعُدْ تأتيني في أحلامي، أليس هذا عجيب حقًّا؟ ليس لدي أي تفسير معقول لذلك الغياب، يالها من أُحجيةٍ هل انشغالي بالتفكير في حسناء استطاع أن يزيح ذلك الحلم المزمن عن عقلي؟ أم أن المرأة أحبت أن تتركني أهيم في عشق حبيبتي دون منغصات؟

استحوذت فرحتي بالانتصار على الإنكليز في رشيد وحماستنا من جانب، ورجوع الأمل في الزواج من حسناء من جانب آخر على كل تفكيري، أريد أن استمتع بالحياة قليلًا، استراحة تستحقها النفس بعد طول معاناة، فالأيام دول وهذه الأيام هي دولة الحب والسعادة، وبلغت سعادتي ذروتها عندما نادتني خالتي كوثر ذات صباح وطلبت مني الحضور لمنزلها، صعدت إليها خائفًا أن يكون بعبد الرازق أي سوء، فلما وصلت الباب المنفرج وجدت حسناء بشحمها ولحمها جالسة في الردهة على الكنبة المواجهة للباب، فسلمت عليها وقد سيطر علي الارتباك، ردت السلام مطرقة رأسها للأرض، طلبت مني خالتي كوثر الدخول وقالت لي:

- إن حسناء تريد الاطمئنان عليك.

ثم قامت المرأة -العظيمة جدًّا- ساحبة فيلها الصغير المتشبث بمقعده، قاومها بشدة لكنها انتزعته من مقعده عنوة، كنزع الكماشة للمسمار، أنظر إليه مغتاظًا أود لو أقوم فأركل مؤخرته المكتنِزة التي انحشر الجلباب فيها، أما هو فيضحك ويخرج لسانه ممعنًا في استفزازي، أسررْتُ القسَم في نفسي أن أؤدبه عندما أختلي به، دخلا الغرفة وتركانا في الردهة وحيدين، لا أنسى نظرات الداهية الخبيث وهو يرمقني ويضحك من ارتباكي، أقسم أنه يسترق السمع ليعرف ما يدور بيننا.

كشفت الجميلة عن وجهها، ليضاء الصباح بشمسين. عينان من العسل المصفى عكستا ضوء الشمس القادم من النافذة، فازدادت الكهرمانتان تألقًا وبريقًا، حاول الكحل مجتهدًا أن يحيط توهجهما ويكبح جماحهما فازدادتا جمالًا على جمالهما، نظرت إلي وسرحت في وجهي كمن تنظر إلى مدى بعيد، لها ابتسامة تهزم الوحشة وتأجج اللهفة وتذيب الفؤاد، أشعر أنها تائهة في مدائن وجهي تبحث عن مأوًى لها، ما زال وجهها يحمل آثار الهم والنكد، لكن بريق عينيها يخبرني بفرحتها البالغة ومدى شوقها، تهدلت على جبينها خصلة بنية تلمع من أثر الزيت المدهون، لما أمعنت النظر إلى وجهها المليح رأيت ما لم أرَه يومًا في الوجوه، رأيت اتساع السماوات وفرحة الحمائم تفرد أجنحتها وتتمايل في غنج، ورأيت وِدْيانًا وأشجارًا وأقسم أني شعرت ببحر النيل ينهمر من ثغرها الوردي، لم أجلس قريبًا منها هكذا منذ كنا أطفالًا نلعب في الحارة، لقد اختلفت كثيرًا، لم تعد برعمًا كما عهدتها لقد أصبحت بستانًا مثمرًا.

مدت يدها تصافحني وهي المرة الأولي التي ألمس فيها يدها، سرت رجفة في بدني أفقدتني توازني كمن شرب الخمر لأول مرة، هل هذا حلم أم حقيقة؟

- كيف حالك يا يعقوب؟

تحدثني وما زالت على حالها ماسكة يدي، اقتربت مني قليلًا فضيقت المسافة بيننا، حتى وصل عطرها لقلبي، كادت تلتصق بي وكدت ألتحم بها، إنها أنثى نضرة طازجة بل هي الأنثى الأكثر نضارة بين نساء العالمين، توقف الزمان حينها إجلالًا لبهاء سعادتنا، فلا أعلم كم من الوقت مر علينا، هل أيامٌ أم لحظات ونحن على حالنا ذائبان؟

– ماذا دهاك يا يعقوب، لماذا لا تتكلم؟

– ما أعذب صوتك يا حسناء، دافئ رقيق يشنف الآذان.

ابتسمت خجلًا واحمرت وجنتيها، حقًّا أشعر بصوتها يخرج ناعسًا من بين شفتيها، سلس سهل كخرير جدول يمر برفق بين شجيرات زاهية الاخضرار، متهدج يملؤه الشجن، كيف يحتمل أهلها كل هذا الجمال؟

– أستشعرك حينًا خجولًا وحينًا جسورًا، شهور قليلة غيّرتك.

– اعذريني يا حسناء، فقلبي لا يحتمل كل هذا السحر.

ازداد وجهها حمرة والتهبت أنفاسها أكثر، تعجبتُ من حالي كيف استطعت أن أتفوه بمثل هذه الكلمات، هذه الفتاة أحيت ما مات بين أضلعي فنبتت بفضلها الورود، عرقت أصابعي وكأنها تريد أن تنْزلق، لكن حسناء متشبثة بها لا تدعها تنفلت، إنها تلمس قلبي بلمسات حانية، تنفض عنه العفر، تزيل الصدأ، تغسل سواد الهم وتعيد تنظيم نبضاته في إيقاع حالم.

– لم أصدق نفسي عندما سمعت خالتي كوثر وهي تحدث أمي عن رغبتك في الزواج بي، لقد فرحت فرحةً أزالت همي وأنستني أوجاعي، ولم أعد أندب سوء حظي، فقد أسرني التفكير فيك، فأخذت أتخيلك وأحدثك وأشكرك على تمسكك بي.

– لم أنسكِ ساعةً واحدة، ولقد تعذبت أكثر من عذابك أضعافًا مضاعفة فمنذ تركتِ الحارة ولم تنتطفأ نيران قلبي إلا عندما رأيتك تدخلينها مع أمك مرة أخرى.

خرجت الخالة كوثر مسرعة تنظر إلى حسناء.

– هيا انزلي بسرعة، أمك تناديكِ!

انسلتت أصابع حسناء من يدي، انسلاتَ الروح من الجسد، فشعرت بدوامة تدور بي أفقدتني النطق لدقائق عدة، ونزلتُ بعدها صامتًا واجمًا، لا أستجيب لنداء عبد الرازق، لم أستطع التوقف أو الالتفات إليه، سارت أقدامي تأخذني حتى وصلت لشجرة الصفصاف على النيل، فذابت عيني في مياهه الذهبية وأخذت أسترجع كل ما حدث، إنها حقيقة كالحلم وأثرها في النفس سحر.

❋❋❋

ما زالت شجرة صداقتنا تنمو باسقة، الصداقة كالحب تمامًا نبع عطاء وواحة ترتاح فيها النفوس، أصبحنا لا نفترق إلا بعد صلاة العشاء وأحيانًا كنت أدعوه للمبيت معي في غرفتي، فكنا نسهر حتى منتصف الليل أو يزيد لا نتوقف خلالها عن الثرثرة، أحكي له عن حسناء وعن شغفي بها ولقائنا في بيت الخالة كوثر، ويحكي لي عن ابنة عمه التي تنتظر عودته ليزف إليها، طارق شاب طيب وديع ولا أحد يكرهه في الأزهر، ولا أفهم لماذا يرفضه أبي لمجرد حدسٍ داخليٍّ يؤرقه، عدم الارتياح ليس كافيًا، أما الإنسان الذي بدأ يتضايق أكثر فكان عبد الرازق الذي شعر بأن طارق آخذ في الاستحواذ على مودتي، لكني نجحت في وأد تلك الفتنة في مهدها باهتمامي المتزايد به، فمحوت كل ضيق قد شعر به، وقد تصرف طارق بذكاء أيضًا واستطاع معالجة الأمر بحكمة، فأصبح يتقرب منه مثلما يتقرب مني.

تقابلت مع حسناء في تلك الفترة أربع مرات، يفصل بين المرة والأخرى أربعة أو خمسة أيام، تكلمنا خلالها عن طفولتنا وذكرياتنا الجميلة معًا، ثم عن أحلامنا وأهمها حلم الزواج، ولم ألتفت لبطنها المنتفخ، يكفيني أن تكون معي في بيت واحد بأي شكل وبأي حال،

فكل شيء يقول إن كلًّا منا خُلِق للآخر، لن أتركها تضيع مني مرة أخرى فأنا لن أحتمل رؤيتها خارجة من الحارة مثلما خرجت يوم زواجها.

***

«أنت الآن ملكٌ متوجٌ في مملكة الحب الجميلة، افتح قلبك باتساع الكون لتحتوي فراديسه ذوات القطوف الخمرية الدانية».

ترتلية ذات سَحَرٍ رتلتها فأقبل عليَّ النهار بنورها، فاستقبلت الأيام الأجمل في حياتي، أنهل من فيضها وأنعم بلذاتها، من مثلك اليوم يا يعقوب فأنت الإنسان الأكثر سعادة على وجه الأرض؟ سعيدٌ في صحوي وهانئٌ في نومي، واستمرت الأيام تتوالى وأنا على حالي سكرانَ منتشيًا.

لكن من دون سابق انذار انقطعت زياراتها، ولم أعد أراها حتى من خلال مشربيتها، الأيام، تمر بلا حس ولا خبر، يبدو أني ذات غفوة نَسِيتُ حوتها وأفلت أيقونة الحظ، هجم الليل عليّ فاشتملني، قلت: «اللهم خفف عني ظلمته واجعله يمرَّ سريعًا» أرسلت خالتي كوثر لتأتني بنبَئِها، فعادت تطمئنُني:

- إنها موشكة على أن تضع حملها.

فدعوت الله أن تضعه بسلام، ألححت عليها أن تكرر الزيارة لجلب أخبارها وإرسال أشواقي، استمر هذا الحال عشرين يومًا أو يزيد، وبعد ذلك وضعت مولودًا جميلًا سمّوه يوسف، تقول خالتي إنه أبيض كالدقيق، مضيء كالبدر، ورث جمال أمه ولحسن الحظ إنه لم يرث شيئًا من صورة أبيه.

هـذه المـدة الجدبـاء مـن الزمـان كانـت خصيبـة بشـكل كافٍ لنمـو الوسـاوس والظنـون، وبـدأت سـيدة الجبـل في الظهـور مـرة أخـرى في أحلامـي، لكنهـا عـادت أكثـر حزنًـا وكمـدًا.

– لماذا لم تأتِ يا ولدي لتخلصني؟

تستنجد بي وأنـا أضعـف مـن بعوضـة، وأخـف مـن ريشـة، مـا زالـت تـردد طلاسـمها وتمعـن في طعـن عقـلي.

– أخلصك؟! من أي شيء أخبريني؟

– من الكهف.

– لكنـي لا أسـتطيع الاقـتراب منـك، لقـد حاولـت عـشرات المـرات وفشـلت، دلّينـي عـلى طريقـةٍ أسـتطيع بهـا مسـاعدتك.

– أنـا أسـيرة هنـا وأنـت حـر، قـادر عـلى الحركـة لكـن تنقصـك العزيمة، تعـال وأنقـذني كـما أنقذتُك.

– ممَّ أنقذتِني؟!

سـكتت المـرأة مـرة أخـرى ولم تعـد تنطـق بـشيءٍ، تركتنـي أطلـق الأسـئلة الحائـرة تباعًـا فبَهتـت صورتهـا ولم يبـقَ منهـا سـوى تلألـؤ دمعاتِهـا التـي تعكـسُ ضـوء قنديـلي المرتعـش، تقـول أنقـذني كـما أنقذتـك! هـل أنـا أُحـدث إنسـانًا حيًّـا بالفعـل يحـاورني وأحـاوره.

جلسـت مسـاءً أمـام أبي وقـد شرع يكمـل قصتـه فقلـت لـه في سري: «احكـي يـا شـهرزاد حتـى أعـرف آخـر حكاياتـك».

– أنـا الابـن الوحيـد لجـدك أحمـد الطيـب، ولي عـمٌّ واحـد يدعـى غانـم، ولـه ولـدان أكبرهمـا عمـر، وهـو في مثـل سـني، أمـا الآخـر فهـو محمـد

الـذي يصغـرني بخمـس سـنوات وعنـده أربـع بنـات كُـنَّ صغيـراتٍ حينهـا، يملـك الطاحونـة الوحيـدة بالقريـة، ابنـاه يعمـلان معـه في الطاحونـة.

يقـول إن آخـر شيء خطـط لـه قبـل الخـروج إلى الرحلـة الأخـيرة أن يجمـع كلَّ مـا جنـاه مـن سـنوات التجـارة ومـا سـيجنيه مـن رحلتـه الأخـيرة ليشـتري أرضًـا وبيتًـا جديـدًا نعيـش فيـه، لم يكـن يعـرف أن مصيـره سـيكون الهـرب والتشـرد وأن يعيـش غريبًـا في القاهـرة خائفًـا مـا تبقـى مـن عمـره.

❋ ❋ ❋

رآني الشـيخ عبـد العليـم بعـد صـلاة الظهـر، فنظـر إلي وأومـأ بعينيـه وحاجبيـه لأنتظـره بعـد الصـلاة، أنهـى النافلـة ثـم سـبح وبعدهـا قـام يقصـدني، صافحنـي ثـم لثـم كفـي بيديـه وشـدني لأنهـض، مَشَـينا معًـا حتـى نأينـا بعيـدًا عـن المصلّـين وجلسـنا في ركـن هـادئ.

– هل سألت أباك عن المرأة بالحلم أو عرفت منه وصف أمك؟

لم أعـرف بـماذا أجيبـه، فأنـا لم أتوقـع أن يهتـم بهـذا الأمـر ويتذكـر مشـكلتي .

– نعـم حدثتـه، وبعـد كفـاح ومجاهـدة معـه وافـق عـلى أن يحكـي لي ماضيـه، لكنـه يحكـي عـن كلـه شيء ولم ينبـس ببنـت شـفة، عـن المـرأة أو عـن أمـي.

ضحك الشيخ متعجبًا من هذا الأمر، وقال:

– وهل حكى شيئًا مهمًا؟

– لا أعـرف أهميـة مـا يحكيـه، لقـد أوشـك عقـلي أن يجـن، إنـه يحدثنـي عـن ديـر ورهبـان وأشـياء لا أفهمهـا.

برقت بؤبؤتا الشيخ وأمسك خصلة من لحيته، وبرمها بسبابته وإبهامه فبدا أنه قد مسك بطرف الخيط.

- هل تفكر في شيءٍ يا مولانا؟

- أتعلم يا يعقوب.. لقد ذهب عقلي لأمر غريب قد لا تصدقه.

- أيُّ أمر؟

- فلنفكر ونتدبر المقدمات التي يرويها أبوك، فأظن والله أعلم أنه ما دام تحدث عن دير ورهبان، فأنا أقول لعله تزوج امرأة قبطية أو راهبة من راهبات الدير، وهرب بك خوفًا من بطش الأقباط وأنهم تمكنوا من أمك فحبسوها بالكهف.

كان كلام الشيخ عبد العليم صادمًا مزلزلًا ويحمل قدرًا عظيمًا من العقل والحكمة، ولا أنسى بأنه أول من نبهني لعلاقة هذه المرأة بأمي، وهو من وجهني للحديث مع أبي ومحاصرته لاستخلاص الحقيقة منه، لكنه اقترح على ألا أواجه أبي بتلك الظنون، بل أدعه يكمل سرده حتى تظهر الحقيقة جلية بما لا يدع مجالًا للشك، واتفقنا على أن أخبره بكل جديد.

رجعت من الأزهر وعطفت متوجهًا لعبد الرازق الذي مكث بالبيت لرعاية أمه بعدما اشتد مرضها ولزمت فراشها، دخلتُ من بوابة البيت، السلم أصبح مظلمًا بسبب أفول الشمس، فأمسكت بالدرابزين الخشبي، وصعدت متمهلًا حذرًا أن أدهس هرًّا يواريه الظلام، لم أصل إلى الدرجة الخامسة حتى سمعت حديث يأتي من أعلى، يدور بين امرأة وعبد الرازق فإذا سيدتان نازلتان من عند خالتي كوثر، وقفت جانبًا لأفسح لهما الطريق وألقيت السلام لألفت

انتباههما لوجودي حتى لا يصطدما بي، فردا السلام، إنه صوت خالتي زينب وصوت حسناء، ثم أردفت الخالة زينب بصوت هادئ:

- كيف حالك يا يعقوب؟

- الحمد لله.. كيف حالك يا خالتي وكيف حال عمي حجاج؟

- الحمد لله يا ولدي بخير.

رجف قلبي وارتعشت شفتاي، ولم أعلم هل لاحظت الخالة زينب ذلك الارتباك أم لا، مرَّتا بجانبي واحتكَّ بي ثوب حسناء وسمعت صوت وليدها يشرع في البكاء، صعدتُ وجلستُ بجوار خالتي كوثر أدعو لها بالشفاء، أما عبد الرازق فقد نسي مرض أمه وجلس يرمقني ويتفرس وجهي يستنبط آثار لقائي العابر بحسناء، حقًّا كنت جالسًا معهما لكن عقلي ما زال واقفًا على السلم لم يدخل بعد، يسترجع صوت خالتي زينب ويحلل نبرتها ومدلول كلماتها، كانت هادئة وتتكلم بطيبة وهدوء، هل حدثتها حسناء عن حبنا؟ هل أمالت عقلها؟ لعل فرج الله قريب، وتأتيني إشارة منها للتقدم لخطبتها، لا أعتقد أن الفقر سيكون عائقًا الآن، فماذا جنوا من الثراء غير الإهانة والاستعباد؟ على الأقل أنا رجل أحفظ كتاب الله وأحبها وأقبلها رغم أنها مطلقة ومعها طفل رضيع، وما زلتُ في أول الطريق والدنيا تفتح ذراعيها لكل مجتهد يتقي الله.

❋❋❋

(7)

خبر القافلة

«من الضوء والظلال تتجسد الأشياء، تنبلج الصور من العدم»

لم يكتف أبي بالحيرة التي استبدت بعقلي حتى إنني ظننت أنه يتلاعب بي، فبدأ يحكي عن رحلته التجارية الأخيرة، وعندما عبّرت له عن ضجري بأحاديثه الغامضة قال لي:

– فات الكثير يا ولدي ولم يتبق إلا القليل.

شردت عيناه وكأنما انتقلت لذاك الزمن ثم شرع يحكي.

كانت الرحلة الأخيرة إلى الإسكندرية موفقة في أولها، بعنا هناك ما أحضرناه واشترينا بثمنه البضائع التي سنعود بها، صبّحَت علينا الإسكندرية بشروقٍ باسم وجوٍّ لطيف، وسماء صافية، كانت البداية مبشرة، ودّعنا البحر ثم تحركنا ممسكين بحبل الرجوع وبدأنا في سحبه، انطلقت الجمال تشق رمال البر الغربي قاصدةً البحيرة، تحمل على ظهرها سبعة تجار والصبيان والبضائع، يقودها الشيخ عياد أبو سويلم، رجل مسن من عرب الصحراء، عالم بدروبها وأحوالها،

ورأى جميع وجوهها، فقد وطئت قدماه رمالها ستين عامًا متواصلة، ومعه الدليل المساعد وعشرة فرسان أشداء، مهمتهم حماية القافلة من العربان الذين يستغلون حالة الفوضى التي تعم البلاد، وكان برفقتنا بعض الرهبان والراهبات وأسرة قبطية، كلهم قادمون من الإسكندرية متجهون لدير الجبل، الشيخ عياد ورجاله ودودون، لا تفارق البسمة وجوههم، انسلتت القافلة من بين الأراضي الخضراء المتاخمة للثغر حتى وصلت أطراف المدينة لتستقبلنا الصحراء بوجه عابس، سخّن الجو تدريجيًّا حتى أصبح لا يطاق، خففنا ثيابنا وخلع بعضنا العباءات، يعلم الشيخ عياد جيدًا طبع الصحراء، فقد تكون الرحلة جميلة وسهلة وقد تكون مهلكة وقد تتقلب على أكثر من حال، ولم يمر علينا سوى يوم واحد في قلبها حتى قرر الشيخ المتمرس أن ينصب الخيام وينيخ الجمال وأن السير في الأيام المقبلة سيكون ليلًا فالحر شديد لا يُحتمل والشمس حارقة تكوي الجلود، كنت والصبيان نشعر بالأمان في كنف معلمينا، والمعلمون يشعرون بالأمان في كنف الشيخ عياد وفرقته، لكن في الأيام التالية اهتزت قمة الهرم فارتعبت القاعدة، اصطنع الشيخ عياد الثبات محاولًا بث الثقة والطمأنينة في نفوسنا، لكن قراراته المتغيرة بدأت تظهر مدى ارتباكه وتخبطه، وكان مساعدُه حديث العهد بتلك المهنة لكن لم يجد له الشيخ بديلًا في تلك الرحلة، أيام قليلة مرت لتثبت له أن هذه الرحلة ستكون مختلفة، فهو لم يرَ مثل هذا الحر ولا تلك الشمس من قبل، جميع الظروف السيئة عملت كقوة عدائية متضامنة تريد القضاء علينا، وأول محنة تعرضنا لها هي مرض الشيخ عياد نفسه، ما بالك برحلة في الصحراء أو البحر ويمرض دليلها أو ربانها، ارتفعت حرارته حتى جعلته يهذي وينسى

كل شيء عن الطريق بل نسي اسمه أيضًا، حينها اتجهت الأنظار نحو الدليل المساعد لكن الفتى خاف التحرك بنا لقلة خبرته ولحداثة عهده بهذه المهنة، فرأى أن من الأفضل أن ننتظر الشيخ عياد حتى يبرأ، وكأن الصحراء كرهت أن تطأ الرحلة ظهرها، زمجرت غاضبة وأخذت تضربنا برياح حارقة كالشرر ورمال تطير بسرعة البرق تلسع وتؤذي كل ما تصل إليه، تبدلت الوجوه، جف ماؤها وتشققت وذهبت نضارتها، من كان منا أبيض اللون أصبح أحمر وبعضنا صار لونه غامقًا بلون كبد الشاة، والذي كان قمحي اللون أصبح يقترب من السواد، وتحول التجار المترفون المنعمون بقدرة قادر لأشباه دراويش، أما الرهبان والراهبات فقد تبدلت حالة الهدوء والسكنية لحالة من التوتر والاضطراب، والأسرة النصرانية المكونة من الشاب العشريني وزوجته الصغيرة وطفله الرضيع الذي لم يتخطَّ السنة، فكانوا ثلاثتهم يبكون ويئنون، الشاب وزوجته يسكتون قليلًا أما الطفل فلا يتوقف عن الأنين المتواصل، نصبنا الخيام ملتصقة لعل بعضها يؤازر بعضًا، وأخذنا نتمتم بالدعاء والصلاة للشيخ عياد كي يشفيه الله، فلن يستطيع واحد منا أن يسير قيد أنملة في الصحراء من دون إرشاده، مكثنا على هذا الحال بضع ليال نفد فيها قسمٌ عظيمٌ من الطعام والماء، شعرنا بحجم المأساة المقبلة علينا، فقلَّلنا مقررات الطعام حتى كدنا نهلك جوعًا وعطشًا، ربما لو استمر الحال هكذا لعدة أيام أخرى لتساقطنا تباعًا ولأصبحنا طعامًا شهيًّا للنسور والعقبان التي تحوم حولنا، في اليوم الثامن تحسنت صحة الشيخ قليلًا وفي التاسع أمطرت السماء بماء غزير، مستجيبة لدموعنا ونجوانا، نَزَلَت على العفر فأسكَنَته، وعلى الشفاه المشققة فبللَتها وألانَتها، وكانت سخيةً فأغدقَت فشربنا وملأنا

الجرار مرةً أخرى، فرحنا وتناسينا كل ما مرَّ بنا من مشقة ونصب، فقام الحرس يجمعون الخيام وحملوا الشيخ عياد على جمله، واستأنفنا المسير وقد تبقى أمامنا مسيرة عشرين ليلة أخرى، وظننا أن الصعب قد مر وأن الباقي سيسير هينًا.

❋❋❋

استمرَّ أبي يحكي حكاية القرية والدير ورحلة الصحراء، وحكى كيف أن الأثرياء من الجوارحة والسوالمة اتفقوا مع البابا بولس رئيس الدير على التحكم في الأجور، وتضييق الخناق على الفقراء، يقول إن أجر العامل حينها كان نصفًا واحدًا ولم يزد على ذلك المقدار لمدة خمس سنوات متتالية، ذلك الاتفاق أدى إلى اتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء بما لم يدع فرصة تسنح لواحد أن ينفلت من تلك الأطر التي وضعت من سنوات عديدة، هؤلاء الأثرياء عديمو الرحمة، بخلاء، يقومون بقمع كل ثورة أو تمرد، إما بالحيلة والمهادنة وإما بالقتل والتعذيب، ورغم كل هذا البطش الغاشم تعرف مدى الرعب الذي يعيشون فيه من حجم المتاريس والتحصينات التي تحيط ببيوتهم، وفي الجانب الآخر الدماء تغلي، مستعدة للانفجار في أي وقت، لكن يا ترى هل كل هذه السنوات لم تغير من حال القرية؟ عشرون عامًا مدة ليست بقليلة، قد يتغير فيها العالم أجمع، أبي يقول: «كل شيء يتغير على هذا الكوكب إلا قريتنا».

❋❋❋

استتب الأمر للوالي بعد طول صراع مع المماليك والإنكليز، والترقب الدائم للسلطنة العثمانية، تنفسنا أخيرًا الصعداء وتوسمنا الخير وصوبنا أنظارنا صوب المستقبل المشرق، في ظل حياة مستقرة بعيدة عن جنون المماليك، كنت أرى الأحلام تتطاير من رؤوس الأزهريين كما تتطاير

الأبخرة من سطح الماء الفائر، جميع أحاديث الشيوخ بالأزهر عن تنبؤاتهم بما سيفعل الوالي ليرد لهم جميلَ ما صنعوا من أجله، ولا شك أن الجميع قد راهن على أن يجعل من الأزهر قبلته، ومن رجاله بطانته، وسيرفعهم لمكانة عظيمة تليق بهم، فلولاهم ما وصل لكرسي الحكم وما صمد ليوم واحد في وجه المؤامرات المتعاقبة.

أخذ الحديث السابق أسبوعين أو يزيد، ثم قطعه صعود الوالي للقلعة تاركًا مسكنه في قصر الأزبكية، فرح بعضنا لبعده عن مرمى المؤامرات، فقصر الأزبكية غير محصن بشكل كافٍ، وسهل الاختراق، ومن أولئك المؤيدين لفكرة الانتقال إلى القلعة طارق الدمنهوري، أما البعض الآخر قد رأى أن تلك الخطوة ستؤدي إلى انعزاله عن الشعب، وأنه سيعيش في منزلة فوق رؤوس المصريين، وهذا ينبئ ببداية مستبد جديد، يتعامل مع الناس من الأعلى ولا يعرف ما يدور بالشوارع ولا تصل إليه شكوى الناس وأوجاعهم، كان عبد الرازق من الكارهين لفكرة الصعود.

أول خلاف في الرأي بيني وعبد الرازق من ناحية وطارق الدمنهوري من ناحية أخرى، كان بسبب رأي كل منا في أحقية السيد عمر مكرم وشيوخ الأزهر في أن يكونوا رقباء على الوالي، فكل منا يرى أن هذا الشرط هو ما فرضه السيد عمر مكرم على الوالي قبل أن يصل إلى الحكم وقد قبل الوالي به، أما طارق فيقول إن مركبًا بأكثر من ريس لا بد لهُ من الغرق، ما دمنا وثقنا بالوالي فيجب علينا أن نقف وراءه وندعمه دون تدخل وفرض إرادة بما يقوض عزيمته ويشتت ذهنه، فمحمد علي من الذكاء ما يسمح بإدارة القطر المصري بكفاءة واقتدار.

لم يكن ذلك الخلاف مع طارق الدمنهوري هو الخلاف الوحيد، فقد اختلفنا أيضًا حول انشغال علماء الدين بأمور السياسة، فهو يقول إن علماء الدين للدين، أما أمور الحكم والسياسة فللوالي ووزراء حكومته، أخذت الخلافات في الازدياد، والمناقشات أصبحت أكثر عنفًا وعصبية.

زادت الانقسامات في الأزهر واشتعلت الأزمات، ودب الخلاف والفرقة بين الجميع، وكلما خمدت نارٌ اشتعلت غيرها وكان آخرها انقسام علماء الأزهر لفريقين حول نظارة الأوقاف الأول بزعامة الشيخ عبد الله الشرقاوي، والآخر -وهم الأكثرية- بزعامة الشيخ محمد الأمير، متناسين فضل الشيخ الشرقاوي الذي وقف أمام الفرنجة بكل شراسة وحافظ على الأزهر مرات بالمواجهة ومرات بالمهادنة، لكن مطامع الدنيا أفسدت على الناس دينهم ودنياهم، وامتدادًا للخلاف الأول بيننا وبين طارق الدمنهوري في طريقة التفكير وجدناه مؤيدًا للفريق المتحيز للشيخ محمد الأمير، ولا شك أن تلك الخلافات استطاعت بقوة تقويض صداقتنا بل كانت قادرة على وأْدها في مهدها، وأصابنا ما أصاب الأزهر من تدهور الحال.

مرت الأيام ورأينا الفتن تضرب الشيوخ ضربًا فمالوا إلى الدنيا وهجروا العلم، تعمموا بالعمايم الكشميري وصارت بيوتهم كبيوت الأمراء فاتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان، ولم تعد ساحة الأزهر ساحة علم بل أصبحت ساحة صراع، فأشهرت سيوف الأهواء وسهام الحقد والتنافس وسياط الألسنة التي تلهب كل فريق بالشائعات والأكاذيب والشتائم، إنها فُرقة قاسية، ومصير بائس لا يعرف منتهاه إلا الله.

***

ماذا نملك سوى الظن، طالت حيرتي وفقدتُ بوصلة الرؤيا، لكزني أبي بالهمز واللمز.

- ألم أقل لك يا خائب؟

أعجز الرد بعدما كنت بألف لسان تدافع جميعها عن الوالي.

- غدًا سيشهر واليك صولجانه ومن لم يعجبه التوت سيرضى بحطبه، كلهم على شاكلة واحدة يا صغيري، لا تصدق حاكمًا أبدًا، فإن العرش هو حِجر الشيطان، ومن جلس عليه لبسه.

أيام عجاف دهست راحة البال وانتزعت الصبر من القلوب، بانت بعدها البينة وصدقت النبوءة، حدث ما كنا نخشاه فالوالي منذ ركب القلعة وقد تملك منه الكبر والاستبداد وانعزل عن مظالم العباد، وفرض الضرائب الباهظة، وغالى في الجباية، ليس هذا فقط بل سعى حثيثًا لضرب وحدة صفنا مستغلًا ذلك الصراع بين الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد الأمير ليشتت فكرنا ويبدد قوتنا، وقام بتذكية نار الفتنة وبث روح الفرقة والخلاف بين الفريقين، فدنت له مآربه وبسط نفوذه من دون منازع، إنه يزيح كل من يقف في طريق انفراده بحكم البلاد أو يعارضه، أحاط بنا الظلام فشملنا وتسرب الضيق إلينا فخنقنا وصرنا نهيم في الطرقات ضُجّر، تغيرت أحوالنا فأصابت أول من أصابت عبد الرازق الذي بدل حاله من الضحك الدائم والثرثرة، للميل إلى الشرود والصمت، فتر حماسنا وخبا حبنا له شيئًا فشيئًا، حتى بدأت كفة الميزان تميل للكراهية، لم أكن أصدق أنه سيأتي يومٌ أراه فيه مرتابًا في الوالي، فأصبحنا لا نعرف ما يضمره وما ينويه في الأيام المقبلة

❊❊❊

لماذا الغياب يا حبيبتي؟ لا أعرف ما التغيير الذي طرأ، فبعدما بدت لي ساعة الوصل دانية تتبختر أمام عيني، تبددت فرحتي وضعف أملي، مر أسبوعان ولم أرَها أو أسمع عنها خبرًا، أصبحت أشعر بأني أدمنت السراب فأجلس في الدكان كل يوم لَعلّي أراها في الذهاب أو الإياب، سامح الله المرض الذي حال دون اطمئنان خالتي كوثر عليها، اللهم اشفها، كاد الجنون يتملك مني، فأوشكت أكثر من مرة أن أتوجه لعم حجاج وهو جالس يختم صلاته بالمسجد، عازمًا على الاطمئنان عليها لكني أتوقف ممسكًا لساني، مقاومًا جيوش اللهفة بمتاريس من الحرص، يجب ألا آتي بتصرفات متهورة تباعد بيني وبينها للأبد، كم أنا مشتاق إليها! ماذا حدث لك يا حبيبتي؟ هل بدر مني ما يسوؤك؟ هل تأذيتِ بسببي؟

خالتي كوثر على حالها لا تقوى على الحركة، ولا أبي سيتحرك من أجلي قيد أنملة، خالتي زينب ترمقني بنظرات حادة لا أستطيع تفسيرها، أما العم حجاج فلم أرَه يومًا يبتسم أو يلقي عليَّ السلام، إنه يعتقد نفسه كبير تجار القاهرة، سلطان مملكة القماش، ينزل إلى الصلاة مرتديًا عباءته المقصبة فترتديه الخيلاء، طلاق ابنته لم يهدّ غروره.

❋❋❋

ارتديت عباءة اليأس وقمت صباحًا أبحث عن شيء يشغلني، خرجت من البيت ورميت نظرة صوب الدكان فسلمت على أبي، ثم عطفت على عبد الرازق فاطمأننت على أمه وقبلت يدها، ثم ساعدته في حمل الحلل النحاسية الثلاث لناصية الحارة.

- ضعها هنا يا صاحبي.

وضعنا الحصيرة البالية وجلسنا، مرت ثلاثة أسابيع وأمه راقدة وهو يجلس بدلًا منها، أمامه حلل الفول والحمص والبليلة، متحملًا الغمزات واللمزات، لكن ما بالأيدي حيلة فلا عمل، ولا كسب لهما غير ذلك، رأيت عمي حجاج خارجًا من بيته ثم مشى قاصدًا الخروج من الحارة، شعرت في تلك اللحظة بيد تلكزني وتدفعني نحوه دفعًا، تركت عبد الرازق بلا سلام واندفعت أنادي:

- يا عم حجاج.. يا عم حجاج!

كنت أشعر كمن يصعد متسلقًا جبلًا شاهقًا قائم الزاوية، وقلبي كجمرة مشتعلة تتدحرج وتتقلب، جعل وجهي يسخن ووجنتاي كأنهما صاج حديد حميت عليه النار لساعات، توقف الرجل عن التقدم في مضماره وبدأ يلف جسده تجاهي، شعرت بأنه سيخرج طبنجة من جيبه ويردديني ببارودها صريعًا، صوَّب عينيه إلى عيني بتحدي، وبدت عليه الدهشة المشوبة بالوجوم، شُيد سدًّا عاليًا بسبب وجهه المتجهم المستنكر، لكني عزمت على الاقتحام ولا سبيل إلى الرجوع.

- السلام عليكم.

لا أتذكر جيدًا هل ردَّ السلام أم لا، لكني أتذكر سؤاله.

- ماذا تريد؟

- كنت أريد مخاطبتك في أمر هام.

- أي أمر هام قد يجمعنا يا ابن العطار؟

إنه لرجل صعب المراس، والبداية تُنذرني بسوء العاقبة، لكن لا شيء لدي قد أخسره

- حسناء يا عمي.

توقعت أن يصفعني في تصرف أهوج لكنه فاجأني بتصرف آخر، فقد انفرجت أساريره وبسطت ملامحه، واتسعت حدقتاه بما يسمح لبريقها أن ينطلق، ابتسم ثم دعاني للمسير معه.

- ما لك وحسناء يا يعقوب؟

أدهشني بنبرته الهادئة الحنونة، مما شجّعني على المضي قدمًا صوب قلبه، فأخبرته بحبي لابنته، وأني لا أطلب سوى الحلال على سنة الله ورسوله، الرجل تركني أتكلم فتكلمت، أسهب فأسهبت، أعبر عن لوعتي فعبرت وتلوعت، ثم قطع حبل الحديث المرسل، وبدأ يوجه لي الأسئلة:

- هل تعلم يا يعقوب بمن كانت متزوجة؟

- نعم، محمد القاضي، الذي أشقاها.

- هل تعلم أنه أمهرها ثلاثَ مئة ريال فرانسة، غير الذهب؟

- وبماذا أفادها؟ إنه كمن سباها وما يفيد المال عبدًا أسيرًا؟

- كم أنت حالم يا ولدي! اسمع يا يعقوب، سأقول لك قولًا فصلًا لا يشوبه أي هزل: إن حسناء كالقمر وأنت كالأرض ولن تلتقيا إلا إذا قامت الساعة.

لو كان بَندَقَني لكان أهون عندي من تلك الصاعقة، هذا هو سر ابتسامه، فقد واتته الفرصة لينقض على نحري، فحذَّه بالنصل حذًّا ناهيًا، تفرس الجزار الواثق بصنعته على ارتعاش جسد يفرغ ثمالة الروح ثم أردف:

- يا يعقوب الحارة مليئة ببناتٍ صغيراتٍ جميلاتٍ أبكارٍ، كل منهن تناسبنك، فوَلِّ قبلتك صوبهن فلن تنول التي تهواها.

***

استأنفنا المسير بعدما تحسنت حالة الشيخ عياد وتحسن الجو كذلك، تفاءلنا وشعرنا أن موجة النحس تنحسر عنا وأنا على أعتاب النجاة، بلغ يقيننا واطمئناننا أكثر عندما وصلنا لربوة فيها عين ماء عذب وأشجار نخيل، شعرنا بالبشر وفرحنا، فنصبنا الخيام وغسلنا الأبدان والثياب، أكلنا من التمر، ماءً وفاكهة بعد الجوع والعطش، وحملنا من التمر ما استطعنا ليعيننا على ما تبقى من الرحلة، عاد الحادي ينشد أناشيده وعادت الضحكة التائهة تسكن الوجوه، وعادت السكينة للرهبان والراهبات، ما أصعب أن تهرب السكينة من الرهبان وما أسهل أن تعود إليهم، زمن قليل مضى ونحن في طريقنا سائرون، عاد كل واحد يفكر في هدفه، التجار في ربحهم والرهبان في الغاية التي جاؤوا من أجلها، لكن ما زالت لعنة الرحلة تطاردنا، آبية إلا القضاء علينا، فما هي إلا ساعة أخرى تمر حتى تألمت بطوننا وتقيأنا، منا من أصابه إسهال أسود وبعضنا كان إسهاله مدمًا، وأعقب ذلك كله إصابتنا بالحمى، انتشرت فينا كأنها ريح عاتية تحمل في طياتها الوباء، أتت على أجسادنا، وما أصابنا أصاب الجمال، فتوقفت القافلة لا تستطيع أن تبرح مكانها، وقعنا جميعنا نفترش الرمال ماسكين بطوننا نتأوه من الألم، علم الشيخ عياد أن هذه الأعراض لا تفسير لها سوى تسمم مياه العين وكانت تلك هي فرصته الأخيرة ليُظْهِر فيها كرامة من كراماته وليري الجميع فنونه وقدراته، أخرج مسحوق أعشاب من جرابٍ جلدي يعلقه في صدره، تلك الأعشاب تعالج ذلك النوع من التسمم، فقام ورجلان ممن استطاعا النهوض بعلاج الجميع، إلا واحدة من الراهبات تركت نصيبها وقررت أن تلتحف الرمال إلى الأبد، ثم تبعها أحد الجمال، فوزعنا البضائع التي كان يحملها على باقي الجمال ومشينا.

استأنفت القافلة مسيرها وقد طحننا الأعياء والمرض، وأشد ما ظهر من درجات المرض هو ما أصاب الدليل المساعد والتجار وصبيانهم وبخاصة الصبيان حديثي العهد بالسفر في الصحراء، أما الرهبان والراهبات فكانوا أفضل حالًا لكن ليس بكثير، فقد تحلوا بالإيمان والدعاء، بدأنا نسمع من يهذي ومن يبكي ومن يصرخ، جميعنا أصابنا اليأس واعتقدنا أن القافلة ضلت طريقها وأن الشيخ عياد أنساه كبر السن والمعاناة والمرض إلى أي جهة يتجه، وأخيرًا ظهرت بارقة أمل جديدة عندما رأينا أضواءً تلمع في المدى البعيد وعفر تحدثه سنابك خيل تضرب الرمال بعنف، تبدو من بعيد كغيمة تحمل الغيث لنا، استبشرنا وانفرجت أساريرنا وأخذنا نهلل ونكبر ونحمد الله، وأخذ الرهبان يرسمون الصليب على صدورهم شاكرين بل كادت أجسادهم تتمايل فرحًا.

***

ظهرت لي سيدة الكهف تئنُّ! بدأ ينتابني شعور بأني أنا الذي أئنُّ، وأنها ليست إلا مرآة لحالي، فكلانا معذب سجين في كهف مظلم ونريد من يطلق سراحنا، إنها تبكي بحرقة لأن قلبي يبكي بحرقة، ألم تتوقف عن الظهور بأحلامي عندما كنت أقابل حسناء بشكل منتظم، وعندما غابت حسناء مرة أخرى عادت، وعندما طال الغياب انتحبت، إن الألفة التي بيننا ليست مجرد صدفة، فذلك الحبل البني الخشن هو عجزي، نعم هو عجزي عن تحقيق أحلامي وعن زواجي بحبيبتي، والكهف هو السجن الذي يحيط بي، مصير القاهرة المظلم، وكل شيء يطبق على قلبي، الحواري والمباني والمماليك والوالي، ووالِدا حسناء اللذان يحتقران فقري، أما القنديل فهو بصيص الأمل الذي أتشبث به.

تكلمت المسكينة وقد بللت كلماتها الدموع:

- لماذا تأخرت يا ولدي؟

- أنا لم أتأخر بل أنتِ التي غبتِ.

يعلو نحيبها أكثر، عيناها خسرت آخر ومضات البريق، حتى ضوء القنديل ما عاد ينعكس على مقلتيها، إنها تشيخ بصورة مزعجة، جسدها صار أكثر نحافة، شف جلدها وبانت عروقها الزرقاء المتشعبة مثل جذور النبات، تزداد حالتها سوءًا مع الأيام، أصبحت ترتعش أكثر، شفتاها ترتجفان وكلامها يخرج متقطعًا يمتزج بصوت اصطكاك أسنانها، تُرى إن هلكت.. هل سيظل جثمانها ماكثًا في روحي؟ هل سيطاردني شبحها؟ هل ستحيل حياتي جحيمًا؟ تقض مضجعي وتصيبني بالتوهم والهذيان؟

أول مرة أشعر أني قادر على أن أقترب منها مزيدًا من الخطوات، حتى أصبحت أمامها مباشرة لا يفصلني عنها إلا مقدار انحناءة ظهري وامتداد ذراعي، لكن مع الأسف ينتهي الحلم ككل مرة دون غايتي، فقد قفز لأذني صوت أذان الفجر يوقظني، قمت أستغفر الله وأشيح بيدي صوب المئذنة وأصرخ: «لماذا؟ لماذا؟» فيردد المؤذن: «الصلاة خيرٌ من النوم».

نزلت أصلي الفجر فلا شيء غير الصلاة قد يريح فؤادي، يقف أبي وعبد الرازق في الصف الذي أمامي يفصلهما ستة مصلين، أقام الشيخ عبد البارئ الصلاة وشرعت الناس تصلي، أما أنا فشرعت أفكر في حسناء، تلا الشيخ الآيات ولم أميز سوى لحنها، ترقرقت الدموع في الركوع وعند السجود انهمرت، سلم الإمام فسلمنا، قمت واتجهت لنعلي خارج المسجد ولم أنتظر عبد الرازق كعادتي.

عدت وقد ارتاح فؤادي قليلًا، بعدما أفرغت بعض همّي دموعًا سخينة، خيوط النهار بدأت تغزل ثوبه الأبيض الشفيف، حتى صارت الرؤية أكثر وضوحًا، رأيت شبحين خارجين من الحارة في أثناء دخولي، عندما اقتربا أكثر تأكدت مما وسوست به نفسي، إنها حسناء، حقًّا حسناء، فرِحْتُ برؤيتي لها مقدارَ لحظةٍ، أعقبها انفجار الحزن ليغتال كل فرحة قد فرحتها يومًا، إنها تحمل طفلها في قماط أبيض وتسير خارجة من الحارة بصحبة رجل طويل بدين ضخم البنية، هل هذا زوجها؟! كنت أريد أن أستوقفها، أصرخ فيها صرخةً أخرج فيها معاناة كل تلك الأيام الفائتة منذ غابت عني، هل عدتِ إليه؟ هل نسيتِ قسوته وقسوة أمه؟ هل نسيتِ حبنا؟ كنت أريد أن أتوسل أليها، بالله عليكِ لا تتركينني، يا لها من فاجعة جعلتني أوشك على السقوط مغشيًا علي، فسرت أترنح مستندًا إلى جدران البيوت، لا أرى أمامي فجلست على الدكة الملاصقة للبيت دائخًا لا أستطيع الحراك، بكيت كالأطفال، وكلما حاولت كتم بكائي، اعتصر النشيج قلبي، لك الله يا قلبي!

لعنة الله عليك يا حجاج، لم تهدأ حتى بعثتها إلى الجحيم مرة أخرى، جاء صوت عبد الرزاق وأبي يتهاديان من بعيد، فاقتحما نحيبي، وحدثاني بهلع وجِلَين.

- ما بك يا يعقوب؟

عبد الرازق ملتاعًا يتحدث واضعًا كفه على كتفي.

- لا شيء.

- تكلم يا ولدي لا تفطر قلبي عليك.

لم أستطع نطق شيء سوى ترديد اسمها: «حسناء يا أبي.. حسناء».

فطن عبد الرازق لمأساتي، وقد لمح الرجل والمرأة المبتعدين، فتكلم بعطف محاولًا كفكفة دموع قلبي.

- قم يا يعقوب لا تشمت بك الناس ولا تلفت الأنظار إلينا، سيقومون لأعمالهم بعد قليل وستنتشر المارة، تعال معي يهديك الله.

صعدت معه وقد أقسم ألا يتركني، وجدت خالتي كوثر داخلة من الشرفة باكية وقد سمعت حديثي وبكائي فجلست بجانبي وربتت على ظهري تواسيني، ثم مسحت دموعي بكفها وناولتني القلة فشربت.

- كنت أعلم أنها راجعة مع زوجها لكني خفت عليك يا ولدي من الحزن والهم، فقد زارتني زينب منذ أيام بمفردها ونهرتني بعدما علمت من طفلها نافع أني كنت حلقة الوصل بينكما، فشتمتني ووصفتني بأقبح الصفات سامحها الله، ومن يومها حبست بنتها ولم تتركها تخرج مرة أخرى، حتى قام طليقها بردها بعدما علم أنها أنجبت له ولدًا، المسكينة ذهبت كارهة مرغمة فامتنعت عن الطعام والشراب حتى كادت تهلك ورضيعها، لكنها تماسكت من أجل الطفل فلا ذنب له، نعم يا ولدي لقد أخبرتني منذ يومين بعدما سمحت لها أمها بزيارتي مرة أخيرة قبل الرجوع، انسها يا ولدي فالحارة مليئة بالفتيات الجميلات، فكر في غيرها أو دعني أختر لك.

***

ساءَ مزاجي وتبدل حالي فأهملت مظهري ولم أعد أهتم بهندامي، أصبحنا نمشي إلى الأزهر صامتين، عابسين، هجرت الضحكة وجهينا،

كل منا يبكي على ليلاه، أنا أبكي على الفراق، حلمي الذي تبدد في طرفة عين، وهو يشعر بالجنون من أثر طعنة التي تلقاها في القلب من الوالي الذي ولانا ظهره وعادى الأزهر وغدر به، وطعنة أخرى دامية من شيوخ الأزهر الذين فتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم، وأصبح دينهم واجتماعهم لذكر الأمور الدنيوية من حساب الميري والفائض والحصص، في الوقت الذي عم فيه البلاء والقحط ونقصت الغلال بسبب نقص إيراد النيل، ما عاد هناك نور في القاهرة، الظلام يأتي من كل صوب وفي كل حين، دكاكين مفتوحة لكنها خاوية تسكنها الأجولة الممزقة الخالية، ودكاكين أخرى سُمِّرت بعدما أفلس أصحابها، الناس بالشوارع هائمون على وجوههم، لا يدركون لأي صوب يتجهون.

قبل وصولنا إلى الأزهر هب نفر من التجار ووبخونا.

- خربتم بيوتنا، خرب الله بيوتكم.

هل وصل الأمر أن يتجرأ العامة على الأزهريين؟، دخلنا الأزهر وقد بلغ الغضب بالجميع مبلغه، ياه كم أراك حزينًا يا أزهرنا الشريف! جدرانه أصبحت شائخة، مآذنه تترنح دائخة، تعج ساحته بالطلبة المتجادلين المتصايحين، اضطراب وتوتر، تجمهر عامة الناس والطلاب، يطالبون الشيوخ الكبار وأولهم الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد الأمير بالتدخل وأن يطلبا من الوالي أن يتوقف عن الجباية، تطابق الحال بيننا وبينهم فصرخنا مع صراخهم، وزعقنا مع زعيقهم، وأخيرًا هددناهم إن مالوا أو هادنوا لأملنا على رؤوسهم جدران المسجد، وككل يوم يمر الوقت، لا دروس ولا علم ولا فقه،

إنها الفوضى ولا شيء غير الفوضى، نعود كل يوم كما نذهب، ربما أفرغنا بعض السخط في الصراخ، أما في الأيام التالية، فقد أخذت وتيرة الأحداث تتصاعد،

ولم يكن هناك مفر من تلبية رغباتنا والتعبير عن مطالبنا ومواجهة الوالي، جمع الشيوخ والعلماء كلمتهم وبعثوا فريقًا منهم يكلم الوالي.

قابلهم ساخطًا ناكرًا ورد على مطالبهم بشدة، وغضب غضبًا عظيمًا، اربد وجهه وأصبح دمويًا، وعيناه ترميان بالشرر، اتهم الشيوخ بأنهم سبب البلاء وأمرهم بالاستسقاء، حتى ينْزل الله الغيث، وعندما حدثوه بأمر الضرائب اتهمهم بأنهم السبب، فقال مترجمه:

- ألم يرفع عنكم الفروض والمغارم إكرمًا لكم؟

كلما يفرغ المترجم من جملة يلقنه الوالي غيرها بصوت متشنج وعنف صارم لا يقبل الأخذ والرد:

- حتى الضرائب التي رفعها عنكم تقومون بجبايتها من الفلاحين من دون وجه حق، وعنده دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفي كيس، ولا بد من فحصها وكل ما يجده يأخذ الفرضة المرفوعة عن فلاحيه يرفع الحصة عنه.

إن كان لدى الوالي ما يكسر به عيونهم ويملك ما يفضحهم ويبتزهم به، لكن ما دخل العامة المساكين بما يقول ويهدد؟ انتهى اللقاء بلا نتيجة مرجوة.

***

- إن الكثير من شيوخنا بذمتين.

هكذا لخص عبد الرازق حال الشيوخ الذين ركنوا للمهادنة خائفين على ما اكتسبوا من نعيم زائل أما السيد عمر مكرم فإنه لا يحيد عن الحق ولم يخفض جبهته لمخلوق من أجل عرض الدنيا لهذا فإنه يملك من القوة ما يمكنه من مواجهة الوالي وتوبيخه إن لزم الأمر، فأرسل إليه طالبًا رفع الضرائب عن الناس، وهنا بدأت نار الخلاف تستعر والهوة بينهما تتسع، طلب الوالي منه القدوم ومقابلته، لكن الأخير رفض الحضور إلا بعد أن يكف عن ظلمه، وأخذت الرسل تروح وتجيء بين الرجلين وكل منهما ركب رأسه ولزم عناده، واستغل العلماء الكارهون الخلاف فقاموا يسعون بينهما بالغيبة والنميمة يأججون نار الخلاف، الحقيقة أننا خدعنا عندما اعتقدنا أن الوالي سيرجع للحق وسيعمل خاطرًا للعلماء، لكنه قام بإعمال عقله بدهاء وسعى في تفريق الشيوخ وضرب وحدتهم باستمالة بعضهم وبدأ يؤلبهم على النقيب عمر، أما النقيب فقد اتكأ على مكانته في قلوب المصريين وقدرته على حشدهم وعلى التواصل مع الباب العالي فهدده بأنه إن لم يرجع عن ظلم الناس فإنه سيكتب إلى الباب العالي ويثير عليه الشعب وينزله عن كرسيه كما أجلسه عليه، لم يكن الرجل الأصيل يدرك بعد أن من مثل محمد علي لم يجلس على الكرسي كي ينزل عنه مرة أخرى.

***

أصبحت أحدوثة النقيب عمر مكرم وتحديه للوالي حديث الصباح والمساء، النقيب هو صوت الحق، الآه التي تتأوهها آلامنا، ولم يتخل عنا يومًا واحدًا، لكنه في مواجهة محمد علي الذي لا يعرف الهزيمة، إنه داهية، استحكم الخلاف بينهما ولحقت نار الأزمة دخانها، الوالي يخبئ في جعبته الكثير من حيل السياسة، أما السيد عمر فماذا لديه؟ لا شيء سوى حب الناس ودعواتهم.

قررت وعبد الرازق أن نقف بجوار النقيب ونساعده بالجهد والدماء حتى آخر رمق فينا، وستكون معركتنا الأولى في حرب طويلة نستعد لخوضها ضد الوالي بالكشف عن دناءته وتلاعبه بالعقول ونكوصه بالعهود والوعود، فقمنا نجادل الشيوخ والطلاب ونثير الحماسة ونقلب القلوب عليه، وتربصنا بأنصاره كما أنهم تربصوا بنا، وهكذا الحال كل يوم في صراع وجدال وغضب وصراخ وتلاسن، نصحني أبي بالبعد عن تلك الصراعات، ولكني غضبت ولم أشعر بنفسي وأنا أنفجر فيه وأخرج كل ما أختزنه بصدري من سنين طوال

- هل تريدني أن أكون خوافًا مثلك؟ هاه قل لي؟

لم ينبس بكلمة وكظم ما فيه وأطرق رأسه أرضًا، لا أنكر أني شعرت بغصة بعدما تهورت وتحدثت إليه بهذه القسوة المفرطة، وهو لم يغضب كعادته رأفةً بحالي.

- يا يعقوب انظر لنفسك، لقد ضعف بدنك وتغير حالك، لقد أخبرتك منذ شهور ألا تفرحوا به ولا يغرنكم خداعه وأفاعيله البطولية، لكنك وصاحبك سخرتما مني، ما رأيك الآن؟

لم أرد عليه وأغلقت عقلي في وجه منطِقه.

– يا ولدي استعذ بالله من الشيطان الرجيم ودعك من السياسة وألاعيبها، فهي كالغانية، لا يذهب إليها إلا ديوث أو زانٍ أو سكران، انتهِ من دراستك وتعالَ أزوجْك بأجمل فتاة بالحارة.

أبي الوحيد الذي نبهني لخديعة الوالي، حتى ريبته من طارق الدمنهوري بدت في محلها رغم أن اختلاف الرأي في حد ذاته ليس مدعاة للريبة، مع الأسف لا يمكن أن أنسحب في منتصف الطريق، ولا يمكن أن أخذل النقيب عمر ولا عبد الرازق ولا كل من صدق حماستنا وآمن برسالتنا.

❊❊❊

(8)

أسبوع الآلام

«ألهبتنا المحن بسياطها وانكشفت حولنا الوجوه»

حافظت على عهدي مرغمًا، أستمع لحكاياته عن القافلة والقرية بلا اعتراض، وإن كان هذا الاتفاق ذاته كفيلًا بأن يطيح بعقلي، يقول إن أول من مات بعد الراهبة والجمل هو الراهب المسن ثم أعقبه بيومين رب الأسرة القبطية الشاب العشريني ثم الدليل مساعد الشيخ عياد، وحكى عن الغلام زين العابدين صبي المعلم فراج الذي جن وخرج ليلًا ولم يرجع مرة أخرى.. ما أهمية أن أعرف جنون الغلام أو موت الراهب المسن؟!

لكن لا أنكر أنه في حكاية الصحراء يكون أكثر صدقًا وتأثرًا، خلجاته وأساريره تشرح مدى الألم أما عيناه الزائغتان فقد سافرتا لعشرين سنة ماضية تسترجع تلك الذكرى الأليمة، حتى إنه عندما تذكر أمر التسمم أمسك بطنه وتفصد جبينه عرقًا.

«اقترب العفر منا ونحن فرحون، فعدونا إليه، معتقدين أنهم

بـدوٌ أو تجـار، وسـيمدون إلينـا يـد العـون، عـلى الأقـل قـد يرشـدونا إلى أقـرب عـين مـاء عـذب، شـق العفـار عـدد مـن الفرسـان الملثمـين يركبـون الخيـل والجـمال، ثـم تبعهـم الباقـون، جميعهـم يرتـدون ملابـس سـوداء، عندمـا دنـوا منـا أشـهروا السـيوف والبنـادق والطبنجـات، فقامـوا بالـدوران حولنـا صانعـين سـياجًا عاليًـا مـن العفـر، فزعنـا جميعًـا بعدمـا كنـا مستبشرين، فاسـتل حـراس القافلـة البنـادق والسـيوف متأهبـين للقتـال، ترجـل أحدهـم مـن عـلى فرسـه وكان طويـلًا ضخـم الجثـة، عريـض الكتفـين، مدملـك العضـلات، هيئتـه تبـث الرعـب في النفـوس، تحـدث بصـوت عنيـف أجـش.

- من قائدكم؟

نظـر حـراس القافلـة صـوب الشـيخ عيـاد فأومأ أنـه هـو القائد، دنـا الملثم فطلـب منـه تسـليم الأسـلحة والجـمال بـما عليهـا مـن بضائـع وسـيتركوننا نرحـل بسـلام، وأعطـاه فرصـة للتشـاور، وحـذره مـن عاقبـة التهـور، جمعنـا الشـيخ في حلقـة، تجـارًا ورهبانًـا وحراسًـا، فتكلـم بصـدق وأوضـح، شرح عواقـب كل اختيـار، فوكلنـاه أن يفعـل مـا يـراه صائبًـا، فقـال:

- هـؤلاء اللصـوص معروفـون بغدرهـم وقسـوة قلبهـم، ويتبعـون هـذه الطريقـة للوصـول لـكل مـا يريـدون مـن دون أي إصابـات في صفوفهـم، فبعـد أن نعطيهـم السـلاح سيقضـون علينـا بـلا رحمـه، وإن حاربناهـم فهـم مجرمـون محترفـون قتـال الصحـراء، لكـن عددنـا أكثـر ولدينـا خمـس بندقيات.

يـرى أن في القتـال أمـلًا أكـبر مـن التسـليم، لذلـك فقـد اختـار القتـال، كانـت تلـك بالنسـبة لنـا القشـة التـي قسـمت ظهـر البعـير فدمعـت أعـين الرجـال يائسـين وناحـت النسـاء ولطمـن خدودهـن، أسـكتنا الشـيخ عيـاد

ووزع علينا بعض السلاح من سيوف وعصي وقال: لا سبيل لنا سوى القتال حتى آخر رمق فينا، حتى هو فرغم شيخوخته استل بندقيته واستعد للقتال.

عددنا يساوي ضعف عددهم تقريبًا، لكنا نعتمد بقوة على الحراس فهم الرجال الأشداء المدربون على القتال، وإن نالهم ما نالنا من آلام السفر وسموم الماء، مما أضعف قوتهم ونال من سلامتهم.

الشمس فوق رؤوسنا كملك جالس يراقب كل شيء عن كثب وينتظر الغالب، والرمال ساخنة كالمقلاة ستشوي كل من يسقط عليها، والطيور العتاق تحوم فاردة أجنحتها في انتشاء مستبشرة، يبدو أنها تتبع أولئك المنصر أينما ذهبوا، هجمنا على اللصوص الرابضين على مقربة منا، ودارت رحى المعركة.

الملثمون العلوج يتحركون خفافًا كالعفاريت، سريعين كالريح، يجيدون الكر والفر، لكن ورغم ذلك التفوق يجب أن يحذروا ممن لا يملك سوى خيارين، الموت أحدهما، الطاحونة بدأت تطحننا، صمم الآذان، تعالي الأصوات وتزاحمها، واصطكاك السيوف، وطلقات البارود، وصراخ النساء، وتأوهات المصابين، ثم انعدمت الرؤية من شدة العفر، أصبحت الطلقات تأتي من كل اتجاه، كثيرون يسقطون حولنا، بطون بقرت، أيدي وأرجل قطعت، ورؤوس فصلت، قتلوا منا معظمنا وكذلك قتلنا جُلَّهم، وكان الأمر سجالًا بيننا، لكنا تعبنا، أما هم فلا يزالون على نشاطهم وهمتهم، عندما دانت لهم الغلبة وجدنا الرهبان والراهبات الذين يراقبون المعركة ينضمون إلينا ويقاتلون بهمة وشجاعة بما وقع في أيديهم من أسلحة القتلى والمصابين.

الوقت لا يمر، وتمنيت الموت من شدة العذاب واليأس، هبط العفر رويدًا رويدًا وكذلك هبط الناس، أكثر من أربعين بقعة دم لونت الرمال، تكالبت عليها الجوارح حتى أصبحت الأرض سوداء تموج، كان الشيخ عياد أول من قُتِل، وأعقبه المعلم فتحي ثم الباقون، تبقى من المنسر ثلاثة تركونا ذاهلين وجروا صوب القافلة، وقفنا فاغرين أفواهنا، عاجزين عن الحراك منهكي القوى لا نملك من أمرنا شيئًا غير مشاهدتهم وهم يستولون على القافلة، مات الجميع إلا أنا وواحد من الرهبان، لم نفرح بنجاتنا من الموت إلا برهةً، فالمصير المجهول هو كل ما لدينا الآن، عدنا لمكان القافلة نلتمس ما تبقى، فوجدنا جملين باقيين واحد يحمل راهبة لم تشترك في القتال والآخر يحمل السيدة النصرانية ورضيعها، أما الراهبة فقد رفض الرهبان اشتراكها في القتال لأنها تحمل أمانة هامة يجب توصيلها إلى البابا بولس رئيس دير الجبل، كانت الأمانة موضوعة في صندوق نحاسي يتوسطه صليب مرصع بأحجار من العقيق، تحتضنه الراهبة كما تحتضن السيدة النصرانية رضيعها، رأيته مرة واحدة لكني لم أنسَه من بديع صنعه، بدا على السيدتين الذعر والذهول، وتوقعتا السبي أو القتل، لكن الله أراد نجاتهما.. نجاتهما؟! لا يقين بالنجاة، ولا دليل على أننا أحياء سوى ذلك الألم الرهيب والجراح الغائرة التي خلفتها المعركة، فقد أصبت في كتفي بضربة سيف جعلت الدماء تغمر ذراعي وشطرًا من الصدر والبطن، أما الراهب فشق جنبه، دماؤه تنز من القطع لا تتوقف، والسيدة أم الطفل قاب قوسين أو أدنى من الهلاك ومؤكد أن طفلها سيلحق بها أو ربما يسبقها، ما المفترض أن يحدث الآن كي نصدق أننا هالكون وأن النجاة مجرد سراب من صنع

الصحراء، فقد كنا بعد كل محنة ننجو منها نقول إن الله يريد نجاتنا، وقد كتب لنا عمرًا جديدًا، لكن كل محنة داهمتنا أخذت منا، وقلصت عددنا، وإن النجاة من واحدة لا يعني سوى الدخول في أخرى أشد شراسةً وفتكًا، سألني الراهب الجريح الذي نضحت الحمى ماءها على جبينه:

- ما العمل بعدما قُتِل دليلنا؟

هذا المسكين الذي بقر جنبه يفكر في النجاة، لو أن هذا الجرح في رجلٍ ينام وسط أفضل الحكماء وفي أفضل مارستانة لن ينجو.

- لا شيء سوى أن نتوه في الصحراء حتى الموت.

مكثنا في مكاننا عاجزين عن الحركة، لا نعرف إلى أي جهة نتجه ولا إلى متى يمكن أن نمكث قبل أن نموت، فقلت لهم وليس لدي حل آخر فلننظر في الاتجاه الذي كنا نمشي إليه قبل المعركة ونكمل بشكل مستقيم بلا انعطافات، فإما وصلنا وإما هلكنا، وبالفعل استأنفنا المسير والراهب يكتم الجرح بيده والراهبة اليائسة لا تتوقف عن الصلاة، أما الأم النصرانية فقد نامت ولم نسمع لها صوتًا مرة أخرى، وطفلها الذي بلغ به الإعياء مبلغه توقف عن البكاء وعن تحريك شفتيه الباحثة عن ثدي أمه، وبعد ساعة واحدة سكتنا جميعًا فمنا من راح في غيبوبة ومنا من أسلم الروح لبارئها.

استمر الجملان سائرين بلا توقف لا تعرف إن كان من تحملهم أحياء أم أموات، ولم نعرف متى أسدل الظلام ستائره.

***

أرى تلك المرأة المتكبرة التي تمتلك قلبًا صلبًا كالحجارة أو أشد تتفتت أمام عيني حتى أصبحت كحفنة من الرمال، ما أغنى عنها المال أو رفعة النسب، أذاقها ذلك الثري الذل وأوجعها كما أوجعتني، تغيرت نظراتها القاسية، انكسرت، تتمنى لو أرحمها من نظراتي الراجمة، تكحلت عيناها بالهم والنكد، لم تحتمل سجنها وحيدة بين الجدارن، فعادت تبحث عن الجارة القديمة التي أنكرتها سابقًا فعادت تزورها كثيرًا، مرتين باليوم أو ربما ثلاث مرات ولن يكفيها ألف مرة كي يرتاح ضميرها، تحدثها بكل جديد يخص ابنتها الضحية، تقول إن حسناء منذ رجعت مع زوجها الغليظ القلب وهي تعاني سوء معاملته لها، وبأنها تلاقي العذاب وسوء الحساب انتقامًا وتنكيلًا، حماتها تريد أن تجعلها عبرة لكل زوجة تدخل بيت القاضي وتتمرد على قوانينه وجلاديه، الله معك يا حبيبتي، وهي الآن مريضة لا تأكل ولا تستطيع القيام من الفراش، تكفلت إحدى سلفاتها بإرضاع صغيرها، أصبحت مسكينة عاجزة، جحظت عيناها وبرزت عظام خداها، ونُحِتَ الوجه كأنما هيكل عظمي أخرج من مقبرة، زهدها زوجها واستمرت حماتها تتمادى في عقابها بلا رحمة حتى إنها زوّجت ابنها بأخرى.

هل يصدق إنسان أن هناك قلوبًا بهذه القسوة، لماذا لا يطلقون سراحها ما دامت كارهة، وزوجها زاهد فيها؟ إنهم يخافون أن تكون فتنة في البيت، عندما أسمع أخبارها ينفطر قلبي عليها وتنهمر دموعي وعبد الرازق يبكي لبكائي.

- إلى أين تأخذنا الأيام يا صديقي؟

لم تعد الحارات تحتضن خطانا، ولم تعد الجدران تردد صدانا، ولا النيل باتساعه يسعنا، سألت الله أن يجلي الأحزان ويبدل الضياء بالظلمة.

- إننا نسير في الطريق يا يعقوب، ولكل شيء نهاية.

- هل سيعود الفرح مرة أخرى؟

- لا الفرح دائم ولا الحزن دائم.

خطانا ثقيلة كأنا أسرى حرب، كُبِّلت أقدامنا بالأغلال، نتنفس بجهد بالغ، أصبح كلامنا همسًا بعدما كان يرج الجدران، شوارع كثيرة أظلمت، لم يعد يضاء من قناديلها إلا القليل.

- تُرى هل دانت لحظة الانفجار، ووجبت الثورة على الناس؟

- لقد أهلك الناس كثرة الحروب والثورات.

- وهل يستطيعون تحمل هذا الحال أكثر من ذلك، إن الناس يحتملون ويصبرون لكنهم إن رأوا الجوع يتحرش بعيالهم لن يسكتوا وستكون ثورة الجوعى التي لا تبقي ولا تذر.

- الفرج من عندك يا ألله، فمن يفرج الكروب إلا أنت؟

❋❋❋

عدنا وطارق الدمنهوري نتوادد، سامحناه بلا عتاب وسامحنا، لعن الله السياسة، إن مرت على نهرٍ صافٍ عكرته، وإن دخلت البيوت تفرق الأهل والأحباب، تحيل دِفْئَها بردًا، وضياءَها ظلمة، وضحكاتها عبوسًا، حرص بعد رجوعه لنا على مرافقتنا في كل مكان نذهب إليه، وبعد عن الجدال ومعارضة أفكارنا، ونحن ما عدنا نناكفه،

أيام قليلة مرت منذ عاد إلينا وبعدها جاءني رسول من الشيخ محمد السعيدي يطلب لقائي، لم أستطع التنبؤ بالغاية من الدعوة ولم يُرِحِ الرسول قلبي، كلما سألته سؤالًا يقول: الله أعلم، تشاورت مع عبد الرازق في هذا الأمر لمدة ساعتين ولم نصل إلى إجابة مقنعة، فأخذته في اليوم التالي بعد صلاة العصر وذهبنا إلى الشيخ، هدأت حرارة الجو وانكسرت أشعة الشمس وبدأت النسمات العليلة تسري في الشوارع، أول شعور داهمني وأنا واقف أمام باب قصره، أني أمام باب من أبواب الجنة التي وعدها الله المؤمنين، باب خشبي مرتفع عريض، يسمح بمرور عربتين متجاورتين، منحوت على خشبها أشكال لحيوانات وطيور وورود، والسور المحيط بالقصر مرتفع يحجب عن المارة ما تحويه من الترف والبذخ، لما دخلنا رأينا حديقة كبيرة غناء تتوسطها فسقية رائعة الجمال، يحيط بها أرائك خشبية ذات وسائد وثيرة، مشى بنا الخادم ساكتًا متجهمًا لا قال أهلًا ولا مرحبًا، مشينا خلفه في ممر طويل مبلط بصخور سوداء مصقولة، تبادلتُ أنا وعبد الرازق النظر، وهززنا أكتافنا متعجبين، عبرنا الممر ثم صعدنا سلمًا رخاميًّا أوصلنا إلى بهو فخم مزخرف بزينة تفوق في روعتها تلك التي نراها بالمساجد الكبيرة.

أحضر لنا الخادم طبقًا فضيًّا واسعًا مملوءًا بعناقيد من العنب الأحمر وحبات تين منفلقة يظهر باطنها الأحمر، ثم ملأ الكؤوس الفضية بماء الورد المحلى، ولم نمكث سوى هنيهة حتى جاء الشيخ محمد في عباءة نحاسية اللون مزينة بشرائط من الفرو الأبيض زادت من جماله وبهائه، تهلَّل وجهه لرؤيتنا ونحن بالطبع تهللنا لرؤيته، قام

بمصافحتي ومصافحة عبد الرازق وقد لمحت على وجهه علامات التعجب من حضور عبد الرازق، هز يده بقوة وقد ظهرت جميع أسنانة مرصوصة كحبات لؤلؤ أبيض.

- أهلًا بكما أيها الشجاعان.

تبادلنا نظرات الدهشة، تعجبنا من إطلاق تلك الصفة علينا من شيخ لم نرَه يومًا ساخطًا أو ثائرًا كشيوخ الأزهر الثائرين دائمًا، يبدو أن اللقاء سيكون له علاقة بثورتنا.

- أهلًا بك يا شيخنا الجليل.

رجل أبيض البشرة مستدير الوجه متورد الأسارير، شعره نحاسي متموج في نعومة، يلمعه الدهان، تظهر على هيئته علامات النعيم وعلى بطنه كم النهم، رددنا التحية بصوت واحد، ثم نظر لعبد الرازق ووجه له الحديث.

- لا تُؤاخذني يا عبد الرازق، فقد كنت أريد الحديث إلى ابننا يعقوب بخصوص أمر ما ولم يدُر بخلدي أن يصطحب معه ضيفًا آخر.

فرد عبد الرزق متلعثمًا وقد احمرَّ وجهه حرجًا.

- لا تعتذر يا شيخنا، لقد فهمت الرسالة فاسمح لي بالمغادرة.

تعجبت من فظاظته، فمن يتفوه بمثل هذا القول لضيف زاره في بيته، فأقسمت سرًّا إن ذهب عبد الرازق لأذهبن خلفه، لكن الشيخ محمد رد بحماسة وبشاشة بالغين وقد أدرك خطأه فاعتذر.

- أستغفر الله يا شيخ عبد الرازق لقد حللت أهلًا ونزلت سهلًا، لقد وجبت لك حقوق الضيافة كاملةً وزيادة فقد نوّرت بيتي المتواضع،

لكن اسمح لي أن آخذ الشيخ يعقوب في جولة سريعة في الحديقة ولن يطول الأمر، أعدك بهذا.

وقف الشيخ وأمسكني من ذراعي ثم سحبني لنخرج من حيث دخلنا فأعادنا السلم للحديقة والدهليز الأسود المصقول.

- لن أطيل عليك يا شيخ يعقوب، فأكثر ما أكرهه كثرة اللف والدوران، نحن في أيام لا يعلم بها إلا الله، لقد سمعت من بعض الطلاب أنك تستحث الشباب والشيوخ على التمرد على الحاكم وتتبع عمر مكرم.

أمره عجيب هذا الشيخ ما له وما أفعله؟ ولمَ يتتبع أخباري؟

- يا ولدي لا تغرنك الحماسة، ولا تلق بيديك إلى التهلكة، فأنا أخشى عليك الأذى، فقد سمعت من بعض الرجال أن هناك من يتربص بك، أنت مثل ولدي وقد خفت عليك سوء العاقبة، اهتم بدروسك يا ولدي ودعك من السياسة وألاعيبها.

لقد علمت الآن سر اللقاء، وعلمت أكثر سر ذلك البذخ الذي يعيش فيه، كم أن مهادنة الحكام مربحة، سكتُّ وأبديتُ دهشتي من طلبه فأردف مكملًا:

- أنت شاب صغير والدنيا مقبلة عليك، تستطيع أن تعطي الدروس لأبناء الأثرياء وتحفّظهم القرآن، فيتبدل حالك، ويرتاح بالك، وتعيش في هناء ورخاء، ألا تريد أن تشتري بيتًا جديدًا غير ذلك البيت، وتتزوج بمن يهواها قلبك وتريح أباك من مشقة العمل بالدكان؟

لقد تعمد أن يبهرني، يريد إضعاف عزيمتي باللهاث خلف زينة

الدنيا، بدأت الصورة تكتمل في ذهني والرسالة تصل كاملة، شكرته على حسن ضيافته ونصيحته لكني أطلعته على نيتي وأعلمته ردي:

– والله يا شيخنا الجليل إنه لثقيل على قلبي أن أقول لك ما سأقول، لكن ما باليد حيلة، فقد استفتينا قلوبنا، وعقلنا أمرَنا، وتوكلنا، وإنا والله مع السيد عمر مكرم حتى ينصره الله ويجعل كلمته هي العليا.

تغيرت ملامح الرجل فامتقع وجهه وقست قسماته وعلا صوته بالتهديد والوعيد، وأصبح جلفًا بعدما فشل لينه، سمع عبد الرازق صوتنا فنزل مسرعًا، معتقدًا أنا نتشاجر، فلوحت له بيدي أن اهدأ، ثم قلت له برصانة وعزم:

– لقد وَصَل إليَّ مقصدك، وقد وصل إليك ردي، والآن أستأذنك في الرحيل.

نظرت لعبد الرازق وأومأت له: هيّا، خرجت من عنده والدنيا تتأرجح في عيني، لم تفرغ المحن كأسها كله، وجاء السعيدي يسكب في القلب الثمالة، نكد الله عليك يا شيخ كما نكدت عليَّ، مالت الشمس غرب بحر النيل، فأظلمت الدنيا من حيث خرجنا.

– والله إن النعيم لزائل.. إن النعيم لزائل.

***

ألهبتنا المحن بسياطها وانكشفت حولنا الوجوه، تعلمنا من الخديعة أكثر مما تعلمنا من الصدق والوضوح، من كان بالأمس قريبًا أصبح اليوم بعيدًا، ومن كان بعيدًا أصبح قريبًا، الوالي يلعب بالنفوس لعب الحاوي بالثعابين، أقسمت وعبد الرازق على أن نواجه

ألاعيبه ونكشفها وألا نترك الأمر دون أن نسقطه أو يقضي علينا وما نبالي بتهديد الشيخ محمد السعيدي وليس له منا إلا زيادة الإصرار والتحدي، فهتفنا في كل مكان، نستحث الطلاب بالأزهر ونستحث العامة في الشوارع، فجادلنا الكثير وعارضنا الكثير، يقولون إننا مَن جلبنا الوالي وأجلسناه على عرش المحروسة، نحن أفسدنا كل شيء! نعم ومن أفسد شيء فعليه إصلاحه!

يمر الوقت وتتصاعد الأحداث، كل ساعة شيء جديد، ولم تفتر عزيمتنا لحظةً ولم يهدأ صوتنا، لكن مع الأسف لا جديد سوى أن تلك القبضة الحديدية أصبحت تبسط سطوتها على كل شيء، على النفوس والعقول، تغشي العيون وتكمم الأفواه، هناك سر رابض خلف الجدران يجعل الناس تتألم في صمت، لا ثورة ولا غليان يبدوان على الوجوه، هكذا يسلم اليائس حُلمه للنسيان، لقد أحكم الوالي قبضته تمامًا، وانقلب على الأزهر بشيوخه، محاولًا التخلص من سيطرتهم وقوتهم الضاربة، وتأثيرها على الحكومة.

استطعنا إمالة الكثير من الشباب والشيوخ، أقنعناهم بالتكلم والتخلي عن الخوف والرهبة، ونجحت دعوتنا في الانتشار وتشجيع الناس، حتى بدأنا نلاحظ عيون غريبة تحدجنا، تراقبنا في ذهابنا وإيابنا، أرسل لي الشيخ محمد السعيدي لاحقًا أكثر من رسالة مع طارق الدمنهوري، لكن لا حياة لمن تنادي، فقد قررت ألا أتحدث إليه وألا أنصت له، حتى جاءت الرسائل تحمل تهديدًا صريحًا لا يحتمل التأويل، فإما السكوت وإما أن نتحمل العواقب، وبالفعل أثناء رجوعنا ذات مساء وكنا نسترجع أحداث اليوم، حتى احتكَّ بنا

خمسة جنود ودارت بيننا وبينهم مشاجرة بالأيدي والأقدام، فضربناهم وضربونا، وجرحناهم وجرحونا، فقاموا بطلب مدد من الشرطة وتجمع المارة حولنا، وقبل أن تصل الشرطة كان الناس قد خلصونا منهم وفرقونا عنهم وابتلعَنا الزحام، رجعنا مسرعين للحارة وقد تمزقت ثيابنا وتورمت عيناي أما عبد الرازق فقد شُجَّ رأسه، والتوت ذراعه، تملك الرعب أُمَّه، أما أبي فقد تملكه الغضب، وأقسم على ألا يتركني أذهب للأزهر مرة أخرى.

- يكفيك ما كسبت من العلم في الأزهر، فلتنهِ هذا الأمرَ توًّا، فتريح وتستريح، ما بالك لا ترى لنفسك عملًا مفيدًا تجني منه المال؟ ألم تكن ملهوفًا على الزواج من قبل؟ أي زواج يتحدث عنه في هذه الأيام السوداء؟

- هل أنت مرتاح الآن وعيناك مزرقتان مورمتان، وجسدك مليء بالكدمات، الحمد لله لولا أن العين عليها حارس لكانت فُقِئت، اتقِ الله فيّ يا ولدي ولا تعذبني معك فلا أحد لي سواك في هذه الدنيا.

أبي المسكين يتحدث بصوت متهدج، ماذا أقول له وأنا أحمل ثورة مثل البركان حارقة، تولد الكراهية والحنق والغضب، وزاد تحرش الجنود من عنادي ورغبتي في الانتقام منهم جميعًا.

- يا يعقوب اسمعني جيدًا، لقد ادخرت لك مالًا يكفي لتزويجك، ما رأيك في هند بنت عمك عوض، أو فاطمة بنت المعلم محمد الجهيني -رحمه الله- إنها فتاة جميلة.

أخذ صوته يذهب ويجيء، ينأى ويدنو، وملامح وجهه تندمج مع ظلام السقف تارة وتنفصل وتظهر تفاصيلها تارة، حتى أظلم كل شيء.

❋ ❋ ❋

أسير حافي القدمين على سطح أملس أسود، لا أرى شيئًا أمامي أو أسفل مني، أمد ذراعيَّ عن آخرهما أتحسس الفراغ أحاول إزاحة الستائر السوداء المتراكبة، فلا أجد شيئًا أمامي، ولا تفهم قدماي ماهية الطريق، بدأت تلوح في الأفق بقعة ضوء خافتة، سرت إليها وكلما اقتربت منها كبرت لتتضح الرؤية أكثر فأهرول فأقع فألملم نفسي ثم أنهض وأجري فأتعثر في اللا شيء وأقوم فأتقدم حتى وصلت، فتكلم صوت عميق دافئ ناعم من خلف غلالة الضوء.

- يعقوب!

ما هذا إنه صوت حسناء! نعم هو صوتها، ينبعث من البقعة البيضاء التي تزداد اتساعًا كلما اقتربت منها.

- حسناء، أين أنتِ؟

- أمامك يا حبيب قلبي.

- أين؟

- أنظر جيدًا أنا أمامك.

نظرتُ فحدقتُ وشهقت، هذه ملامح حسناء تتجسد في الطاقة ليصبح وجهها القمر والقمر وجهها.

- أوحشتِني حبيبتي، بالله عليك لا تغيبي عني مرةً أخرى!

- صورتك لا تغيب عني لحظة يا يعقوب، أحبك.. أحبك.. أحبك!

اقتحم أذني صوت آخر فآلمني، صوت نشاذ أقحم نفسه فجرح الموسيقى الإلهية، إنه صوت خالتي كوثر، تتكلم بصوت مكتوم بجمل لا أميز حروفها وكلماتها.

«يا خالة أستحلفك بالله، اتركيني أهنأ بحبيبة قلبي ولا تقاطعينا ككل مرة».

ثم أسمع صوت أبي هو أيضًا مكتومًا كأنه يتكلم من أسفل سطح الماء، إنهما يتآمران معًا ضدي، يصران على أن يتعساني!

- لا سعادة ولا هناء والناس تحيط بنا يا حبيبتي!

تبسمت فاحمر وجهها ليصبح خمريًّا فأسكرني، ومسكًا أحال الدنيا لحديقة من الزهور تباهي الضحى بألوانها الزاهية.

- ما أجمل خجلك وحياءك يا فتاتي! يقولون إنكِ مريضة جف جلدك وبرزت عظامك والعروق، والله ما أرى سوى بدرٍ تم تمامه، وتألق ضياؤه.

يعود صوت خالتي كوثر يقتحم لذتي ويبدد نشوتي، أصبح أكثر وضوحًا.

- هل هو على هذا الحال من ليلة البارحة؟

- نعم، لقد أحضرت له الحكيم، فوصّاني بالكمادات الباردة وتناول منقوع من الأعشاب، لكن لا الكمادات أثرت ولا الأعشاب نفعت!

- قم يا يعقوب عندي لك رسالة من حسناء!

أوقدت الخالة في قلبي عناقيدَ من القناديل، نارها برد وسلام، ففتحت عيني منتبهًا ملهوفًا، إن كانت مكتوبة، وأصخت السمع لعلها شفهية.

- هاه يا خالة.. أين هي؟ أمكتوبة أم شفهية؟

ابتسمت وقالت:

- ما رأيك يا أبا يعقوب؟ أليست سيرة الحبيب خيرًا من ألف طبيب؟

- بلى، بلى لكن تكلمي أرجوكِ!

- كنت في بيت محمد القاضي عند حسناء.

- هاه.. ثم ماذا؟

- ناولني القلة يا عم علي كي أسقيه.

- لا أريد الشراب أرجوكِ تكلمي ولا تتلاعبي بي فأنا لا أحتمل الانتظار.

- ألن تسأل الأول عن صديقك المشجوج رأسه؟

- من؟ عبد الرازق؟! من شج رأسه؟!

- ماذا دهاك يا يعقوب؟ هل فقدت عقلك؟ أنسيت مشاجرة الأمس؟

- أي مشاجرة؟

- لا حول ولا قوة الا بالله، المشاجرة مع رجال الشرطة!

- آه.. آه هل كانت بالأمس؟

- نعم.

- يا خالتي بالله عليك ارحميني وتحدثي، وكفاك تلاعبًا بي وبقلبي، ماذا كنتي تفعلين في بيت القاضي؟

- ذهبتُ مع خالتك زينب لزيارة حسناء.

- وكيف حالها؟ طمنئيني؟

- الحمد لله تحسنت صحتها كثيرًا، وبدأت تعود لسابق عهدها، لكنها ما زالت ملازمة فراشها، تخدمها سلفاتها، وقد سألتني عنك ولم تبالِ بوجود أمها، وقد طمأنتُها عليك وقلت لها إنك ما زلت على حالك حافظًا عهدها، ألستَ كذلك؟

- بلى والله، ما زال حبها يملأ فؤادي.

- إنها تبلغك السلام وتقول لك إنك أوحشتها.

- وهي والله أوحشتني كثيرًا.

ما هذا السحر؟ هل ما سمعته حقيقة أم خيال؟ حسناء جاءتني في الحلم، نعم لأول مرة تزورني في أحلامي، إني أوحشتها حقًّا وهي بكل ما في القلب من التياعٍ أوحشتني.

- دعكِ من حسناء يا أم عبد الرازق إنها امرأة متزوجة ولا شأن لنا بها، سأخطب له فاطمة ابنة الجهيني، جميلة بكر يربيها على يديه.

- يا أبي ماذا يعني أربيها.. أربيها؟ وهل أنا قادر على أن أربي نفسي كي أربي غيري؟

هذا الرجل لا يطيق أن يراني سعيدًا أبدًا، حتى وأنا متعب لا يريد أن يريحني، إنه حقًّا لا يعرف شيئًا عن العشق والغرام، إن قلبي لم

يعشق بنتًا سوى حسناء، إنها منذ كانت طفلة صغيرة وهي تسعدني وتشعرني بحنانها، سنوات من الحب ندنو فيها بعد كل تنائي بغير عتاب، حتى بعدما قام أبوها بمنعها من اللعب في الحارة وقالوا البنت كبرت، ولم أعد أراها إلا وهي متوارية في خمارها، لم أتخيل يومًا أن تكون لإنسان غيري.

***

استيقظت من نومي على صوت دبيب أقدام، دبات متلاحقة متصاعدة، جعلت الأرض تهتز من تحتي، أعقبها خبط وطرق رهيب على باب البيت، ثم سمعت صراخ وولولة آتيين من بيت عبد الرازق، صوت خالتي كوثر، اللهم اجعله خيرًا.

« عبد الرازق.. ابني.. اتركوه يا كفرة.. لعنكم الله.. الحقونا يا ناس».

قمت منتفضًا، وقد انتابني الذعر والهلع، قاومت الألم والدوار، الطرْقُ مستمر على بابنا ويزداد عنفه كلما تأخر الرد، سمعت صرير الباب وهو ينفتح ثم أصوات تسأل عني وأبي يرد منكرًا وجودي، لم أعرف ماذا يحدث فحاولت الخروج لكني وجدت الباب موصودًا من الخارج، علا الجدال والصياح ثم تحول إلى عراك واشتباك، حاولت كسر الباب بكل ما أملك من عزيمة، لكني فشلت وخارت قوتي، كان بالخارج أصوات ضربات قوية تقرع الأبدان والأخشاب وتسقط الأواني، أبي يزأر كالأسد وهم يشتمون وحينًا يتوجعون، ولولت النساء بالحارة وتجمهر الرجال عند الباب السفلي، فكرت في القفز من الشرفة ثم تراجعت وحاولت مرة أخرى أن أخبط الباب بما تبقى لدي من

قوة وعزم، ثم سمعت صوت طلق ناريّ يَدْوي، أعقبه صوت ارتطام مكتوم بالأرض، ثم أصوات الأقدام تهرول نازلة السلم وعدة طلقات نارية، صعد بعدها أهل الحارة وسمعت الرجال يبكون ومنهم من يصرخ كالنساء، يقولون: «لا حول ولا قوة الا بالله قتلوه الكلاب»، كنت أضرب الباب من الداخل بيدي ورجلي وأصرخ حتى كسروا القفل وأخرجوني لأجد أبي ملقًى على الأرض أمام الباب، جثة هامدة يطوف على بركة من الدماء، جسده مليء بالجروح والكدمات.

أشياء كثيرة تحدث حولي وأنا واقف ذاهل وكأني ميت يشاهد أحياء يتحركون، امتلأت الحارة بالنواح واللطم، أناس يأتون يعانقونني ويواسونني وأناس يقبلون رأسي أو كتفي ويبكون، وجوه تتسرب لداخل المشهد ووجوه أخرى تنسحب خارجة، أرى الناس بقعًا ألوان باهتة تتحرك أمامي، ساعات مرت شعرت أنها لن تنتهي أبدًا، جاء خلالها الحانوتي ومساعدوه من حارة قريبة فغسّلوا الجثمان وكفنوه، العم سيد الحلاق يبكي بنشيج كالأطفال، العم عوض تسيل دموعه في صمت، العم رزق المنجد يساعد الحانوتي، والعجيب أن العم سعيد الذي ضايق أبي كثيرًا وجدته أكثر الناس بكاءً وأنينًا، والأعجب منه هو العم حجاج، رأيته حزينًا مكسورًا، ترى هل هو حزين لموت أبي، أم لما فعل بابنته؟

خرجنا حاملين الجثمان فوق رؤوسنا قبل صلاة العصر متجهين لمسجد السيدة زينب فصلينا الفريضة ثم صلينا صلاة التكبيرات الأربع، حملنا النعش ومشينا، قالوا سنتجه إلى القرافة بالرويعي، فاتجهنا، كانت الخشبة تطير كالبساط السحري، سابقة والناس لاحقون،

ترى هل تكالبهم على حملها لسرعة التخلص من المحمول أم من حب وإخلاص وتأثر، ركلت الأقدام التراب فتصاعد يبحث عن النجاة من الدبيب، اخترقناه سراعًا وعبنا منه ملء الرئات، لا هو نفد ولا رئانا امتلأت، يا رب سلم، أرى الناس يتداخلون كتداخل الشعر في الضفائر، ثم تدافعت الذكريات والصور تزاحم الناس، ثم التساؤلات الثكلى، ترى هل كل ما يحدث حقيقة؟ تخرج الروح من القلب انتزاعًا تتبع صاحبها، بكيت كالأطفال، وددت لو ارتمى على الأرض وأضربها بيدي ورجلي: «لماذا؟ لماذا؟ بأي ذنب قتل؟».

وصلنا إلى الآخرة، فوضعناه لينام بعيدًا عن العيون، توارى في أمان وسكون، كنا من نصف ساعة ذاهبين واجمين، الآن أرى الناس عائدين يثرثرون، لسان حالهم يقول: «قادمون مرة أخرى يا دنيا! يا حياة!».

من يصدق أن أبي خلال ساعتين من الزمان يصبح هاجعًا وحيدًا في قبر؟ من يصدق أن البيت سيكون فارغًا إلا مني وبقعة الدم، الأحداث تمر سريعة متلاحقة، إنها تشبه أحداث يوم القيامة في سرعتها وهولها، قال لي العم سعيد:

- إن الجنود فروا كالفئران خوفًا بعدما أوسعهم أبوك ضربًا، كانوا جميعهم جرحى ولولا البنادق المشهرة والطلقات المنفلتة لفتكنا بهم، لم أكن أعلم أنه بهذه القوة والشجاعة، أما عبد الرازق فقد كبسوا عليه واقتادوه مكبلًا بالأصفاد، كانوا يسددون له الصفعات واللطمات أثناء مقاومته لهم، والذي أرشدهم عنكم هو ذلك الشاب الرفيع الذي كان يصحبكم ويسهر معكم.

- طارق الدمنهوري؟!

انفض الناس ولم يبقَ إلا عمي عنتر، الذي بكى كثيرًا وتمرّغ في التراب من شدة حزنه على صديق العمر، والونيس الوحيد له في القاهرة، اقترب مني وهو يمسح بطرف كمه الدموع والمخاط الذي سال من أنفه، عيناه حمراوان، شعيراتها تكاد تنفجر، جلس بجانبي ووضع كفه على فخذي، وقال لي:

- يا يعقوب كنتَ أنت المطلوب، لكن الله أراد لك النجاة واختار أباك رحمة الله عليه ليكون بقربه، وجودك بالبيت خطر عليك، لا بد أن تختفي عن الأنظار، فإن الشرطة تتربص بك، يكفيك ما حدث لصاحبك ولأبيك، تعالَ عندي أخبئك حتى نجد لك سبيلًا.

أخفوا عبد الرازق وانقطعت أخباره، لا أحد يعرف أين حبسوه، حينًا يقولون إنه اقتيد إلى سجن القلعة، وحينًا يقولون بأن الشرطة ألقت به من فوق المقطم، كنت أسمع تلك الأخبار مجهولة المصدر وأنا ماكثٌ كالفأر في مخبئي، لم يجد عمي عنتر مكانًا آمنًا أكثر من مخزن غلال قديم له مغلق من عدة سنوات، مكان مظلم معفر تسكنه الفئران والأبراص، لكني تحملته فما باليد حيلة.

❋❋❋

يتخبط عقلي في وحشة المكان كتخبط الفأر في المصيدة، تتحرش بي الذكريات لا ترأف بحالي، أعيش أسوأ أيامي على الإطلاق، الوحدة والحزن والندم تلك الأشباح والعفاريت التي تؤرقني وتعذبني بالليل والنهار، قُتِل من أجلي الذي كنت أسميه الخواف،

وسعك الله برحمته يا أبي، لا الدموع تطفئ لهيب الندم ولا النشيج يكفيك، قد مت دفاعًا عني وخوفًا عليَّ، لا نامت أعين الجبناء، لعنة الله على الوالي وشرطته، وعلى جاسوسه الذي طعنني الطعنة المسمومة، فتحت له بيتي وأطعمته من طعامي، لعنة الله عليك يا طارق، ها هي تنبؤات أبي تتحقق الواحدة تلو الأخرى، وماذا بعد؟ إلى أين المسير وأنا لا أعلم مَن معي ومَن ضدي، مَن الخائن ومَن المخلص.. ترى مَن أين قد تأتيني الطعنة القادمة، لا مكان لك في القاهرة يا يعقوب، يجب أن ترحل، وتترك كل شيء.

دخل عمي عنتر حاملًا الطعام، فجلس بجواري ووضعه على جلباب قديم بالي، أكلنا معًا ثم تكلم:

– ماذا ستفعل يا ولدي في الأيام المقبلة؟ والله يا يعقوب إني لأحملك فوق رأسي حتى أقابل وجه الكريم، لكنك تعرف أن الجنود سيبحثون عنك حتى يجدوك، لا بد أن نفكر معًا، نبحث عن مكان آمن تهرب إليه، لعل الله يلهمنا حسن التصرف.

ماذا لديك الآن يا فتى سوى دليل كبير على أنك المنحوس الأكبر في هذه الدنيا؟

– اسمعني يا ولدي، إن أبوك يحتفظ بكل ما هو ثمين في سحارة الكنبة التي بغرفته، مؤكد ستجد بها مالًا أو أي شيء يساعدك في محنتك، فلتذهب متخفيًا، اكسر السحارة وأحضر ما فيها.

نمت تلك الليلة وقد رأيت في حلمي كل شيء ملطخ بالدماء، ثم وطأت أقدام الجند الملاعين أرض الحلم ودنسوها، فتحت عيني

محملقًا لأراني مقرفصًا في زاوية مظلمة، مستندًا إلى جدار عالٍ والجنود تحاصرني، مازالوا يقتربون حتى كادوا يدهسونني، سقط الحائط خلفي، لأرى الجبل ذا الكهف، ثم سمعت السيدة تناديني بصوت يتردد صداه كأنما هو قادم من السماء، ياه أين أنتِ أيتها السيدة؟ تراجع الجنود فتلاشوا في غياهب الظلمات، قمت أمشي متمهلًا صوب الكهف ألبي النداء، دفعني ذلك الظلام على أن أتذكر القنديل، أين هو؟ هل أصبحت تائهًا متخبطًا إلى هذا الحد؟ حتى القنديل الوهمي ضائع لا أثر له، تلفتُّ حولي باحثًا عنه فلم أجده، سأسير على أي حال، فلا خوف أعظم من هذا الذي يعتريني، اقتربت من المدخل لأجد خيطًا من نور يرتعش بالداخل، إنه القنديل إذًا!

- اقترب يا يعقوب، تعالَ يا ولدي!

هرولت إليها بخطًى متلهفة، رأيتها كما تركتها في ذات المكان جالسة بذات الهيئة، نظرَت إلى عيني بشفقة، فتكورت في حدقتيها دمعات فترنحت ثم هوت، مدت ذراعيها المقيدين ببطء، فقالت بصوتٍ يملؤه الرجاء:

- ألن تفُكَّني يا بني؟

مددت يديَّ حتى لمست يديها، فتشبثت بيدي، أصابتني رجفة لم أجد لها تفسيرًا إلا ذلك الخوف من المجهول الذي يسيطر علي، حاولت أن أفك الحبل، لكنه مجدول من ليف النخل تشابكت شعراته الغليظة الخشنة، حتى لم أعد أميز للعقدة أولَ من آخر ولا أعرف أين طرفاها، زادتني الرجفة عصبية وتشنجًا، مما جعل العقدة تزداد استحكامًا وتعقدًا، قلت لها وقد تملكني اليأس والضجر:

- يا سيدتي إن العقدة مستحكمة، ارحميني، كفاك تعذيبًا لي.

خفضت ذراعيها وأخذت تئن في صمت، فانطفأ القنديل وتلاشى كل شيء، ولم يبقَ إلا الظلام، ظلام بالمخزن وظلام في عقلي وظلام في قلبي، بزغت قرية الدير تشق الظلام وكأنها تقول لي: تعالَ إليَّ فأنا ملاذك الأخير، رأيت بيوتها الملونة المطلة على البحيرة تتألق مثل امرأة جميلة تتعمد إغوائي، هل بعد هرب أبي منها من عشرين عامًا أعود إليها هاربًا، ستكون مفارقةً عجيبة.

❊ ❊ ❊

(9)

الصليب

«للحظةٍ كدت أهمُّ بالتقاطه وإلقائه من النافذة»

أحضر لي عمي عنتر نقابًا أسود اشتراه خصيصى من أجل تلك المهمة.

- النقاب لا يليق إلا بالنساء يا عمي.

- الضرورات يا يعقوب.

«لا يدركك نور الفجر يا ولدي، ساعة واحدة تنجز مهمتك وتعود»، صوت عمي عنتر يتردد في أذنيّ حتى بعدما خرج وتركني وحيدًا، ارتديت النقاب واستعنت ببعض الحشو لزوم صنع الثديين، بعض الضرورات قد تجعل الرجل بثديين! لعن الله الضرورات، قبل صلاة الفجر بساعة كنت أقف أمام البوابة، أصبحَت الآن سدًّا عاليًا، تفصل بين عينيّ والبيوت التي عشقت نظرات عينيّ وتسبيحي اليومي على أحجارها، دفعت الباب الموارب ودخلت مسرعًا صوب البيت،

أشعر بأنه يفتح لي ذراعيه، أود أن أعانقه، هناك من أسرج قنديله المعلق فوق بابه، الأسئلة تتطاير حول رأسي، هل عاد عبد الرازق للحارة؟ هل سأجد أبي غافيًا بالأعلى، لا أفكر في الأجوبة، ولا أملك رفاهية النظر إلى البيوت، صعدت السلم في قفزتين أو ثلاث، فدخلت من الباب الذي كان مشرعًا، الظلام بالداخل دامسًا، كأني في مكان غير الذي عشت فيه، أوقدت القنديل المعلق بالردهة، فأعاد لكل الأشياء ألوانها الطبيعية لكنه لم يُعِد الروح إليها، مازالت بقعة الدماء راقدة مكانها تفترش الكليم، جفت وأصبح لونها قاتمًا يميل إلى السواد، تبث رائحة الموت في المكان، لم أدع الأفكار تنسيني الهدف الذي أتيت من أجله فاتجهت إلى الكنبة مباشرةً، القفل الرابض على باب السحارة صدئ صلب، يقول لي مَهَمَّتُك ليست بيسيرة، خرجت للردهة فأحضرت القضيب الحديدي الذي نسند إليه الحلل فوق الكانون، سحبته وجريت للغرفة وانتزعت القفل العنيد من الخشب انتزاعًا، انفتح باب السحارة لأجد جوالًا بنيًّا ملفوفًا بعناية فأخرجته من ركنه المظلم ثم وضعته في السروال وأحكمت رباط التكة عليه، ثم أسدلت النقاب وألقيت نظرة وداع سريعة قبل أن أسلم نفسي للطريق عائدًا.

وصلت للمخزن حيث مأواي المؤقت، خلعت النقاب، وسحبت الجوال من السروال ووضعته أمامي، كنت أترقبه كهِرٍّ يرقب الفأر وينتظر الوقت المناسب لينقض عليه، متى تأتي يا عمي؟ ساعة مرت كأنها دهر وأنا أنتظره حتى سمعت الصرير، دخل خفيفًا سريعًا، ثم أغلق الباب خلفه، جلسنا نحدق إلى الجوال ونخمن: «ترى ماذا يوجد بداخله؟» مخيطًا بخيط سميك، تناولته وقلبته باحثًا عن طرف الخيط حتى اهتديت

إليه فأخذت أفكه متسرعًا، فتحناه وأفرغنا محتوياته على الأرض.

ثلاث ورقات مطويات بعناية، اثنان منها اصفَرّا من القدم، وصرة نقود تكتظ بالريالات الفضية أفرغناها، ولفافة من قماش قديم من الحرير لونه أخضر، فردت الورقتين الصفراوين اللتين بهت حبرهما، وبعد قراءة السطور الأولى اكتشفنا أنهما عبارة عن عقدي شراء بيت وأرض زراعية تبلغ مساحتها خمس أفدنة في قرية الدير، والورقة الثالثة تبدو حديثة العهد وكانت وصية منه إن مات ترجع الأرض والبيت لأهله ويكون كيس النقود والبيت بالسيدة زينب من نصيبي! نظرت لعمي عنتر الذي تملكته الدهشة مثلي تمامًا، وكأن لسان حالنا يقول: ما هذا الجنون؟!

- لماذا يوصي لك، هل هناك وصية لوارث؟!

الرجل لا يفهم ويشعر بالغباء وشعرت بصدق جهله الذي هو مرآة لجهلي، يبدو أنك تريد أن تتعبني يا أبي وأنت ميت، كما أتعبتني في حياتك؟

قفزت لرأسي حكاياته الأخيرة عن ماضيه.

- صبرًا.. صبرًا، ألم يقل لي إن الرحلة المشؤومة في الصحراء قد حطمت كل أحلامه، كيف هذا؟ هل كان يكذب علي؟!

هذه الأوراق تعني أنه حقق ما يتمناه واستطاع شراء الأرض والبيت، لماذا كذب علي ولماذا لم يخبرني بأمر تلك العقود؟ اكتست الدهشة وجهينا وأُغلقت نوافذ العقل وأبوابه، كل منا حاول إلقاء مسؤولية التفسير على صاحبه فتبادلنا النظرات وعلامات الاستفهام والتعجب،

وأخيرًا هربنا من يأسنا لاجئين إلى اللفافة الحريرية الخضراء نبحث عن أمل عصي، اتجهت عيوننا صوبها وسبقت يدي بفردها.

سقط منها صليب خشبي، أعتقد أني رأيت هذا الصليب من قبل لكن متى؟ آه إنه ذات الصليب الذي رأيته بالكابوس، صغير بطول كف اليد، مصنوع من خشب الصندل ذي الرائحة العطرية، مرصع بفصوص صغيرة الحجم من الأحجار الكريمة.

- صليب؟!

سكت عمي عنتر برهة فإن المفاجأة لجمت لسانه، ثم رد بصعوبة:

- ما هذا يا يعقوب؟!

- أنت تسألني يا عمي، بل أنا الذي أسألك، ألم تكن صديقه الوحيد؟

- لا أعرف يا بني أقسم بالله!

أبي يخبئ في السحارة أغلى ما يملك، النقود التي ادخرها وعقدي الشراء اللذين وضع فيهما ما ادخره من عمله لعشر سنوات في التجارة، ووصيته الغامضة وأخيرًا صليب!

- ما سبب وجود هذا الصليب في خبيئته؟

استأنف عمي عنتر كلامه بكلمات مرتعشة تخلو من يقين، محاولًا استلال إجابة منطقية لسؤالنا عن المستحيل.

- لعل الصليب هدية من صديق قديم ألا تعلم أن القرية يختلط فيها المسلمون بالأقباط؟

- لا هـذا غـير معقـول، هـل سـيكون أبي حريصًـا جـدًّا عـلى أخـذ الصليـب معـه في أثنـاء هربـه مـن المـوت ويخبئـه عشريـن سـنة بقلـب الكنبـة! ثـم مـن يهـدي إلى رجـل مسـلم صليبًـا؟

مع الأسـف مـات وأخـذ معـه مفاتيـح الأسرار، وكذلـك مـا تبقـى مـن قصـة قريـة الديـر، وأسـئلة كثيرة لم يجـب عنهـا مثـل: مـا نهايـة قصـة الرهبان ورحلـة الصحـراء؟ ومـاذا عـن الراهبـة القبطيـة ذات الـرداء الأسـود التـي توقفـت عـن زيارتنـا منـذ عـشر سـنوات، كلـما جـاءت لتزورنـا تقبـل عـلي فتعانقنـي بشـغف حتـى أختفـي بـين طيـات ثيابهـا الـذي يحمـل روائـح البخـور وتحـضر لي الحلـوى المعقـودة واللُّعـب الخشـبية.

- هـل تعـرف شـيئًا عـن تلـك المـرأة القبطيـة التـي كانـت تزورنـا منـذ سـنوات، ألم يحدثـك أبي عنهـا؟

- سـألته يومًـا بعدمـا انتهـت زيارتهـا وكنـت جالسًـا معـه في الـدكان صدفـةً يومهـا: «مـن تلـك المـرأة يـا عطـار؟» فقـال إنهـا جـارة قديمـة مـن القريـة وهـي تسـكن الآن في مـصر القديمـة، أعتقـد أن اسـمها دميانـة، وأذكـر أننـا ذهبنـا نوصلهـا ذات مـرة لديـر أبي سـيفين بمنطقـة السـبع كنائـس بالقـرب مـن جامـع عمـرو بـن العـاص.

أعتقـد أن تلـك المـرأة تعلـم مـا نجهلـة، ولديهـا حلـول لـكل الألغـاز، لكـن هـل سنستطيع الوصـول إليهـا؟ ومـاذا سـنفعل إن كانـت قـد ماتـت أو رحلـت أو ضعفـت ذاكرتهـا؟ سـتكون تلـك نهايـة القصـة بـلا شـك!

- يجب أن نذهب إليها الآن.

- اصبر لعل هناك من يراقبنا، لَمِلْمْ محتويات الجوال وخبئها وحاذر حتى أطمئن أن كل الأمور تسير بأمان، فأي خطأ ستكون عواقبه وخيمة.

نعم صدق عمي فالمتربصون كثيرون، قام وتركني وحيدًا مع هذا الشئ الخشبي، لم أشعر بالراحة لوجودي والصليب في مكان واحد، حتى رائحته العطرية التي عبقت المكان خنقتني، للحظة كدت أهم بالتقاطه وإلقائه من النافذة، رافضًا أي صلة قد تربطني به، قمت بلفه في لفافته الحريرية مرة أخرى ودسسته في الجوال وتركته بالركن المظلم في آخر المخزن. حضرت حينها في ذهني صورة الشيخ عبد العليم يقول لي: «هل هناك شك بعد هذا بأن أبوك تزوج من قبطية وأنك ابنها؟»، لقد صدق الشيخ فيما تنبأ به، حقًّا إنه لذو فراسة ومهارة.

❋❋❋

أفكر في حال خالتي كوثر وأشعر بوخز في ضميري، كيف أتركها في محنتها من دون أن أطمئن عليها وأشد من أزرها، كم يؤلمني أن تعاني غياب ابنها وسندها الوحيد، كيف حالك الآن يا غالية؟ أدعو الله أن يرفق بحالك ويهون عليكِ عذابك، لعنة الله على طارق الدمنهوري الذي خان، وجلب لنا الموت والفراق، ما هو الثمن الذي قبضه ذلك اللعين نظير خيانته، ترى كم واحدًا مثلي وعبد الرازق قد تحطمت حياته بسبب خائن مثله؟

يقول عمي عنتر إن الأمل الأخير في الأم ديانة، ولأن البطء ليس في صالحنا والأمر لا يحتمل التأخير فقد تحركنا مباشرةً في صباح اليوم

التالي متجهين إلى دير أبي سيفين، وقفنا عدة مرات للسؤال عن المكان حتى وصلنا لأول الحارة التي تقع بها كنيستا الأنبا شنودة وأبي سيفين، اعتقدنا لوهلة أنها مسدودة لكنها تنفتح في نهايتها علي ممر ضيق بعد مسافة قصيرة من كنيسة الأنبا شنودة وهناك بين الحوائط المرتفعة ممر أخذنا في منحنيات قليلة بزوايا حادة أدى بنا في النهاية إلي بوابة الدير، بوابة كبيرة بنية اللون، تزينها نقوش محفورة، يتوسط مصراعيها صليبين نحاسيين كبيرين، طرقنا الباب السميك فكان صوت الطرق مكتومًا، لا يتخطى حيز سُمك الخشب، قلت لعمي إنهم لن يسمعوا طرقنا أو ربما يكونون في مكان بعيد، نظر إلي وأومأ واضعًا سبابته على فمه ثم وضع أذنه على الباب يسترق السمع، ربع ساعة مرت ونحن واقفان بلا حراك حتى بدأت أفكر في العودة ونسيان الأمر برمته، لكن قطع تفكيري صوت مزلاج حديدي ينزلق أعقبه تراجع المصراع الأيمن للخلف مُحدِثًا صريرًا مزعجًا، خرج لنا رجل طويل القامة عظيم البناء عريض الكتفين يرتدي زي القساوسة، ابتسم لنا ابتسامة حولت وجهه الضخم المتجهم لوجه طفل وديع.

- مرحبًا بزوار الرب.

- السلام عليكم يا سيدي.

- هل أستطيع خدمتكما؟

- نعم نحن نسأل عن راهبة تدعى الأم دميانة.

سكت الرجل قليلًا، وأخذ يتفرس وجوهينا ثم تكلم:

- هناك اثنتان بهذا الاسم هل تعرفان باقي الاسم أو وصفها؟

- إنها امرأة بيضاء سمينة طويلة، ربما تكون في الخمسين من عمرها الآن.

- لا أستطيع التأكد، ألا تذكران شيئًا آخر لعلي أستطيع مساعدتكما؟

- كانت تعيش في قرية تدعى بقرية دير الجبل.

- آه عرفت من تقصدون، لكن لماذا تريدانها؟

نظر الرجل إلي نظرة متمعنة فاحصة ثم أردف.

- أراك شيخًا أزهريًّا.

- نعم أنا كذلك.

- وماذا يريد رجل أزهري من راهبة قبطية وهبت نفسها للدير منذ نعومة أظافرها؟

- لقد كانت جارة لنا في القرية وكانت تزورنا حتى انقطعت أخبارها منذ عشرة سنوات، جئنا نطمئن عليها ونسألها عن شيء يتعلق بالجيرة القديمة لعلها تتذكر وتساعدنا.

أومأ الرجل برأسه إيماءتين ثم أمسك بلحيته ونظر إلى الأرض كمن يفكر في شيء ثم أردف وهو يشير بسبابته:

- ادخلا وسيرا في هذا الدهليز، حتى يقابلكما باب آخر ناديا برفق أمَّنا مارينا ستجدانها قريبة من الباب.

مشينا في ذلك الدهليز المستقيم المظلم، كنت أرتجف من الرهبة والغموض، كلما اقتربنا من الباب الثاني المحاط بقضبان حديدية سميكة، نادينا بصوت خفيض كما وصانا الرجل الضخم، حتى

حضرت سيدة نحيفة قصيرة إلى البوابة، فسألتنا مندهشة كما فعل الرجل، وأعدنا عليها ما قلناه له، فسمحت لنا بعبور البوابة وطلبت منا الجلوس على أريكة على الشمال، تطل على فناء واسع به شجر ونخيل، غابت عنا لبضع دقائق لتسمح لنا بمشاهدة جمال وروعة ذلك المكان الهادئ.

جاءت الأم مارينا بعد نصف ساعة تقريبًا واعتذرت عن التأخير وطلبت منا أن نتبعها، مشت صوب المبنى الذي في الناحية الشرقية ثم صعدت درجتين من سلم يؤدي إلي باب طويل يفتح على غرفة واسعة، مطلية بطلاء أبيض جعله الزمان يميل للصفرة، النوافذ طويلة عالية مرسوم على زجاجها رسومات لقديسين وشهداء، شعرت براحة كبيرة ممزوجة بشيء من الرهبة، بين كل نافذتين معلق صور للسيدة مريم تحمل طفلها وهناك تمثال للمسيح وهو مسمر في الصليب معلق في الحائط المقابل للباب، لمحنا سيدة بدينة تجلس على أريكة بيمين الباب، تبدو مُقْعدة، التفت لنا الأم مارينا وأشارت جهتها فقالت:

- أقدم لكم أمنا دميانة.

انسحبت خارجة من باب جانبي غير الذي دخلنا منه.

- تفضلا بالجلوس أهلًا بكما.

نظر إليها عمي عنتر محاولًا مطابقة وجهها بالصورة المخزونة بذاكرته، السيدة مربعة الوجه عريضة الجبين رفيعة الحاجبين أنفها طويل معقوف قليلًا لكنه متناسق مع وجهها، شفتاها تقترب قليلًا من الأنف، وجهها في مجمله صاف وبشوش ويريح الفؤاد.

- كيف حالك يا سيدتي، هل تتذكريني؟

ضيقت عينيها قليلًا محاولةً تركيز بصرها وبعد برهة أعلنت عجزها عن التذكر.

- المعذرة يا أخي، فأنا لم أخرج من الدير منذ سنوات.

- أنا صديق علي العطار، لقد أوصلناك منذ عشر سنوات للدير هنا.

انتبهت بمجرد أن سمعت اسم أبي ورددت الاسم، ثم سكتت لبرهة عاقدة حاجبيها، وحاولت مرة أخرى أن تتذكر لكنها لم تصل إلى شيء، توقعت للحظة أنها ستنكرنا وربما تضعنا في مأزق كبير، أشاحت وجهها عنه ثم نظرت لي وأغمضت عينيها الضيقتين قليلًا ثم فتحتهما عن آخرهما وأشارت لي بسبابتها:

- يعقوب؟

يا فرج الله، لقد شعرت بسعادة وراحة عظيمتين في تلك اللحظة فتنفست الصعداء كأنما كنت أحمل على كتفي جبلًا فرميته.

- نعم أنا يعقوب.

توشك المرأة أن تبكي لكن ذراعَيها سبقتا دموعها فسحبتني من ذراعيّ وهي على حالها جالسة لا تحرك رجليها، فعانقتني بقوة، غصت خلال العناق بين ذراعيها وصدرها وشعرت بثيابها يغطيني يكاد يخفيني كما كان يحدث قديمًا.

- كم أوحشتني يا يعقوب، كيف حالك يا حبيبي؟ وكيف حال علي العطار؟

تلعثم عمي عنتر وارتبك فهو كان يفضل أن نحكي الأمر بشكل تدريجي، لكن سبق السيف العزل، فقد انطلق لساني يحكي قبل أن أفهم سر تلعثمه، أخبرتها بما حدث فانفجرت باكية حتى أبكتنا من جديد، حكيت لها سبب قتله، وأن الشرطة تطاردني وإني هارب.

- مع الأسف يا ولدي لن أستطيع أن أخبئك هنا.

- يا سيدتي لقد جئت إليك هنا لأعرف منك كل شيء عني، وعن هذا الصليب.

أخرجت الصليب الخشبي فناولته إياها، فلقفته متلهفةً ثم نظرت له شاردة فترقرقت عيناها بالدموع مرة أخرى، ثم قبلته واحتضنته.

- ياه يا بني لقد أرجعتي عشرين سنة خلت، لم أرَ هذا الصليب منذ كنتَ صبيًّا رضيعًا في المهد، هذا الصليب وضعته أمك ملفوفًا بمنديل حريري بداخل القماط الذي لفتك به.

انتابتني دهشة عظيمة دوختني، وتبادلت النظرات مع عمي عنتر.

- لماذا فعلت أمي هذا؟

- فعلت ماذا؟

- وضع الصليب في لفافتي.

- شيء طبيعي فأمك وأبوك يريدانه أن يحرسك؟

- هل أمي قبطية؟!

- نعم وأبوك كذلك!

***

بدأت تسرد حكاية القافلة كأنها تكمل من حيث توقف أبي، يبدو أن أساس السر وحل المعضلة مرتبط بالقافلة.

«وصل إلى القرية جملان مربوطان معًا بحبل طويل، الأول يحمل الأخت ميريت تحتضن الطفل الرضيع، وجثة الراهب المبقورُ بطنه، أما الجمل الثاني فيحمل عليًّا وقد جفت الدماء على ثيابه، وتوقف الجرح عن النزيف، الثلاثة غائبون عن الوعي تمامًا، أما الراهب المتوفى فقد انتفخ بطنه قليلًا وخرج بعض أمعائه من القطع، الدماء الجافة تلطخ الفرش الداخلي للهودجين، هول الفاجعة عظيم على الجميع، فما من عائلة في القرية إلا تأثرت، فبعضهم قد ساهم في تلك القافلة التجارية برؤوس أموالهم، وبعضهم مات ذووهم، إنها رحلة ملعونة حصدت الأرواح وضيعت الأموال، أوصل الناس الأخت ميريت لنا، وكانت في حالة إعياء وهزال شديدين وتحتضن طفلًا أكثر إعياءً منها موشك على الهلاك، استأجرنا له سيدة نصرانية فقيرة لترضعه وترعاه بعدما قام الحكيم باللازم، وكان من بين مقتنياتها صندوق نحاسيٌّ، أمرنا أبونا بولس بأن نأخذها لجناح الراهبات لتمريضها والاعتناء بها، لم يكن يعلم سبب مجيئها بعد، لكنه اهتم بأخبارها وحرص على أن يطمئن على صحتها بشكل مستمر.

تسبب مجيئها حاملةً الطفل الرضيع وبصحبتها رجل مسلم في إثارة التساؤلات ورسم العديد من علامات الاستفهام، لكن لا سبيل لنا غير الانتظار حتى تتحسن صحتها وبعد ذلك نعلم منها الحقيقة كاملة.

كانت تهذي بكلام غير مفهوم، ويتفصد جبينها بالعرق، جسدها كله محمومًا ويترك أثرًا لرطوبته على الملاءة، تقوم المسكينة بالليل

فزعة، فأجري إليها، شعرها الأسود الطويل مبعثر على الوسادة، أحتضنها وأصلي لها حتى تهدأ، تدس رأسها في صدري وتضمني بقوة حتى تكاد تؤلمني، كم كانت خائفة، مر أسبوعان وما نبات فيه نصحو عليه، تتحسن حالتها ببطء رتيب، أخيرًا فتحت عينيها لكنها ظلت صامتة، تنظر شاخصة للسقف، وكأنها فقدت عقلها، وحينًا تتلفت حولها وتربع ذراعيها وتهزهما كمن تهدهد طفلًا، أدركت أنها تسأل عن الطفل، طمأنتها أنه بخير ويجد كل الرعاية، فتهز رأسها رافضة لكلامي وتشير إلى الفراش كأنها تطلب أن أحضره ليكون بجانبها، فقلت لها لا يمكن أن يأتي حتى تتحسن صحته، فهو هزيل مشرف على الهلاك، سكنت لبرهة ثم انتبهت مرة أخرى كأنما تذكرت شيئًا آخر تخشى فقدانه فجسدت لي شكل الصندوق بيديها بحركة سريعة مضطربة فأحضرته لها تواً، هدأت سريرتها قليلًا وارتخت قسماتها المضطربة، تناولته مني ووضعته بجانبها ثم أسلمت نفسها للغيبوبة مرة أخرى.

في الفترة اللاحقة حدثت لقاءات عديدة مريبة يحيط بها الغموض بين البابا بولس والعمدة خالد الجارحي لمحاولة فك طلاسم ذلك اللغز وطلب من العمدة أن يحضر عليّ ليسأله، كنت أسترق السمع وأراقب جناح أبونا بولس دائمًا كأنما عينت حارسًا ورقيبًا عليه، أبو علي تحجج بأن الشاب المسكين مصاب بجروح غائرة بسبب المعركة الشرسة مع قُطّاع الطريق، ونزف دمًا كثيرًا وهو لا يزال محمومًا فاقدًا للوعي، فلم يملكوا من أمرهم غير الانتظار، والانتظار دائمًا مؤلم، آلم أبونا بولس حقًا ولم يطق صبرًا حتى تفيق فكان يسألني عنها بالليل والنهار.

استمر هذا الحال شهر تقريبًا، وبدأت بعده بالتجاوب معي وتتمتم بكلمات قليلة كشكر الرب وبعض الصلوات البسيطة، أصبح البابا متحفزًا للحديث معها بأي شكل لكني رجوته أن يُتمَّ جميله ويتركها أيامًا أخرى فصحتها لا تسمح بالكلام والتذكر، فكان يقول متأففًا: «أريد أن أعرف فقط، هل الطفل لها أم حملته سفاحًا من ذلك الشاب المسلم الذي أتى معها؟»، ولم يُلهِه عنها إلا تلك الاحتجاجات التي اندلعت من أخواتنا الأقباط من أهل القرية معترضين على تدني الأجور وقسوة المعيشة في حين يملك الدير الخير الوفير ويضن به على المساكين، انتقلت تلك الحالة من الغضب العارم كالعدوى للمسلمين الذين ثاروا بدورهم وخرجوا يتجمهرون، أما بيوت الجوارحة.. فيسبون ويلعنون وكل منهم يطلب شيئًا مختلفًا، حتى فوجئوا بالعمدة والخفر يخرجون إليهم حاملين البندقيات والطبنجات وأخذوا يطلقون القذائف في الهواء، محاولين تفريقهم، لكن الغضب يومها كان عظيمًا، وقفوا صامدين في وجه الأسلحة، تحدث معهم العمدة برباطة جأش وصلابة، حديث يجنح مرة للترغيب والوعود الزائفة ومرة للترهيب، وكذلك فعل أبونا بولس أمام بوابة الدير مع الأقباط، لكن الناس تمسكوا بموقفهم ولم تفترْ عزيمتهم حتى قبل العمدة أخيرًا بعد مشاورته لوجهاء القرية وأبونا بولس على زيادة الأجور زيادة زهيدة، لم يرضَ حينها المحتجون عن تلك الزيادة لكنهم ركنوا إلى تصديق الوعود وفرحوا باكتشاف تلك القوة الكامنة بداخلهم التي أجبرت

العمدة على الرضوخ لإرادتهم أو هكذا توهموا، رغم استطاعة العمدة وأبونا السيطرة عليها بسهولة ويسر.

يعتقد المسلمون بالقرية أن العمدة خالد الجارحي هو الإنسان الأشد على الإطلاق بالقرية وربما بالكون كله، فهم لم يروا أبونا بولس إلا قليلًا، لكن الحقيقة أن أبونا بولس رجل مهيب مخيف، إذا تحدث بطرقات أو أروقة الدير ترتج الجدران، ترتعش المصابيح، يسكت الجميع حتى الفئران في جحورها تتوقف عن قرضها، رجل قويٌّ عصبيٌّ، جهوري الصوت أجش، إذا غضب رجفت قلوبنا من الهلع، وإذا صمت طال صمته، وإذا عبس طال عبوسه، يغضب من أقل الخطأ ويعاقب بأشد القسوة، عقوبات لا يتحملها إلا الأشداء، لا يحب أن يرى الرهبان يسيرون على مهل، يصرخ في كل من يقترف ذلك الإثم حتى المرضى يهرولون أمامه في أي مكان، يكره أن يرى جمع من الرهبان يتسامرون أو يثرثرون أو يبتسمون، فهذا لا يليق بالرهبنة وقدسية الدير، إننا لا نستطيع الحديث معه ولا يجرؤ إنسان على جداله، فهو يدعي أنه يتلقى الرسائل من يسوع وأنه يرى ويسمع ويشعر بطاقة نور من وحيه، لذلك فهو ينطق بالحق ويرى بعينيه ما لا نرى ويسمع ما لا نسمع، وفي أوقات كثيرة ينبئنا بما يدور بيننا في حجراتنا وما يختلج في نفوسنا وما نفكر فيه.

قام بتأسيس فرقة من الرجال الأشداء لا نراهم إلا قليلًا، إذا ما أراد أن يعاقب أو يبطش يرسل إليهم، لا نعرف لهم عددًا أو شكلًا، نعرفهم من ثيابهم فهم ملثمون، يقيمون في آخر الدير في جناح يكاد يكون منفصلًا عن الدير، يعيشون في ترف فلهم أكلهم وطَبّاخُهم،

نـرى الخـيرات تذهـب لهـم بالقناطـير في آخـر الديـر، لا يظهـرون إلا إذا أرسـل إليهـم، أمـا نحـن الرهبـان فنعيـش في قحـط، ولا نسـتطيع أن ننبـس بكلمـة اعـتراض واحـدة، ولـه جناحـه الخـاص الـذي يبيـت فيـه يشـبه قصـور الملـوك مـن حيـث الفخامـة والمقتنيـات النـادرة التـي تجـيء إليـه كهدايـا يحملهـا عبيـد سـود البـشرة قادمـون مـن البـلاد الإفريقيـة وبعضهـا يـأتي مـن بـلاد الشـمال.

❋❋❋

(10)

القديسة ميريت

«هي أول قنديل يحمل قَبَسَ يسوع يضيء ديرنا»

تحسنت صحة الحبيبة ميريت، اعتدلت قامتها وثبتت نظرتها وجاء البريق فسكّن عينيها، أيام مضت وحديثنا حديث القلب للقلب، العين للعين، حديث البسمة والإيماءة والدمعة المرتعشة في أحداقنا، توطدت أواصر الصداقة والمحبة بيننا، لم نعرف مَن سحب المزلاج أولًا وفتح خزينة أسراره، انكسرت الحواجز وامتزج فيضا المحبة، حكينا كل شيء عن أنفسنا، التاريخ الذي مشينا على سطوره لنخط حياتينا لنملأ بها الصفحات بعدما كانت طليقة هائمة في الزمان السرمدي، حكيت لها قصتي منذ كنت صغيرة من أين أتيت وكيف وهبتني أمي لخدمة الرب، آه يا ميريت يا حبيبتي كم أوحشتني! أتعلم يا يعقوب...؟ ميريت هي أول قنديل يحمل قبس يسوع يضئ ديرنا، فتاة طيبة خلقت من نور السماء كالملائكة، إذا نظرت إليها ترى نور الصبح إذ يشرق في صباحات

الربيع، فإذا شعرت بأن الفراشات تطير حولك فلا تتعجب، وإذا شممت عبير الزهور فلا تسأل من أين يأتي، فقط استوعب بقلبك الطاهر وعقلك المستسلم لقدرة الرب تلك المعجزات، كنت أعرف الاعتراف قبلها، كان كالواجب الدوري حيث أفرغ وساوس النفس بارتكاب أخطاء وهمية، أما ما تذوقته بين يديها وفي حضرة سمعها وبصرها فلا وصف له، فقط ألقِ بين يدَيها خطاياك وهمومك وشكواك واسكب الدموع وتلقى لمسة كفها التي ستطهرك وترجعك كيوم ولدتك أمك، لتصبح أبيض من اللبن وأنقى من الماء العذب.

كلما دخلت عليها المحراب وجدتها تصلي وتناجي يسوع، لم تتوقف برهة عن الصلاة، ولم ينطق لسانها إلا بكل ما هو طيب، ولم تفارق شفتيها بسمة الرضا، لم تخف عندما حكيت لها مدى قسوة أبونا بولس فهي متحصنة بدرع من اليقين، لا يؤذيها سوى ما نقلته لها من سوء معيشة إخواننا الأقباط خارج الدير، عرفت بكل يسر خلال أيام قلائل كيف حازت ثقة بابا الإسكندرية رغم صغر سنها، ولذلك جعلها على رأس الوفد المرسل للقاء أبونا بولس لتوصل إليه الأمانة، ولا أعرف هل من حسن حظها نجاتها من رحلة الصحراء المميتة أم أن النجاة هي سوء الحظ ذاته، كانت تقول لي: «لا شيء يسمى حسن حظ أو سوء حظ، إنما يحركنا الرب لتتحقق مشيئته على الأرض وفي السماء»، إن من آمن مثل إيمانها لم يرَ في القسوة قسوة ولا يعرف شيء عن عذابات الجسد، الروح يا يعقوب لا تطلها سياط الجلادين ما دامت امتزجت بحب يسوع؟

كنت أستمد منها الطاقة والشجاعة، أستطيع أن أميز بين الشك واليقين، نعم هي اليقين الجليّ، كنت أعرف كيف يكون الحق واضحًا منيرًا حادًّا لا يعرف الميوعة أو الغموض، الحق جميل مثلها والقبح في كل شيء حولنا وفينا، إننا لم نعرف في الدير شيئًا عنه، نحن مزيفون، لم نعرف العبادة الحقة، لو كنا عرفناها لرأينا المسيح يسعى بيننا يرعانا ويكفكف دموعنا ولأحال خوفنا أمنًا، بل سيجعل الخوف بلا معنى، سيجعل الجوع بلا معنى سيجعل الألم بلا معنى، أسفار بعيدة بين سماواته تحمل الرحمات تباعد عنا العذاب حتى نرى القسوة بعيدة بعيدة تتلاشى، ليتني وقفت في وجهه ورفضت أوامره، أحيا الآن كالموتى، أتعذب كل يوم، كم كنت أحتاج لسنين أتعبد في محرابك يا ميريت حتى أبلغ ذلك اليقين الذي كنتِ تملكيه، لأملك القوة التي تجعلني ثابتة في وجهه.

***

أخبرتني إنها تحمل أمانة للبابا بولس، لكن لم تفصح عن مضمونها لهذا توجست ودعوت الرب أن يجعل الأيام القادمة تمر بسلام.

- كيف حال بنتنا ميريت؟

- لقد تحسنت كثيرًا وتستطيع الكلام والحركة الآن.

- هل علمتِ ما حكايتها أو لأي هدف جاءت؟

ارتبكتُ أمامه وتلعثمت الكلمات، لا أعرف شيئًا ولا أجهل أيضًا، فميريت تحمل شيئًا ما سيثير الزوابع والأعاصير، لكن ما هو.. لا أعلم، ارحمني يا أبونا لا تنظر إلى عيني، إنه يقرأ الأفكار ويعلم

ما تضمره النفوس، لكزني على طول صمتي بنظرة حانقة فتكلمت متلعثمة، تتعرقل الكلمات على شفتي.

- يا أبي إنها قادمة تحمل أمانة لك لكني لا أعرف عنها شيئًا.

ارتعدت فرائصه لكنه حاول لملمة اختلاجاته، رأيت أمام عيني حينها جبلًا أصابه زلزال، ارتجف وقام منتفضًا فمشَى حتى وقف أمام صورة العذراء ثم أطرق للأرض هنيهة وبعدها التفت إلي وقال بصوت يملؤه الغضب:

- أريد أن أقابلها توًّا.

مرت الساعات التالية كالنار في الهشيم، تأكل في وجهها الأخضر واليابس، قمت بمساعدة ميريت في ارتداء ثيابها بشكل يليق بمقابلته، ثم أخذتها لجناحه حيث يمكث مترقبًا، دعوت لها من كل قلبي أن يثبتها الرب أمامه، دخلت معها فأشار إلي بيده أن أخرج فخرجت، لكني لم أبتعد، وقفت خلف الباب استرق السمع، لأعرف ماذا ستفعل تلك العصفورة المسكينة بين مخالب ذلك النسور الجسور، فليكن الرب معها.

- أهلًا بك يا بنيتي نشكر الرب الذي نجّاكِ وشفاكِ.

- الشكر للرب في كل حال وحين.

صمت قليلًا، أعلم طريقته جيدًا، فهو يسكت ليسمح لرهبته أن تتسلل لنفسها، مؤكد أنه يحدجها بنظرات كالشرر، ينظر إلى عينيها، أساريرها، يريد كيّها بسطوته، يذيبها من الداخل، إنه لم يعرفها بعد، ولا يعرف أنها ليست من ذلك النوع، عاد للحديث ولم يطل السكوت؟

- أريد أن أعرف سبب زيارتك لنا في الدير، لقد قطعت مسافة طويلة، رحلة شاقة مهلكة، أعتقد أنك قادمة تحملين شيئًا هامًّا يستحق المخاطرة والعناء.

يتكلم بصوت هادئ وديع، ربما أيقن أن الطريقة الأولى لن تفلح معها، في هذه اللحظة ظننت أنه سيعالج الأمر بحكمة وتروٍّ.

- أحمل أمانةً لك.

- أي أمانة؟

صمت مرة أخرى منتظرًا رؤية تلك الأمانة، سمعت صوت الصندوق ينفتح، ساد الصمت وخيم الغموض، ثم تنحنح وسمعت صوت نعله يعلو مقتربًا نحو الباب حتى شعرت بأنه يعلم بوجودي وقادم يفتح الباب لكشفي، عاد يتكلم لكن بصوت أعلى قليلًا يحمل في طياته الثبات على موقفه والتحدي، لكني لم أستطع التقاط الكلمات فقد جريت مسرعةً على أطراف أصابعي واختبأت خلف العمود القريب، وبعدما شعرت بالأمان اقتربت من الباب مرة أخرى لأسمع جزءًا من كلماته.

- ... إنها ملك للدير منذ مئات السنين، ولا سلطة لمخلوق عليها سوى الدير.

ثم ردت ميريت قائلة ولم أفهم بعدُ في أي أمر يتجادلان.

- سيدي إنها ملك الرب، الأديرة منذ نشأتها وهي أماكن مقدسة هدفها خدمة الرب، ولا تستمد قيمتها من الجدران والصوامع لا إنها تحمل سر الرب بالخشوع فيها والصلاة والطهر والبعد عن ترف الدنيا

ومظاهرها الزائلة، ما زاد من المال مفسدة يا سيدي، لا يليق بسفن الأديرة أن تبحر في بحار الدنيا وتغرق في شهواتها.

- يا بنيتي هذا أمر يخصنا، ولا دخل للكنيسة بنا فنحن نعيش في هذه الصحراة بقلب الجبل منذ مئات السنين، ولم تقدم لنا الكنيسة يومًا أي عون أو مساعدة.

قاطعته ميريت ولا تزال أكثر منه قوةً ثباتًا.

- شكرًا سيدي على حسن ضيافتكم لي طوال فترة مرضي.

- هكذا.. هل انتهى الأمر؟

- اعذرني، فأنا مضطرة لتوصيل الأمانة لأقباط القرية.

سكت كثيرًا، ثم تكلم بصوت آخر مرعب، كشف الغطاء عن وجهه الرهيب فقد نفد صبره.

- قولي لي يا ميريت.. ما علاقتك بالطفل والرجل الذي أتيتِ معهما من الصحراء؟

سكتت ميريت وهي تعلم ما يصبو إليه، لكنها تكلمت غير عابئة بمقصده:

- القافلة التي حملتني والوفد الكنسي ضمت تجارًا وأسرة نصرانية قادمة من الإسكندرية، الوفد الكنسي هلك كله إلا أنا، والأسرة المسيحية هلكت إلا طفلها، والتجار جميهم هلكوا إلا ذلك الشاب.

- آه هذا جيد جدًا، تستطيعين الرجوع إلى مقر استراحتك الآن وانتظري لحين البت في هذا الأمر.

ساد الصمت بينهما برهةً ثم سمعت حفيف ثوبها يسعى إلى الباب، فهرولتُ أسبقها حتى وصلتُ الرواق المؤدي لجناح الراهبات وانتظرتها هناك، وحين أقبلت تحركت لها، وأمسكت بيدها وربت عليها بالأخرى لأهون عيها فلثمت كفي بحنان فأسكنت رجفة قلبي، وعندما وصلنا إلى الغرفة وأغلقنا الباب علينا حاولتُ معرفة أمر تلك الأمانة لكنها أبت أن تقحمني في هذا الأمر خوفًا على، كل ما أخبرتني به بعد ذلك هو أن الطفل الناجي يُدعَى يعقوب مات أبواه في الصحراء، وهذه الأسرة الصغيرة كانت عائدة لتعيش في كنف العائلة الأم، والد الطفل يدعى متَّى بيشوي السرياني، كنت أنوي على أن يكون أول شيء أقوم به في صباح اليوم التالي أن أستأذن أبونا بولس كي أرجع الطفل إلى أهله فهم الأولى برعايته من أي مخلوق آخر، لكن الأحداث الخاصة بالصراع بينهما شغلتني عن أمر الطفل.

***

أرسل أبونا بولس إلى لحاج خالد الجارحي يطلب إليه الحضور على وجه السرعة، كنت أراقب الأمور عن كثَب، ودائمًا ما أتحرك بالقرب من جناحه حتى لا يفوتني شيء، جاء العمدة وأيقنت أن هذا اللقاء سيترتب عليها شيء خطير، وصلت متأخرة بعض الشيء وسمعت أبونا يقول بصوت مرتعش.

– ... فتنة تأكل الأخضر واليابس، بالأمس أخمدنا واحدة واليوم تأتي ما هي أشد وطأة.

– ما العمل إذًا يا أبونا؟

- الأمر يحتاج إلى تفكير وحسن تدبير يا حاج.

- هل من شهود عليها؟

- لا شاهد عليها سوى الشاب الذي جاء معها.

سكت العمدة قليلًا ثم أردف:

- ربما تكون تلك المرأة حملت الطفل سفاحًا من ذلك الشاب.

- ماذا تقول يا حاج؟! هل تريدني أن أرمي راهبةً بالزنا؟

- يا أبونا إنها عدوتك الآن وإنها لفتنة ستهلكنا جميعًا، لا مجال للتروي، ما رأيك في هذا القول؟

اتفق الطرفان على أن يتهما عليّ والأخت ميريت بالزنا، ويتم التخلص منهما ويتم تربية الطفل في الدير بعيدًا عن العيون.

- سبحان الله الذي أراد أن أتربى في الأزهر الشريف رغمًا عنهما.

- يا يعقوب إن الدماء التي تسري في عروقك دماء قبطية.

أصابني ذلك الكلام برجفة قبضت قلبي.

- لا لا يا أمنا ديانة، ربما أبي وأمي قبطيان، لكني مسلم التربية والقناعة واليقين.

- يا ولدي أنت قبطي وكان يجب علَى عليّ العطار أن يحافظ على دينك وليس الاستفادة من وجودك لديه ليغيره، لقد خان الأمانة؟

- أرجوك يا سيدتي، هذا الأمر انتهى ولا جدوى من الكلام فيه.

شعرت بالانزعاج كثيرًا من حديثها، فمهما بلغت درجة حبي للدين المسيحي كرسالة سماوية أعترف بها، فإني نهلت من العلم

الشرعي من الأزهر ولن أقبل أن أصحو من النوم لأجد نفسي نصرانيًّا.

❋❋❋

حاولت طمأنتها بنظرات تقول: «لا تقلقي كل شيء على ما يرام»، كنت أشعر بأني أخدعها وأخونها، لكن ماذا تفعل عاجزة مثلي لضعيفة مثلها، تبتسم لي في حنو بالغ وتقوم بما عجزت عن أدائه، تقول بعينيها: «لا عليك لست خائفة ما دام الرب معي»، كيف تفعل هذا؟ إنها كالنبيين والقديسين ذات عزيمة ويقين، تملك قوة لا يملكها البشر أمثالنا، حتى حجرتها أصبحت مباركة، هي وحدها استأثرت برائحة الزهور التي تبثها الأشجار في آخر الدير، والقمر الذي يرسل أشعته لها حتى لو كان يطل من الناحية الغربية، ماؤها وحده طعمه كالعسل.

نظرت إليَّ ثم ربتت على الحصيرة تريدني أن أجلس بجانبها، فجلستُ، ناولتني كسرة خبز ما زالت لينة، مذاقها كتلك التي تصنع بالسمن والعسل، قضمتها لتذوب في فمي بغير مضغ، ثم وضعت كفها على كتفي مما أسقط الشال عن رأسي، فقلت لها:

– ما أجمل مذاق هذا الخبز، من أين أحضرتِه؟

– أتعرفين يا دميانتي الحبيبة...؟ لو تكشفت لك الحجب... لو، لا أقصد تلك التي تحجب الرؤية فقط، فالحجب تحجب الرؤية والفهم والإحساس، لكنها هدية يسوع لمن أحبه بصدق.

تعجبت من كلماتها فما علاقة الخبز بالحجب، فأردفت تكمل حديثها غير ملتفتة لسذاجتي.

- بعد أن تنكشف الحجب سترين الأشياء الغائبة، سترين الحقيقة واضحة كالشمس وقت الظهيرة، ستتذوقين الأشياء بمذاق مختلف.

رددت عليها متمسكة بغبائي كأني أعترف بمدى الفارق الذي يفصل بيننا:

- هل لهذا علاقة بالخبز؟!

- يا حبيبتي دعكِ من الخبز الآن، ما دمتِ مشغولةً بالدنيا هكذا فلن تفهميني مطلقًا، الخبز الخبز!

سكتت قليلًا وأغمضت عينيها آخذة نفسًا عميقًا، تحاول أن تضع كوكبها مرة أخرى في فلك الإله ثم فتحت عينيها وقالت:

- الخبز هو ذاك الذي أحضرتِه اليوم يا عزيزتي.

- اعذريني يا ميريت فأنا مرتبكة قليلًا.

- يا دميانة إنك ترين بولس قويًّا جبارًا، لكنه في الحقيقة خائفٌ ترتعد فرائصه من الخوف، أنت لا تعرفين كم هو خائف من راهبة ضعيفة مثلي قادمة تحمل السلام والمحبة للجميع، الحب يا عزيزتي يولد القوة والظلم يولد الخوف.

إنها تملك أسرار القلوب وترى ما لا يراه الناس، وتفسر ما أعجز عن تفسيره، سَقَتْني بكلماتها رشفاتٍ من نبع القوة واليقين، جعلتني أشعر وأنا في الطرقة الموصله لجناح أبونا بولس بقوة كافية لمجادلته وأن أتحداه إن لزم الأمر.

❋❋❋

- اسمعي يا دميانة.

أبونا بولس يتحدث بلين غير معهود فيه يا للعجب ونبرة صوته تحمل رسائل كثيرة أهمها أنه خائف.

- كنت أصلي طوال البارحة، حتى ألهمني الرب أن تلك المرأة زانية وأن طفلها ابن زنا، وقد أرسلت للحاج خالد الجارحي عمدة البلد أستشيره، فقال لا بد أن يحاكموا على تلك الجريمة، زنا المرأة القبطية برجل مسلم لا عقوبة له عندي سوى الموت، لتكون عبرة لكل من تسول لها نفسها أن تتبع شهواتها.

لا أصدق حقًّا أن ذلك الذي أمامي هو أبونا بولس، ذلك الجبار، إنه يكذب وهو يعرف جيدًا أنه يكذب، نظراته تبحث عن مكان تختبئ فيه من عيني، مرة عند الزهرية النحاسية فوق الخوان الأبنوسي ومرة خلف المكتبة التي تحمل كتب اللاهوت ومرة تريد الهرب من خلال النافذة المشرعة، تحاول الاختباء خلف كل شيء بالغرفة عدا صورة أمنا مريم العذراء، حتى السلسة التي تحمل الصليب تفضحه، فهي ترتعش بصورة ملحوظة تجعل الصليب المتدلي يتأرجح بعنف، لأول مرة أشعر أنه ضئيل وضعيف إلى هذا الحد.

- سيدي كيف علمت أنها زانية، وكيف ينجبان طفل والرحلة كلها لم تتخط ثلاثة أشهر؟

برقت عينيه تحاول قذفي بالشرر، وردّ بحِدّة:

- حذار أن تجادليني في أمرها وإلا نالك سوء العذاب، أنا مطلع على الحق بنور الرب، أنا راهب متعبد في الدير من قبل ولادتك بسنوات ولا أنطق إلا بما يلقيه يسوع في فمي من الحق.

– سيدي أختنا ميريت ليست بزانية ولا سلطان للشيطان عليها ولا سبيل للخطيئة إليها، إنما الأمر هو أمر الأمانة التي تحملها بالصندوق...

هنا سكت لحظة ثم قال:

– هل تعرفين ما الأمانة التي بالصندوق؟

أقسمت له أني لا أعلم شيئًا عنها، وأن ميريت تصر على أن تجعله سرها وحدها، قاطعني وكشر عن أنيابة فعلا صوته وتجهم وجهه.

– ما أدراك إنها تقول الصدق يا أيتها الحمقاء؟ إن ردَّدتِ ذلك الكلام مرة أخرى سيكون مصيرك كمصيرها، اذهبي من أمامي وكوني متأهبة لأوامري.

كان كالطفل عندما يحدث ضجيجًا ليلفت الأنظار لشيء آخر غير الذي أفسده ويخشى افتضاحه.

جريت متخبطة مرتعشة الساقين، خائفة حد الذعر، خفت على ميريت وعلى نفسي، نحن على وشك ارتكاب جريمة شنعاء في حق سيدة عذراء لم يمسسها مخلوق، كابدت الصعاب ولاقت الويلات من أجل توصيل الأمانة.

منذ رجعت إليها وهي جالسة على فرشتها تنظر إلى أيقونة العذراء، ضامة كفيها إلى صدرها وتصلي في خشوع، رأيت تلك الهالة النورانية تحيط بها، إنها هالة القديسين، أحضرت لها الطعام والماء البارد، وحاولتُ أن أتحاشى النظر إليها، كي لا تلمح العبرات الملتاعة بعيني، قالت لي قبل أن أمد الإناء إليها.

– لقد نذرت إلى الله الصوم حتى تصل رسالتي للناس أجمعين.

ذرفتُ الدمع كمدًا عليها، ما أقساه ذلك الأمر وما أبشع ذلك الوجه لأبونا بولس، سيقتل إنسانة بريئة ويحمّل الدير خطيئة جديدة، من سينفذ الحكم عليها؟

– أختي العزيزة دميانة أراك مهمومة!

– حبيبتي ميريت إني أخاف عليك من بطشه إنه شديد رهيب!

– المسيح معي يا عزيزتي ومن كان بصحبته المسيح فالدنيا كلها بسماواتها وأرضها معه، لا تخافي يا حبيبتي!

نظرت الحبيبة لصورة المسيح وأخذت تناجيه:

«ربي وإلهي ومخلصي يسوع المسيح، يا من تجسدْت وشابهتنا في كل شيء ما خلا الخطيئة وحدها، ألهمني أن أقتدي بك في مسيرتي، اسكب فيَّ محبتك ومحبة أبيك الصالح واملأني بروحك القدوس، أظهر لي ذاتك، ثبتني».

ذرفتُ الدمع من أجلها لكني كنت خائفة، خوفًا يشل عقلي عن التفكير ولساني عن النطق بالحق، أنا جبانة، جبانة، عشرون عامًا يا يعقوب وأنا أصلي وأبكي لعل الرب يسامحني!

التفتت لي بعدما شعرت بعذابي وقالت:

– حبيبتي دميانة إن روحي أمانة خالقها، أما الصندوق فهو أمانتي وأنا أوكلك بحملها، أخفيه ثم أوصليه لأخواننا الأقباط بالقرية.

سكتُّ، لا أملك الرفض ولا أقوى على الموافقة، عادت مرة أخرى لصلاتها بعدما وضعت الصندوق بين يدي، ما هذه المحنة التي لا يقوى على حملها سوى القديسين، ليتني مت قبل ذلك اليوم!

***

فكرت كثيرًا، لكن الفكر جعران والوقت شهاب، أردت مساعدة ميريت على الهرب لكن أبونا بولس أحضر نفرًا من فرقته، يحولون دون ما أفكر فيه، وعلمت بأن الحكم بات موشكًا على النفاذ، فأمرني وأربعة منهم بأخذها إلى الكهف وإنهاء الأمر هناك.

- وهل نحن بقتلة يا أبونا؟!

- أنتم تنفذون مشيئة الرب يا دميانة.

حاولت كبت تلك الدموع لكنها أبت إلا النزول، أبونا بولس يحدجني بنظرات كالشرر، ويتبعني بعينيه أينما ذهبت، جلستُ فى الحجرة بجوار ميريت وأخذت أصلي لها لعل المعجزة تحدث، لكن يبدو حتى الآن أن معجزة المسيح تتكرر في صورة تلك الشابة التي تقابل الموت بكل سكينة واطمئنان، سمعتُ صوت الأقدام آتية في الطرقة تحدث طرقًا وأصداء مرعبة، الغلاظ الأربعة وعلى رأسهم أبونا بولس يهّبون علينا كالرياح العاتية، دخل من الباب، أما هم فمكثوا خارجه، وقف فاردًا بنيانه الشاهق، ونحن جلوس، إنه جبار بالفطرة، لا ينهكه مجهود لبث الفزع، أغمض عينيه هنيهة ليبدد صورة القديسة التي تضيء أمامه، رفع ذراعه مشيرًا إلى الباب، قاصدًا أن نخرج لتنفيذ الحكم وأمرنا أن ننزع عنها ملابس الكنيسة زاعمًا أن الثياب الطاهرة لا يجوز أن تدنسها الزانيات، دلفت ميريت العزيزة بخطًى ثابتة، لا يخيفها شيء، فمن هجر الدنيا ومشى في طريق الآلام قاصدًا الرب لا يخيب أمله ولا رجاؤه.

كنت أرتجف وهي هادئة وديعة باسمة، تنظر أمامها كأنما المسيح

واقفٌ مادًّا يديه منتظرًا وصولها، يحفزها على القدوم إليه، قام راهب بربط يديها من عند المعصم بحبل خشن مجدول من ليف النخيل، لم يبد عليها الألم رغم شدة خشونة ذلك الحبل، بل كانت دائمًا مبتسمة -أحبَّ أعداءك- إنها تُسامح من يؤذيها، تحبهم وترفق بهم.

لم أمشِ في هذا الطريق يومًا ولا يسمح لنا، صعدنا ثقالًا نجر أقدامنا، سرنا بحذر بين حافة تنحدر بعنف تنذر بالهلاك والجبل، ظهرت الفجوة السوداء آخر الممر، فأشار الذي أمامنا على اليمين، أنْ ها هو الكهف قد قد ظهر، كلما اقتربَ الكهف كلما زادت رعشتي كأنما الضحية هي أنا، وعندما وصلنا إلى مدخله دخل الأماميّان يستطلعان الأمر حتى لا يكون هناك حيوانات مفترسة تهجم علينا، استلا سيفيهما ودخلا مادّين قنديليهما وتركانا والدنيا كلها مظلمة إلا ميريت، وبعد برهة من الزمن سمعنا النداء من الداخل أنْ هيّا ادخلوا.

أرسل القنديلان أنوارهما إلى عمق الكهف فاصطدم بعظام بشرية، يبدو أنه قد تم تنفيذ أحكام عديدة مسبقة في هذا المكان المرعب، ترى كم إنسانًا قُتِل هنا ظلمًا؟

هَمَّ اثنان منهما بتجريدها من الثياب فأمسكتْ بتلابيبه من فرط الحياء ودمعت عيناها، فطلبتُ منهم أن يولوا ظهورهم لنا وأنا سأقوم بخلعه عنها، أخذتْ تتمتم بالصلاة بخشوعٍ بث الخوف في قلوبهم، لم أستطع إلا أن أترك النحيب يستعطف المنفذيّن، حتى لانت عزيمتهم وقل جمودهم وتعصبهم، قلتُ لهم وقد كان هذا هو الأمل الأخير: اتركوها في الكهف وسُدّوه بالحجارة وهي مربوطة ضعيفة واهنة، فلن نتحمل إثم دمائها ما دمنا أحياء، حاولت كسب مزيدٍ من الوقت

لعل معجزةً تحدث وتأتيها النجاة من الرب، طلبت إليهم أن ينتظروني بالخارج لأتلو بعض الصلوات عليها، كانوا بعضهم ينظر إلى بعض متحيّرين، وكأن هناك قوة ما تحجم بطشهم المعهود، فخرجوا متخبطين.

– حبيبتي لم أملك يومًا ذلك اليقين الذي تملكينه، ولا أعرف حقًّا إن كان المسيح يشعر بك أم لا، أعلم أن ما أتكلم به قد يكون إلحادًا لكني أرى الظلم والألم يتكرران ولا يتدخل الرب لدفعهما.

– دميانة يا حبيبتي إن يسوع يمتحن القلوب، أما هو فلا يُمْتَحن، إنه يملك آلاف الأضعاف من الثواب لما نتحمله من الألم، إنه لا يظلم أبدًا، وما حياتنا في عمر الدنيا إلا كذرة رمل تحملها الريح وتلقيها أينما شاءت، أما الحياة عنده فخالدة، سعادة لا آخر لها ونعيم لا يزول، إني لا أتعذب يا حبيبتي ولم يكن الشهداء يومًا يُعذَّبون إن الأفواه لتصرخ وإن النفس لتنعم بمعية الرب.

– ليتني كنت مكانك يا حبيبتي.

– فلتكن مشيئة الرب يا دميانتي الحبيبة.

احتضنتها بقوة وبكيت كثيرًا، بكت عيناي وبكى قلبي حتى سمعتُ الصخور بالجبل تئن لها، كنت أشعر أني لا أحضن جسدًا إنما هي روح من نور الرب ونفس طيبة جادت بها على الأرض، لكن الأرض جبلت على طرد النقاء.

قام الرجال برص الصخور ويقسمون إن أخرج أحدنا السر لَينتقمُنَّ منه، ويُنكِّلُنَّ به، فلو علم أبونا بولس أنهم لم يقتلوها لأذاقهم سوء العذاب وربما نحرهم جميعًا في هذا الكهف.

نزلت وأنا أحمل الجبل فوق ظهري، ساعدني يا أبانا الذي في السماء، نزلتُ الممر ولا أرى شيئًا إلا الظلام، أظلمت القناديل والدنيا كلها أظلمت، ساعات قليلة مرت وأنا في غيبوبة أحاول طيّ الحياة أو الهرب لمنطقة لا ذاكرة فيها، أفقت منها على طرق في عقلي يقول لي: «قومي.. قومي.. لم تنتهِ القصة بعد»، ولا أعلم يقينًا ماذا سيحدث في الأيام المقبلة، وماذا سيكون مصير الطفل، مؤكد أن أبونا بولس سوف يتخلص منه بأي طريقة، لذلك فأنا لا أملك سوى الهرب بالصندوق والطفل وتنبيه الشاب المسلم قبل أن يشرع العمدة ورجاله في قتله، لذلك قررت أن أرجع للدير وآخذ الصندوق قبل أن يسأل عنه أبونا بولس، وأهرب الليلة وكفانا ما ارتكبناه من آثام.

بالفعل نفذت خطتي وخرجت متسللة فذهبت إلى السيدة المرضعة فأخذت الطفل، ثم عطفت على الحاج أحمد الطيب فشرحت له المؤامرة كلها وطلبت منه أن يساعدنا على الهرب وأن يخفي ابنه فإنه هالكٌ لا محالة، فجهزه بالمال والطعام والثياب ورحلنا جميعًا قبل الفجر بساعتين بقارب أحد الصيادين من عائلته، وكان ذلك الشاب- عليّ- لا يزال هزيلًا وجرحه لم يلتئم تمامًا، مما جعل أمه تبكيه بحرقة حتى كتم الحاج أحمد الطيب فمها بيده حتى لا تلفت انتباه الجيران، تحركنا بحذر حتى لا ترانا عيون الخفر، وصلنا إلى الشاطئ وانطلق قارب الهرب صوب الظلام تاركًا خلفه أضواء القرية لتتضاءل رويدًا حتى اختفت تمامًا فابتلعنا الظلام لساعتين، بدأت بعدها خيوط الضوء تنسج النهار الجديد، جلس أمامي الشاب المسكين مقرفصًا لا يفهم شيئًا مما يحدث، لكنه ماضٍ معي مسلمًا نفسه للمجهول، أما أنا فكنت أعرف وجهتي للدير في مصر القديمة، فلا مكان يحتوي نفسي

المعذبة سوى صومعة أتعبد فيها وأتوب عما اقترفته في حق ميريت، لكن أبونا بولس لم يتركني أعيش في سلام وأرسل إليَّ نفرًا من فرقته لقتلي، تربصوا حتى خرجت من الدير لزيارة إحدى الأخوات النصرانيات لمرضها، فانهالوا علي بالطعنات، نجا جسدي كله من الموت إلا رجلاي، فأصبحتا كما تراهما.

نظر إليَّ عمي نظرةً لم أفهمها، كأنما يريدني أن أستشف شيئًا من كلامها لكني لم أفهمه بعدُ، أكملَتِ السيدةُ وختمت حكايتها:

– لقد رأيت أبونا يوأنس في أيامه الأخيرة هنا بالدير، أرسل إلي بعدما علم أني من قرية الدير وأطلعته بكل ما جرى وحزن من أجلها حزنًا عظيمًا اعتصر قلبه، وصلى من أجلها كثيرًا.

لقد أصبح الأمر واضحًا وضوح الشمس، الأم ميريت التي أنقذتني هي التي ظهرت لي في أحلامي المتعاقبة، قصصت لأمنا دميانة قصة أحلامي بسيدة الكهف فتهلل وجهها وقالت:

– أرأيت يا يعقوب إنها معجزة!

– ولكن إن كانت قد ماتت في الكهف من عشرين سنة فكيف أحررها من قيدها؟

– أن توصل الأمانة التي جاءت بها يا يعقوب، يجب أن يعلم الأقباط بالقرية الحقيقة كاملة، وابحث عن الكهف ليتم دفنها بما يليق بها.

– قد زادت الأمانات في عنقي!

– آه، ولا تنسَ أن لك بالقرية أهلًا أقباطًا، يجب أن تصل رحمك!

نعم وأوصل عقدَيْ شراء الأرض والبيت كما وصّى أبي!

❋ ❋ ❋

(11)

البحيرة

«لتلك المساحة الشاسعة من الماء الممتد للا نهاية»

- خالتي كوثر، كيف حالك يا غالية؟ كم أوحشتني!

دخلتُ من بوابة الحارة، ككتلة سوداء أجرجر ذيل النقاب وأخشى أن يفتضح أمري، الحارة قابلتني بنظرة باهتة وابتسامة حسرة، أي حارة أرجو وقد خلت من الأحبة، يخيم عليها الحزن وسكون يشبه الموت، شعور مرير أن تسير وحيدًا كسيرًا في طرقات ملأتها صخبًا وضجيجًا، لعبًا وحبًا ومرحًا.

- أقسم لكِ إن عبد الرازق بخير وقد سألنا عنه، إنه بخير صدقيني.

تغيرتْ كثيرًا، كانت ثمرة يانعة، تتأرجح في غنج متدلية من غصن مورق بأوراق خضراء ذاهية، غاب عنها تدفق نيل عبد الرازق وزحف إليها الجفاف، فها هي المرأة اللحيمة البيضاء هزل جسدها وشحب لونها، وترهل جلدها في أيام قليلة.

ما زال الدكان مغلقًا ألا ينزل أبي فيفتحه؟ هل أعاقه زحام السوق عن المجيء؟ تكومت الأوراق والأجولة الممزقة أمام باب بيتنا.

- لم أطق البعد عنكِ ليومٍ آخر دون أن أطمئن عليكِ!

شعيرات الدم المحتقنة في عينيها، والدموع المرسلة، والأنف الملتهب، أصبحت هي صفاتها.

- يا ولدي هل هذا بالأمر الهين؟ أن يسجن ولدي ويقتل أبوك -عشرة العمر- وتهرب أنت من بيتك والجند يطاردونك!

المسكينة تذرف الدموع على ابنها الذي لا تعلم عنه شيئًا، لذلك وجب علي أن أبحث عن الخائن طارق الدمنهوري لأنتقم منه، لكن عمي عنتر تصدى لي ونهاني قائلًا: «يا ولدي الانتقام لن يفيد، ربما يعثر عليك الجند فيكون مصيرك كمصير أبيك أو صاحبك».

تقلب وجهي بين الشرفات، لقد جفت قُلة حسناء، أليس في البيت أحد؟ هل هاجروا؟

- لن أرتاح يا خالتي حتى أنتقم من اللعين طارق قبل أن أسافر.

لم يكن عندي حل غير الاستعانة بعمي عنتر لمعرفة كل شيء عنه، ذهب إلى الأزهر وسأل الطلاب والشيوخ، ثم مر على المكاري الذي يحضر له البضائع للدكان وطلب منه أن يتفق مع رجل ليساعدني على السفر والوصول إلى البحيرة.

تحركات شرطة الوالي وتصرفاتها دلت على أنهم موكلون بأكبر عملية قمع لكل من يعترض أو يحتج، سواء كان من أبناء الأزهر أو من عامة الناس، نجح محمد علي خلال أسابيع قليلة فيما فشلت فيه المماليك خلال قرون.

عاد لي العم عنتر وقد اتفق مع الدليل الذي سيرافقني في رحلتي، ثم أخبرني باختفاء الخائن ولا أحد يعرف عنه شيء، وقال إن الشيوخ في الأزهر أصبحوا يشكّون بعضهم في بعض من كثرة الجواسيس الذين زرعهم الوالي بينهم، رحمة الله عليك يا أبي كم حذرتني من ذلك الشيطان الذي فتحت له بيتي وقلبي!

– أنت تعلمين يا خالة أن بقائي الآن في القاهرة مستحيل، فالجند يبحثون عني في كل مكان، أرجوكِ ألا تخافي على عبد الرازق فالوالي ليس بالجنون الذي يجعله يقتل طالبًا أزهريًّا أو يؤذيه، من المؤكد أن احتجازه للترهيب ليس إلا.

– لله الأمر يا ولدي، حسبي الله ونعم الوكيل، احذر يا صغيري فأنا لن أتحمل أن يمسك السوء كما مس أخاك.

عانقتها وتباكينا حتى علا صوتنا، وصَّيتها بأن تبلغ سلامي لحسناء وتطمئنها علي ثم قبلت يديها وودعتها ففجْرُ الرحيل على البزوغ.

***

بزغت الأشعة الأولى لنور الفجر، النهار جميل لولا الهم والألم، النظرات الأخيرة قبل الوداع حزينة جدًا، أود أن أحتضن الجدران والطرقات والدكاكين، أستنشق عبق السحر الممزوج بكل شيء، أفاقني من شرودي الشاب الثلاثيني حسان الجندي القادم من المطرية، قال عنه عمي عنتر إنه شاب شهم قوي اعتاد السفر شمالًا وجنوبًا، وخبير بالسفر للأماكن البعيدة، نظرته الباسمة الواثقة كأنها ساعد قوي أستطيع أن أتكئ عليه، تعطيني وعدًا بالوصول والنجاة، أعجبت بتلك النظرة الحادة التي تظهر قوته وشدة عزيمته، عندما

تكون الرحلة بصحبة هذا الوجه فإن الصعب يهون، قال لي إنه سافر لأماكن كثيرة شمالًا وجنوبًا لكنه لم يسمع يومًا بقرية الدير لكنا سنسير على وصف الراهبة وعمي عنتر.

ها قد حان وقت الرحيل، عانقته وقبلت يديه وشكرته على كل ما فعله من أجلي، رغم تلك الغصة التي يشعر بها كلما تلقى مني كلمات الشكر والعرفان، بكينا بكاءً كأنا لن نلتقي مرة أخرى، إلى لقاء لعله قريب يا عمي.

خرجت وحسان نتجه إلى الحصانين المنتظرين في قارعة الطريق، حسان ينظر لي أنْ هيا تعجل، الناس بدؤوا يتحركون في الشوارع، الحوانيت قامت تشرع أبوابها، البائعون وصبيانهم يخرجون البضائع لعرضها في الطريق أمامها.

- ألا نمر على الجمالية قبل السفر، فلي حبيبة أود أن أودعها؟

لم يرد عليّ أو يجادلني، فقط ابتسم، فهو يعلم يقينًا أني لست جادًّا فيما أقول، وأن ما أقوله مجرد سكرة من سكرات الرحيل، فقط ساعدني على امتطاء فرسي الأسود اللامع، أما هو فقفز كالبهلوان على فرسه الأصهب، ولا يزال يرسم على شفتيه بسمة الواثق المتمكن.

- الرحلة طويلة وشاقة، دعواتك يا شيخ يعقوب.

سحبت رسن حصاني وانطلقنا، شعرت بدوار غريب، الروح تتسرب من بين ضلوعي، القاهرة تنسحب من دمي، إني أنزفها، أنزف الذكريات الجميلة والمؤلمة، أنزف الحب والصداقة، أنزف الضحكات الحلوة، حسان ينظر لي غير مبال بتلك الحمى التي تنتاب قلبي فيقول لي مؤكدًا إنه يفهم سبب معاناتي بصورة خاطئة.

- لا تخشَ، فلي طرقي الخاصة التي ستساعدنا فى الوصول إلى الهدف، أقصر الطرق وأسرع وقت بإذن الله.

ابتسم وغمز بعينه، يريد السيطرة على خوف ليس بي، فجاوبته بابتسامة حسرة:

- كفى يا صديقي وانظر أمامك، فأنا لا أريد كشف عورات الروح.

انطلق الشاب الرفيع الطويل، لولم يكن يجرّ عليلًا مثلي لسبق الريح، جسده صلب مرصع بفصوص من العضلات المستطيلة، جسده كالرمح، تحسبه خلق لينطلق، أما بشرته القمحية اللون فتزداد بريقًا وجمالًا إذا تلقت أشعة الشمس.

انطلق الفرسان مخلفين وراءهما القاهرة، تتراجع تنكمش وتنزوي تبحث عن ركن لها في الذاكرة، خلال ساعات تلك الرحلة كنت أحاول التخلص من الصور العالقة بعيني وعقلي، تطارني أينما نظرت، هناك بين صفحات النيل وجبل المقطم تجري حسناء وتلوّح لي، وهناك عند ذلك الغيط يجلس عبد الرازق وأمه يربعان أرجلهما ويتناولان إفطارهما، وهناك ناحية الجنوب الغربي حيث تميل الشمس ناحية هرم ميدوم الشامخ، رأيت أبي وعمي عنتر يمشيان بين النخلات الباسقة المستسلمة لمداعبات النسيم، ما زال جلباب أبي ملطخًا بالدماء، أسترجع كل شيء مرغمًا، أسئلة كثيرة أبدؤها بلماذا لكن لا إجابات لها، تعجبت مما يحدث لي حتى خلت بأني أعيش حلمًا طويلًا لا استيقاظ منه، إلى أين أنا ذاهب وأنا أحمل أوزار القاهرة ووالديها، قديمًا كنت أعتقد بأني سأسافر إلى القرية محملًا بالأحلام وطموحات بحياة رغدة بين الأشجار المثمرة والناس الطيبين.

أبطأ حسان سرعته ثم لوح بيده أن توقف، ثم قال:

- نحتاج إلى مكان نبيت فيه.

لم أشعر بالساعات التي مرت، كأني أسير في رحلة البرزخ بين الموت والقيامة، رحلة غريبة حيث لا زمان فيها ولا مكان، لم ينتظر حسان ردي وأردف:

- هناك قرية قريبة على مسافة فرسخ، سنطلب من أهلها أن يضيّفونا.

النساء الريفيات عائدات من البحر يحملن الأواني النحاسية المغسولة والبلاليص والجرار المملوءة بالماء، واحدة تشبه حسناء تراقبني، تبتسم لي، ماذا أصاب حبنا يا غالية؟ كنا صغارًا نجلس متجاورين على مصطبة العم عوض فنلعب بالحصى والرمال، ولم أحسب أبدًا أن يأتي اليوم الذي أفارقك فيه.

في مضيفة واسعة مستطيلة بها عشر كنبات تابعة لعمدة قرية الصمدية بتنا ليلتنا، أرسل لنا أحد الخفر بطعام ثم أعقبه القهوة والفاكهة وختامًا ألحفة نظيفة لنتدثر بها، أُغلق الباب وكل النوافذ إلا واحدة، سمحت لضوء القمر بالتسلل، وبعد ربع ساعة قمت من الكنبة التي أنام عليها وانتقلت لتلك المواجهة للنافذة، القمر مكتمل ولا يمكن أن أفوّته.

- يعقوب.

سمعت ذلك الصدى لصوت أبي، أطلت النظر إلى القمر وتلك الطيور التي تجدف في عينه، حتى أطل أبي من خلف النافذة من مسافة قريبة، نظر لي بعين ساكنة وقسمات مشبعة بالرضى، كم كنت عظيمًا يا أبي،

لا أصدق أني لن أراك مرة أخرى يا أغلى الناس، حقًّا أنت كما قال عمي عنتر لا يعلم قدرك إلا الله، ربيت طفلًا ليس من ظهرك، وهربت من بلدك وأنت مريض بسبب جريمة لم ترتكبها، وتحملت مشقة تربيتي وكنت تدخر لي المال، كنت أستهزئ بك وبرأيك في كل أمر، وها هو الزمن يريني من قريبٍ كل ما حذرتني منه يتحقق.

صلينا الفجر في مسجد القرية ثم أفطرنا وانطلقنا نستأنف رحلتنا إلى المجهول، الآن أنا راحل لا شيء معي سوى الصندوق النحاسي، وشهادة من الأم دماينة تحمل ختمها تشهد فيها بأني يعقوب بن متى بن بيشوي، تصديقًا لما قالته الأم ميريت، ومعي الصليب العطري وكذلك عقدي الشراء للأرض والبيت يجب أن يرجعا للورثة الحقيقين.

فضّل حسان السفر بمحاذاة بحر النيل حتى نصل إلى هدفنا، وذلك تجنبًا للخطر وغدر الصحراء، الفكرة جاءت صائبة فقد استمتعت بجمال النيل والأراضي الزراعية المزروعة بأشجار الفاكهة والمحاصيل، مررنا على السواقي والترع والمصارف والماشية المربوطة في الأوتاد لترعى من الحشائش، خلال تلك الرحلة استرحنا عدة مرات وفي كل مرة كان يأتي لنا صاحب الدار أو الحقل الذي نستريح بجواره، فيقوم بضيافتنا، ضيافة بسخاء أعتقد أن أحدهم ليقدم لنا كل ما في بيته من طعام لكن هذا حق الضيف أو عابر السبيل.

توقف حسان لمرتين أو ثلاثة يسأل الناس عن الطريق، فسرنا لفرسخين ثم انعطفنا لنأخذ طريقًا آخر وعدَونا بلا توقف حتى وصلنا فجر اليوم التالي للبحيرة.

❋❋❋

تركنا الأراضي الزراعية خلفنا واتجهنا صوب الماء فرحين، مساحة شاسعة من الماء الممتد لا نهاية كانت سنابك الفرسين تترك خلفنا حفر غائرة على الرمال البيضاء الناعمة، شد حسان رسن فرسه وقفز برشاقة من فوق صهوته، ليثبت لي أنه لم يتيبس ظهره من طول الجلوس على الفرس مثلي، توجه صوب مركب ينام على جنبه الأيمن، مزين بخطوط طويلة لامعة ملونة بالأحمر والأزرق والأخضر، تنعكس ألوانها على الرمال التي بدت تحتها كأنها مرآة، تقف على حافتها طيور بيضاء غير عابئة بحركة الصياد وهو يمشط شبكته وينظفها مما علق بها من الصيد، قام حسان باكتراء القارب بثلاثين نصفًا بعد مساومة سريعة مع الرجل لتوصيلي عبر البحيرة لقرية الدير، ولله الحمد إنه يعرفها، دفعنا له الأجر مقدمًا، وتبرع مشكورًا بإطعامنا، أنهى حسان طعامه ونوى الرحيل: «الوداع أيها الحبيب».

شعرت بالوحشة وبأن آخر شيء يربطني بالقاهرة ينفصل عني الآن، تبعته بروحي حتى احتوى المدى الفرسين وراكبهما فتلاشوا، الصياد على حاله يمشط شبكته، ينتظر مني الإشارة بانطلاق رحلتنا، أدرت ظهري وحاولت استلهام روح التفاؤل من هذا الصباح الرائع، سأتفائل وسأبتسم رغم كل ما بي من ألم، سأنظر تجاه البحيرة وسأصعد على المركب، بسم الله مجراها ومرساها.

كانت السحب البيضاء والرمادية تسير منسابة كأنها زبد يطفو على صفحة ماء ناعمة، والطيور تحلق في السماء، يبدو أننا في موسم هجرتها، الصياد نظر في عيني مبتسمًا مستبشرًا وقال:

– الجو اليوم بديع، والرياح تسير بسرعة مناسبة، اللهم اجعلها بشرة خير وفألًا حسنًا.

للبحيرة رائحة عجيبة تبعث السرور في النفس، لم أرَ في حياتي ماء أزرق يمتد حتى يلاقي السماء هكذا، شعور عجيب بالرهبة تملكني، شعور أن تحملني قطعة خشبية وتسير بي وسط هذا العباب اللا نهائي، كانت النسمات تهب على القفطان فتجعله يرفرف كالبيرق، ولولا إعاقة جسدي له لانطلق محلقًا مثل تلك الطيورالبيضاء، ساعدت هذه المداعبات اللطيفة على تهدئة نفسي المضطربة، جعلتني أسترخي وأستنشق منها حتى ارتوت رئتاي وزفرت همومي وأحزاني، تصرفت الطيور المحلقة فوقنا بود بالغ فكانت تهبط لتتراص على حافة القارب حينًا، وتحلق للسماء حينًا، ومنها ما يقف على المجدافين لا تبالي بحوارهما مع الأمواج، إنه مشهد خلاب يأخذ العقل ويريح النفس، بدت في المدى الشواطئ الرملية، وكانت تقابلنا على مسافات متباعدة بعض البيوت المتقاربة حد الالتحام رغم سعة الصحراء حولها، مراكب الصيد الماكثة قبالة تلك الشواطئ ذات ألوان مبهجة فرحة تتمايل على صفحة الماء في غنج، خلفها الشواطئ بيضاء وكذلك البيوت، سرنا بحذاء الشاطئ أحيانًا وأحيانًا كنا نبتعد عنه حتى لا نرى سوى الموج والسماء.

- هذا اليوم جميل مثل وجهك يا مولانا.

تكلم الصياد وأغدق عليَّ بابتسامة حلوة كالسكر، يريد البدء في حديث يسلينا حتى الوصول.

- أخوك يعقوب، اسمي يعقوب لا مولى ولا غيره.

آهٍ لو يعلم هذا الصياد أن اسمي هو يعقوب بن متى بن بيشوي

السرياني، لربما أصابه الجنون، إن كان هذا هو الهم الذي يبكي فإنه قد يضحك الكثيرين، لو كان عبد الرازق معي وعرف ما حدث لصاغ عليه عشرات النكات ولَضَحِكَ حتى تفجّرت الدماء من صدغيه، فمنذ ثلاثة أيام فقط كنت يعقوب علي العطار، واليوم أنا ابن قبطيين ماتا في الصحراء، سبحان الله لو أن والديَّ أحياء حتى الآن لعشت وترعرعت في قرية الدير ولكنتُ ما زلت فلاحًا قبطيًّا معدمًا هناك، كم هي عجيبة تلك الدنيا، والحياة التي نعيشها، كل حدث يحدث فيها يغير خريطة الاحتمالات.

❊ ❊ ❊

(12)

الأرض الموعودة

«وما إن شرعنا في نبش الذكريات، حتى هبت على قسماته ريح القتامة فأظلمت»

لقائي بالأم دميانة حل لي كل الأحجيات الغامضة، لكن ليست الحقيقة دائمًا تريح القلب، يكفيني ما ألقت به في عقلي، كلمات تعكر صفو الخيال وتحيّر البال، تقول إن أبي «عليّ» رفض أن يتركني لها وأخذني عنوة، وإنه خان الأمانة إذ جعلني مسلمًا وأن ما بني على باطل فهو باطل، هل حديثها صحيح؟! يبدو أن من يستحوذ هو من يملك حق تقرير الديانة ليصبح الطفل مؤمنًا من وجهة نظر ناس، وكافرًا من وجهة نظر آخرين، وأبي يعتقد يقينًا أنه سيشاركني حسناتي فهو من جعلني مسلمًا.

أفاقني الصياد من شرودي عندما أشار إلى جبل بعيد يظهر كشريط أصفر رفيع قال لي: إنا موشكون على الوصول، كلما كنا نقترب تظهر البيوت الملونة البديعة تزين سفحه، لا أنكر أن خوفي كان يزداد

ونبضات قلبي تعلو، لا أصدق أن تلك اللحظة التي طالما حلمت بها منذ طفولتي.

البيوت كما وصفها أبي تمامًا، ولن أكون مبالغًا إن قلت إن الواقع أكثر جمالًا وإبهارًا مما روى، عمائر متعددة الطوابق مبنية بناءً بديعًا، مطلية بألوان مبهجة ذاهية يسكنها أعيان البلد، تطل شرفاتها ومشرباتها على البحيرة، وأجزاء كثيرة منها مزينة بالقرميد بطريقة غير تلك المعتادة في بيوت وقصور القاهرة، الأسوار تحيط بتلك العمائر وتبرز من فوقها فروع الأشجار والنخيل.

اقتربنا من مرسى القرية الذي يشبه ميناءً صغيرًا، عبارة عن أرض مسطحة واسعة عرضها يتخطى مئة ذراع، أرضها صخرية بيضاء اللون مصقولة ومدرجة بثلاثة مصاطب يحفها صفين من الأشجار على الجانبين، مشهد بديع يأسر الأباب، شعرت بأني داخل على الجنة.

أخبرني أبي أن عائلة الجارحي تسكن القسم الأيمن من القرية المطل على البحيرة، بيوت متراصة مجتمعة في مربع كبير يحيطها سور عالٍ ويوصل بينها من الداخل حارات ضيقة، أما على الجانب الأيسر المطل على البحيرة بيوت السوالمة وبعض التجار الأثرياء الذين نجحوا في أن يضمنوا لأنفسهم مكانًا بين أثرياء القرية.

انتهيت من المرسى، فسميت الله وتوكلت عليه، استشرفت الشارع الرئيسي، شارع واسع طويل يقسم القرية لنصفين عرضه يزيد على الأربعين ذراعًا، نظيف مستوٍ مرصوف الجانبين، مزروع أمام البيوت المطلة عليه أشجار في خط مستقيم لا يعوجّ على امتداد البصر ومهذبة

بعناية، ويظهر في آخره الجبل، حيث الدير يفتح بوابته مطلًّا عليه، البوابة تبدو صغيرة جدًّا ولا تظهر تفاصيلها لبعد المسافة، الشارع خالٍ من البشر، ولم أرَ من الأحياء سوى بعض القطط والكلاب التي تنام بحذاء البيوت في كنف ظل الظهيرة القصير، هل هذه القرية خاوية على عروشها؟ أين الناس؟ لا أعرف وجهتي التي يجب أن أمشي إليها، لا يوجد من أسأله، جلست مكاني لبرهة عاجزًا عن اتخاذ أي قرار، وبعد ربع ساعة، ظهر مكاري يضع جوالًا بنيًّا على ظهر بغل أسمر ضخم، ناديته بصوت معتدل فالسكون الذي يخيم على المكان سيساعد على وصول الصوت بغير عناء، التفت إلي الرجل النحيف الأسمر، يرتدي صديريًّا متسخًا وسروالًا قصيرًا لا يتخطى الركبتين، العرق يسيل من أسفله في خطوط متعرجة بفعل العروق النافرة الشديدة الزرقة، التفت اتجاهي ثم وضع الرسن فوق الجوال وجاء مهرولًا.

- السلام عليكم يا مولانا، حمد لله على سلامتك.

- سلمك الله، قل لي يا أخي أين بيت الحاج أحمد الطيب سالم.

- الحاج أحمد أبو علي؟

- نعم.

- إنه قريب، تعال أوصلك، اركب.

- لماذا لا تأخذ الجوال لصاحبه وتعود لي خفيفًا، حتى لا تثقل على البغل، فهو لن يتحملني والجوال معًا، وربما يغضب صاحبه من التأخير.

- لعنهم الله جميعًا، تعالَ يا مولانا إن لم يحملك البغل أحملك فوق رأسي.

قرّب الرجل بغله وقام بحملي بكل سهولة ورفعني لأستوي فوق الجوال، ثم مسك الرسن فشده ومشينا.

- أين الناس فمنذ وصلت لم أرَ أحد غيرك؟

- أن الحر عظيم يجعل الناس تبقى في منازلها تحاشيًا لضربات الشمس، فالشمس هنا حارقة ضاربة.

ظهر الرجل في الوقت المناسب فقد تسرب إلى نفسي القلق، وزاد من بهجتي ذلك الترحاب الذي قابلني به، بداية موفقة جعلتني أشعر ببعض الاطمئنان والامتنان.

- قل لي يا أخي، كيف حاله؟

- ما بالك برجل عجوز وحيد، ماتت زوجته منذ عشرين عامًا بعدما هرب ابنه من القرية ولم يعد مرة أخرى.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- ومن يرعاه؟

- أولاد أخيه غانم رحمة الله عليه، محمد وعمر وزوجتاهما والبنت سعيدة بنت عمر التي لا تفارقه، يتناوبون على خدمته وإرسال الطعام له بالصباح والمساء.

- بارك الله فيهم.

ما زلنا نمشي خلال الشارع الكبير، بدأ يقل ارتفاع البيوت، ففي أول القرية عدد الطوابق ثلاثة أو أربعة طوابق، أما البيوت التي أسير بمحاذاتها الآن لا تزيد على طابقين، وبدأت تقل علامات الترف، حتى الأشجار أمامها ذابلة مهملة، كلما كنا نتوغل سائرين في عمق الشارع

كانت بوابة الدير تعلو أكثر فأكثر وتزداد ضخامة وفخامة وبهاء، لها من الجانبين عمودان طويلان كالأعمدة الرومانية ربما يرتفعان لمسافة قصبتين يحملان مثلثًا كبيرًا قاعدته توازي سقف البوابة ورأسه يحمل صليبًا عظيمًا.

انعطف بي الرجل شِمالًا فدخلنا شارعًا ضيقًا، أعتقد أنه لا يزيد عرضه عن قصبة واحدة، الشارع من الداخل متسخ، ليس كالشارع الرئيسي، به أطفال حفاة أنصاف عراة يلعبون بالحجارة وبأغصان أشجار جافة، يركبونها كأنها حمير، غير مبالين بروث الماشية الذي يكسو الشارع ولا الدجاج والبط والإوز يبالي بهم، وهناك رائحة لم أستطع تميزها فهي خليط بين روائح الطعام والخبيز والروث، أما النساء فكن يرتدين ملابس مبرقشة باهتة الألوان، كن يضعن شيلانًا سوداء رقيقة على رؤوسهن تُظهر مقدمة الشعر والقروط النحاسية، والرقاب وشيئًا من الصدر، وواحدة منهن تخرج ثديها لإرضاع وليدها ولم تبال بمرورنا، يرمقنني بنظرات تحمل في طياتها الدهشة والتساؤلات، لسان حالهن يقول: من ذلك الغريب؟

– وصلنا يا مولانا، هل ترى ذلك البيت ذا الباب الأزرق هناك على اليمين؟

– نعم.

– إنه بيت الحاج أحمد أبو علي.

الآن فقط شعرت بالوصول وبشدة الخوف أيضًا، فقد يترتب على انفتاح ذلك الباب شيء من اثنين، إما الترحاب وتسهيل باقي المهمة

وإما سوء الاستقبال والتوجس وتصبح مهمتي مهددة بالفشل، البيت من طابق واحد ككل البيوت في هذا الشارع، مبني من الطوب اللبن الذي تظهر فيه عيدان التبن بكثافة، جدرانه متآكلة في مواضع عدة، وتبرز من أعلى جداره عروق خشبية مستديرة تحمل السقف، نخرها السوس، اقتربت نحو الباب وكانت طرقات قلبي تجلجل في صدري حتى كاد يتوقف، فكرت لهنيهة بماذا أفعل الآن هل الناس هنا ينادون أصحاب الدار أم يطرقون الأبواب، شعر المكاري بحيرتي وأنا واقف أمام الباب ساكنًا، فنادَى أصحاب البيت:

- يا عم أحمد.. يا أبا علي.

حتى سمعنا حركة في الداخل وصوت نعل يزحف نحو الباب، ثم توقف خلف الباب مباشرة لينفتح بعدها محدثًا الصرير المعتاد لمثل تلك الأبواب الخشبية الثقيلة، كانت فتاة جميلة يافعة تبدو في الرابعة عشرة من عمرها، واقفة تبتسم، تحمل شبهًا كبيرًا من أبي، العينين البنيتين العميقتين، والحاجبين السميكين الطويلين، لكن الفتاة أكثر بياضًا ووجهها أكثر استدارة وجمالًا، برقت عيناها وهي تتفحصني، مؤكد أنها لم ترَ ذلك الزي من قبل، زادت ابتسامتها محفزة لي كي أتحدث، تلعثم لساني لكني جاهدت نفسي حتى استطعت نطق الكلام.

- هل جدي أحمد الطيب موجود؟

- نعم إنه نائم بالداخل، ماذا أقول له؟

لم أفكر طوال رحلتي فيما أقوله في هذه اللحظة، التفتُّ لأنظر للمكاري لعلي أستمد من دماثته وحسن استقباله الشجاعة لأقول أي شيء،

لكنه كفص الملح ذاب، لم ألمح منه سوى ظله الذي توارى خلف البيت الواقع على ناصية الشارع الكبير، لم ينتظر أن يأخذ أجره، الأمر لله.

– أنا قادم بأمانة من ولدِه علي.

لم أنظر إلى عينيها في أثناء طرح إجابتي، ربما كنت خائفًا من رد فعلها، لكني لمحت بطرف عيني من خلال الباب غرفة تطل على الردهة فيها رجل عجوز يقوم من رقدته منتفضًا، نزل من على سريره وجاء مهرولًا، تهلل وجهه فرحًا مشتاقًا لمعرفة أخبار ولده الغائب، كنت قد نويت أن أخبره الحقيقة، لكني قررت في آخر لحظة ألا أذكر أمر موته، ربما جاء الدور لأرد شيئًا من جميل ما صنع أبي لي.

بمجرد أن نظرت إلى ملامحه مادت بي الدنيا وتداخلت الأشياء في عيني، الكنبة والأرض المبلطة المرشوشة بالماء والكليم المهترئ، إنه يشبه أبي بل تكاد الصورتان تتطابقان، أفقت بعد برهة والباب موصد والفتاة تقوم بترتيب المكان، وجدي يقف أمامي ينتظر أن أبل ريقه بكلمة عن ابنه الغائب.

– يا جدي، أنا الطفل الذي هرب به ابنك والأم دميانة الراهبة من عشرين عامًا، لقد أوصاني أن أُرجِع لك هذين العقدين، عقد شراء أرض زراعية وعقد شراء بيت ملحق بهما، وهما عائدُ ما كسب من عمله بالتجارة قبل الهرب إلى القاهرة، إنه يرسل إليك السلام كثيرًا، ود لو استطاع المجيء فيقبل يديك ويخدمك ما تبقى من عمره، لكن تجارته تأخذ كل وقته، ويقول لك إنه لم يعد له حاجة بالأرض والبيت فهو لا ينوي الرجوع قريبًا بسبب كثرة مشاغله وأعماله بالقاهرة.

لماذا كنت مرتبكًا إلى هذا الحد، كنت أتحاشى أن تتلاقى عينانا حتى لا يلمح فيهما الكذب، أمسك الرجل العقدين بيد مرتعشة وكاد يسقط مغشيًا عليه، انهمرت الدموع الملتاعة شوقًا، فسألني عنه:

– كيف حاله يا ولدي، اصدقني القول ولا تكذب، لماذا لم يأتِ معك؟ هل به مكروه؟

لم يأتِ بخلَدي أن كذبتي ستفتح علي وابل من الأسئلة ويجب أن أستحضر إجابات كثيرة وربما أسقط في فخ التضارب.

– هو بأفضل حال يا جدي، فهو يملك دكانًا كبيرًا للعطارة بالقاهرة ونعيش حياة رغدة هانئة، لكنه لا يستطيع ترك العمل والمجيء لذلك أرسلني بهذه الأمانة.

ساعة من الزمان وأنا أجيب عن فيض الأسئلة، جاء بعدها رجلان وقوران مهيبان ليوقفا ذلك السيل الجارف من المشاعر والأسئلة مثل: ما شكله الآن؟ هل تزوج؟ لماذا لم يتزوج؟ ربما عشرون سؤالًا وأنا أختلق الأجوبة، كانت البنت قد أبلغتهما، عمّي محمد أطول قليلًا من أخيه وأكثر بدانة رغم أنه الأصغر سنًّا، بشرته بيضاء ووجهه مدورً ذو لغد ممتلئ متهدل، أما عمي عمر فنحيف قمحي اللون ذو وجه مستطيل وأنف كبير، من الصعب على أي غريب أن يعرف أنهما أخوان، ملامح عمي عمر بشوشة وتبين مدى شوقه لمعرفة كل شيء عن أبي فقصصت لهما أمور كثيرة عنه وعن شجاعته وقوته واندفاعه لنصرة الحق، كنت أرى الفخر والسعادة على وجوه الجميع بسيرة البطل المغوار علي العطار، ومقاومته للفرنساوية وتحديه للمماليك،

بالطبع كنت أريد الحفاظ على تلك الصورة العظيمة بمخيلتهم، ساعتان من الكلام المتواصل أعقبهما الغداء القادم من بيت عمي عمر، جلسنا جميعًا نأكل ما عدا سعيدة وقد برزت الطيبة والكرم.

عندما شعرت بأننا اقتربنا من وقت العصر طلبت منهم أن يدلوني عن المسجد كي نصلي هناك الصلاة جماعة، فقالوا لي إن المسجد مهدم مهجور ولا أحد يصلي به، فرجوتهم أن يأخذوني إليه.

مشينا نحو الشارع الرئيسي ثم عبرناه متوجهين لشارع آخر بالجهة المقابلة، وما زالت عيون النساء تحمل ذات الدهشة، أخيرًا وصلنا لساحة كبيرة يتوسطها تمثال خشبي شكله غريب وعلى الجانب الأيسر مبنًى قديم متهالك يقولون إنه المسجد، فتحت الباب بمساعدة عميّ حيث السقف المتهدم خلفه يحول دون انفتاحه، أزلت بعض العوائق من العروق المسوسة الساقطة من السقف، وبعضها كان متدليًا على وشك السقوط.

- إن المسجد لن يحتاج إلى مجهود كبير ليصبح صالحًا للصلاة.

ساعة واحدة كانت كافية لتنظيف مساحة قصبتين طولًا وعرضًا، ونقل معظم العفر الذي كان بالأرض ليغطي أبداننا وثيابنا، التفتُّ إليهما فرأيت شبحين غطاهما العفر تمامًا فضحكت لهما وضحكا لي، دعوت لهما أن يجازيهما الله خيرًا فهذا بيت الله وهو الأولى بالنظافة من بيوت العباد، تحركت صوب الباب فوقفت فأذنت، وبعد برهة أقمنا الصلاة وصلينا وحدنا، إنهم لم يعتادوا صوت الأذان، وهناك من الشباب من لم يسمع الأذان من قبل، لعلهم الآن لا يصدقون آذانهم.

كررنا ذات الأمر عندما حانت صلاة المغرب وصلاة العشاء، وبعد العشاء أحضروا الأكل مرة أخرى، فتعشينا وانتهينا، فجلبوا بعضًا من حطب الأشجار وأشعلوا في موقد حديدي صدئ متآكل، ولما هدأت النار وتلألأت جمراتها جلبوا الركوة وشرعوا في عمل القهوة، وخلال كل هذه الساعات كانت العيون العطشى لفيض الحكايات ترمقني، طيبون يصدقون جميع الحكايات والخيالات التي ألقيها على مسامعهم، يضحكون تارة ويندهشون تارة ويلقون بعض الأسئلة الساذجة تارة حتى أمرهما جدي بالرجوع إلى بيتيهما فانصرفا.

❋❋❋

خلا البيت من الناس عدانا، نظر إلي ثم شرد وهو منكفئ على عكازه لحظة صمت تجمد فيها، وطال صمته حتى شعرت بالحيرة، هل مات الرجل ميتة سيدنا سليمان؟ ثم انتابته رجفة مباغتة رجت جسده كمن ضربه زلزال أو صاعقة، اغرورقت عيناه بالدموع، أنَّ مقاومًا ثم انفجر منتحبًا، انزعجتُ كثيرًا ولم أفهم سببًا لبكائه، وكنت أرى الراحة والبسطة في قسمات وجهه في الساعات الفائتة، قمت إليه احتضنه محاولًا تهدئته:

- ما بك يا جدي؟

- متَى مات ولدي؟ اصدُقني القول ولا تكذب علي!

لقد باغتني حقًّا بسؤاله ولم أفهم سبب ذلك التحول الغريب في المسألة، كيف علم بما أواريه؟

- لا تكذب عليَّ يا يعقوب أستحلفك بالله، فأنا رأيت موته جليًّا في حدقتيك.

سكتُ وقد كمّمت الدهشة فمي، هل كل ما بنيته من الخيال انهدم ببساطة أمام فطرته.

- تكلم يا ولدي لا تتعب قلبي!

لا مفر إذًا!

- مات منذ أيام قليلة، قتلته شرطة الوالي.

علا صوت الرجل أكثر بالنحيب، كأنه ودَّ لو أستمرُ في حكي أكاذيبي وإنكاري فأردفت محاولًا تهدئته:

- لقد قُتل وهو يدافع عني ويحول بينهم وبيني، رحمه الله كان رجلًا عظيمًا، أحسن تربيتي والإنفاق علي ومات وهو يذود عني.

أزاح العجوز رغم قسوة الحقيقة ذلك الجبل الجاسم فوق صدري، سيبكي قليلًا ثم يهدأ فهو لم يرَ ابنه منذ عشرين عامًا، إن طول الفراق يميت المشاعر، ترى هل كان هذا الرجل في حاجة إلى الأرض والبيت في مثل هذه السنّ، أم كان من الأفضل له إكمال ما تبقى من عمره على أمل عودة ابنه؟

نمتُ في فرشةٍ نظيفة على الأرض أعدَّتها لي الفتاة بغرفة مجاورة لغرفة جدي، فوق الفرشة ناموسيةٌ تشبه شبك الصيادين مدلاة من أحد عروق السقف، كانت نافذة الغرفة عالية طويلة مشرعة، تظهر من خلالها النجوم المتلألئة وبعض الغيمات اللطيفة التي تبدو كقوارب طافية على صفحة ماء، لم أشعر بالرغبة في النوم رغم أني لم أنم منذ البارحة علاوة على المجهود المضني الذي بذلته في السفر، كنت منتبهًا لروعة تلك السماء، في حين هجمت علي فيوض منعشة من النسمات،

نضحت برفق زخات النعاس في عيني، فاستسلمت لها متغاضيًا عن صفير الصراصير ونقيق الضفادع ولسعات البعوض الذي تسلل من ثغرة ما لداخل الناموسية، غططْتُ في نوم عميق طويل فلم أشعر بشيء ولم يوقظني سوى بقعة الضوء التي سلطتها على وجهي أشاعة شمس الظهيرة النافذة من ثقب في السقف.

عندما فتحت عيني رأيت الفتاة تضع صينية نحاسية على طبلية خشبية مستديرة، سلمت عليَّ بابتسامتها المشرقة الممتعة، كانت النافذة بالردهة مفتوحة خلفها فنفذت من خلال جلبابها فشفت كل ساقيها، لفحني حينها طيف شهوة مباغتة حركت رغباتي الكامنة فذهبت عيني تراقبها وتفتش عن باقي مفاتنها حتى مر الحاج أحمد الطيب من أمام الباب يتكئ على عكازه ويمشي بصعوبة من أثر الخشونة في ركبتيه، ويتمتم بالاستغفار فأفقت من غفلتي واستغفرت الله وغضضت البصر، فقمت مسرعًا أحاول مساعدته على المشي.

- كيف كانت ليلتك يا ولدي؟

- الحمد لله نمت جيدًا.

- الحمد لله.

جاء الفطور فأكلت حتى امتلأت معدتي، ثم صليت ما فاتني من الصبح وصليت مع جدي الظهر، وقبل وقت العصر سألته عن أمر ركبتيه.

- إنهما تؤلمانني منذ أكثر من سنتين، ويزداد ألمي إذا ضغطت عليهما أو بعد قيامي من النوم.

كانت متورمة إلى حدٍّ ما وأسمع صوت احتكاك داخل المفصل أثناء تحريكه.

- ألم ترَ حكيمًا أو عطارًا يسعفك بدواء أو وصفة من الأعشاب؟

ضحك متحسرًا وقال:

- يا ولدي أقرب عطار في قرية بعيدة في الجانب الآخر من البحيرة.

- أنا أحفظ مئات الوصفات العلاجية من كتاب تذكرة داود عن ظهر قلب ومنها ما ينفع ركبتيك، إن وجدت حبوب الخردل وزيت الزيتون والزنجبيل والشطة سأستطيع أن أساعدك على الشفاء بإذن الله.

- دعك من ركبتي الآن يا ولدي لا أريد أن أتعبك!

مر اليوم كالبارحة وصلينا في المسجد بعدما نظفنا رقعة أوسع وانضمَّ لنا خمسُ رجال متفاوتو الأعمار، بشرة خير من الله، الحمد لله، حاولت بقوةٍ التجويدَ في القراءة والخشوعَ في الصلاة حتى يحب الناس الرجوع لصلاة الجماعة بالمسجد مرة أخرى.

في تلك الساعات القليلة استطعت امتلاك قلوبهم، وكانت سعادة عميّ محمد وعمر بأمر العقدين بالغة، وبسببهما توسما فيّ الأمانة والتقوى، طلبت منهما ما يساعدني في علاج ركبتَي عمِّهما، فقالا إن عندهما ما أريد ما عدا حبوب الخردل، وبعد العشاء خلا البيت إلا مني وجدي كما حدث بالبارحة، فدار الحديث الذي أكمل لي الصورة المشوشة وأماط اللثام عن أوجاع الماضي، بدأ الحديث مستكينًا رائقًا، ولما شرعنا في نبش الذكريات، هبت على قسماته ريح القتامة وأظلمت، فانقبض الجبين متغضنًا، وقد كان من برهة منبسطًا، ارتسمت عشرات الخطوط المتكسرة من الآلام والتجاعيد، لتحكي عن أيام من العذاب

والأسى، صوته الذي كان منسابًا متهاديًا أصبح يرتعش، ونظرته التي كانت تراقب مقبض العكاز بعدت حتى خرجت من خلال النافذة فنظر شاردًا إلى السماء، تكلم كأنما يشاهد حدثًا يتم توًّا ويصفه لي، استرجع كل ما حدث في الأيام الأخيرة السابقة لرحيل ابنه.

❋ ❋ ❋

عندما عاد علي من الرحلة المشؤومة وجدناه مطعونًا في كتفه من أثر العراك مع العربان، وكان الجرح الغائر قد تلوث والتهب وأخذ يفرز القيح، حرارته مرتفعة، أذكر الآن جيدًا.. بل أرى الآن، حين كنت وأمه نشعل الحطب لنعد العشاء، سمعنا الجلبة خارج الدار فخرجنا مسرعين فإذا هو محمولًا على الأكتاف، عندما رأيته لأول وهلة ظننته ميتًا فقد كان معظم جسمه وثوبه ملطخًا بالدماء، وذراعاه متدليتان تتأرجحان بلا حول ولا قوة، هرول به الناس صوبنا، بعضهم فتح مصراعي الباب موسعًا، ودخل به الباقون، كنت وأمه عاجزين عن الحركة، راعنا المشهد وانفطر قلبينا، فصرختْ بصوت مبحوح ولطمت خديها، هرعنا إلى المسكين فأرقدناه على فرشته، الحمد لله وجدناه يتنفس وينبض لكنه يرتعش من الحمى، قال الناس:

- إنه بخير يا أبا علي لا تقلق.

- الحمد لله.

انفض الناس ما عدا أخي غانم وولداه، ولبثنا قائمين عليه نضع القماش المبلل بالماء البارد على جبهته وباقي جسده نطارد الحمى حتى ذهبت، قمنا بتنظيف جراحه وتطهيرها، ثم كويناها، وأولياه بالرعاية والطعام، مدة تزيد على شهر ونحن نسهر ونتناوب على رعايته، عشرة

أيام هدأت خلالها حرارته وهم الجلد يلتئم، وأكثر من عشرة أخرى حتى بدأ يفيق، حكى لنا بعدها كم الأهوال التي تعرض لها، كنا نسمع منه ولا نصدق أن هناك رحلة قد تعرضت لكل هذا النحس، تحسنت صحته وبدأ يقوى على الحركة بداخل البيت، شهرًا كاملًا مر قبل ذلك اليوم الذي سمعنا فيه الطرق بالباب وقد تخطى الليل منتصفه، الأم دميانة حاملة الطفل، تبكي وتتلفت حولها كمن يطارده مارد من الجن، لم نرَها من قبل، شرحت لنا كل شيء، علمت منها الكارثة المحدقة بنا، فجهزت «عليّ» بالمال والثياب والطعام بما يعينه في رحلته إلى القاهرة وطلبنا من قريب لنا يعمل صيادًا أن يوصلكم إلى البر الآخر من البركة، ولم نسمع بعدها أي خبر عنكم، جاء لنا بالنهار رجال العمدة خالد ابن الجارحي، يطلبونه بحجة أن العمدة يريد لقاءه، فسألتهم لأي شيء يطلبه، فقالوا: لا نعلم لكن اطمئن خيرًا إن شاء الله، وعندما أخبرتهم بأمر سفره ثاروا كالمجانين، فهددوا وتوعدوا معتقدين أنّا نخبئه، وفي مساء ذات اليوم جاء العمدة في رهط من رجاله يريد أرهابنا، فحدثني حديثَ سوء:

– أحمد يا ابن السوالمة.. ابنك زنى براهبة قبطية ووجب عليه الحد!

– يا عمدة، أصلح الله حالك وبالك، كيف يزني بها وينجب في شهرين أو ثلاثة؟

فصرخ فيّ كالمجنون وتكلم بغضب وغل:

– أنت رجل غبي تخّرف، الراهبة اعترفت بجريمتها وقد نفذ فيها أبونا بولس حكمه، وهربُ ابنك دليلٌ كبير على ارتكابه للجريمة.

لم يدع لي مجالًا لأجادله وأخذ يسب ويلعن حتى قدم غانم وابناه وكادوا يشتبكون معه لكني أنهيت العراك، يكفينا ما خسرنا بغير ذنب:

- يا عمدة إن عليّ شاب غير متزوج وإن زنى فله الجلد.

- وإن كان بفعلته ستقوم حربًا تحرق البلد وما عليه؟ لا بد من وأد الفتنة قبل أن تلتهم نارها الجميع ويكون عبرة لمن يعتبر.

- على أيةِ حال لقد رحل تاركًا لكم البلد كله وإن كنت تريد أن تقيم الحد، فاذهب وابحث عنه وافعل به ما تشاء.

فرد الرجل بقسوة وغرور.

- لن أتركه يفلت بفعلته الخبيثة، هل تظنون أن القرية بلا حاكم يمسك بلجامها يا أوباش؟

هَمَّ الرجل يخرج ثم استدار وألقى جملته الأخيرة:

- إن رجع للقرية تسلمه لنا فورًا، مفهوم؟

- مفهوم يا عمدة!

لم تحتمل زوجتي المسكينة فراق ابنها الوحيد وأخذت تبكي عليه ليل نهار، وانقطعت عن الطعام والشراب ولزمت الفراش حتى هزل بدنها وتهدمت صحتها وذبلت مثل الوردة أمام أعيننا ولم نملك لمشكلتها حلًّا ولا لمرضها علاجًا، حتى اختارها الله للقائه فتركتني وحيدًا أبكي فراقهما، حتى ألهمني الله الصبر والسلوان، بعدما أكلت المحنة من صحتي وعافيتي، وعجزت عن الخروج للعمل كباقي رجال القرية، وتولى أمري أخي غانم وولداه من بعده، لقد عشنا أيامًا سوداء يا ولدي ولن يهون علي الألم سوى أن أرى في ذلك الجبار ما يستحق.

❋ ❋ ❋

(13)

حضن إبليس

«من أنت كي تعتقد بأنك ستحطم الأصنام أو ربما يفور التنور من أجلك سفينتك؟»

لم أحتج لمجهود كبير لأعلم كم هو مكروه، لن أكون مبالغًا إن قلت إن الأحجار بالشوارع والطوب بالجدران يبغضونه، الذباب والبعوض والماء الذي يشربه يبغضه، كل شبر في أرض القرية يشهد على جرائمه، كم قتل، وكم عذب وجلد، وكم نهب الحقوق، الناس هنا محاصرون بين الجبل القاسي والبحيرة الممتدة في الأفق، لا أحد يستطيع الفكاك من مصيره.

صنع الجارحي هيكلًا خشبيًا سماه «حضن إبليس» فهو يعتبر أن كل من عارضه أو خرج عن طاعته قد لبسه الشيطان، فيعلق عليه كل من لُفِّقَ له الاتهامات، كل من ثار أو اعترض على ظلمه، كل من ضاق به الحال وصب عليه اللعنات والدعوات، فيقوم بمحاكمته محاكمةً ظالمةً لا يحق له فيها أن يدافع عن نفسه، ولن يجرؤ إنسان

على أن يشهد بالحق إن كان في صفِّ الضحية، فيتم جلده وربما يستمر الضرب حتى يهلك، هناك الكثيرون ممن أزهقت أرواحهم من قسوة التعذيب، جميع أهل القرية يكرهونه ويحلمون بالثأر، رجل فظ، وكلما زادت جرائمه زادت فظاظته، لا يجرؤ مخلوق حتى على النظر في عينيه.

لم يملك أهل القرية الدواهي من أسلحة للانتقام غير رميه بالإشاعات واختلاق الحكايات فقالوا إنه مخنث يترهل ثدياه، وأن أبناءه لا يشبهونه، ربما هم من ظهر علوان أو أحد الخفر، أو من عدة أشخاص تناوبوا امتطاء دابته، إنهم يفرغون جام غضبهم بالتشهير به، كلما ضاق بهم الظلم أشاروا إليه في كلامهم بذلك الخنثى حتى بات أمر أنه مخنث حقيقة لا تقبل الجدال، حتى إن الخفر أنفسهم باتوا يظنون به الظنون.

قيل لي إنه لم يكن بهذا الحجم وتلك السمنة وقت هرب أبي، لكن الله كتب عليه النهم في الطعام فأصبح كالبهيم الذي يأكل العليق بالليل والنهار ولا يشبع، حتى أصبح يقارب خمس مئة رطلًا.

أرسل خفيرًا لجدي وأخبره أنه يريدني أن أحضر له، وكنت حينها بالمسجد، وعندما عدت وجدت جدي مهمومًا يكاد يبكي، حكى لي ما حدث وأخبرني بتوجسه:

- إنه رجل شرير غشوم يا ولدي!

جاء عمي عُمَر حاملًا ما طلبته من أعشاب وبحث عن الخردل حتى حصل عليه، فسميت الله وبدأت عملي، نقعت مطحون الخردل في الماء الساخن ثم وضعت على ركبتي جدي.

- سنفعل هذا الأمر كل يوم وكذلك سندهن الركبتين بالشطة الممزوجة بزيت الزيتون حتى تبرأ بإذن الله.

سعيدة تراقبني وتسألني عن مقدار كل منها تريد أن تتعلم كي تساعد جدَّها إذا ما سافرت، ووصَّيتها بالزنجبيل يشربه كل يوم، وفي خلال أيام بسيطة بدأ العجوز يشعر بالراحة ويتكلم أمام كل من يقابله عني وعن قدراتي في العطارة والعلاج حتى جاءت سيدة عجوز تشتكي من إمساكٍ لا تبرأ منه أبدًا فوصيتها بشرب الزنجبيل وملعقة من زيت الخروع تأخذها كل يوم، فتحسنت حالتها بعون من الله فتحدثت عني كما فعل جدي، فتوافد الناس عليَّ، ومنهم من يوقفني بالشارع أو يأتيني بالمسجد، منهم من كان يحضر لي الأعشاب فأصنع له الدواء ومنهم من كان يسمع الطريقة فيعالج نفسه إن استطاع، وطفق عمي محمد وعمر يحضران الأعشاب للناس من البر الثاني ويبيعون لهم بجانب عمل الطاحونة.

مرت أيام عديدة وأنا مشغول بالعلاج ناسيًا هدفي الذي جئت من أجله، ربما رجوت قوة أستمدها من حب الناس إن نجحت في علاجهم، كما نسيت أمر العمدة الذي أرسل في طلبي وظننت أنه كذلك قد نسى، حتى استوقفني أحد الخفر أثناء رجوعي من المسجد:

– إن العمدة قد طلبك سالفًا، اذهب له فهذا أكرم لك من أن يحضرك بطريقته.

لقد جاء سريعًا ما كنت أخشاه، مشيت في الشارع الكبير متجهًا صوب البحيرة حيث بيوت الجوارحة، ثم انعطفت يسارًا بعدما سألت عدة مرات عن بيته، كانت العيون ترمق الذاهب على قدميه لتلك البقعة الدموية في أرض الشر، بيت الجارحي، عندما اقتربت من البيت لاحظت بقع الظلال السوداء المبعثرة تتحرك نحوي، حتى كادت تندمج في، اعترضني أحدهم فسألني، فجاوبت ثم رافقني،

بعد المدخل بقليل رأيت عدة كلاب سوداء راقدة هادئة إلا من لهاثها المتحفز، خبّط الخفير على الباب فسمعنا صوتًا أجش يرد قائلًا: «خش»، فدخلنا. كنت أعرف من أبي أنه بدين، لكني لم أرَ إنسانًا بهذه البدانة من قبل، متجهمًا يجلس على كنبة خشبية، تكاد مؤخرته تحتل نصفها، أمامه نارجيلة نحاسية يشد منها أنفاسًا متقطعة فيلتهب جمرها ويتوهج، يحدجني بعيني ذئب جاحظة إلا أن الجفون تكاد تنغلق من شدة السمنة، الحقيقة أني لم أشعر بالخوف منه رغم ذلك المجهود الكبير الذي بذله لبسط هيبته وإرهابه فكنت أقف لا أبالي بنظراته التي تمشطني من نعلي حتى العمامة، لا يبدو لي ذا مهابة، لم أبعد نظري عن عينيه متحديًا، ولا أملك من قوة للتحدي سوى أني غريب أتحصن بالغموض.

- ما اسمك يا شيخ؟

- يعقوب!

- اسمع يا شيخ أنا أُجل الشيوخ وأوقرهم، ولا أحب أن أهين واحدًا منهم أو أمسه بسوء، إن كنت أتيت ضيفًا فالزم بيت المضيف، وابتعد عن المسجد والناس، فالمسجد أغلقناه منذ سنوات تتخطى عمرك.

- أغلقتموه!

- أنت لا تعرف الفلاحين هنا، إنهم خبثاء ملاعين، يجتمعون ويتحدثون فيما لا يعنيهم، فيشجع بعضهم بعضًا على العصيان والتمرد فقطعنا الألسن وأغلقنا الجامع الذي جر الناس للتهلكة، عُد لأهلك كما أتيت سالمًا.

- هل هكذا تعاملون الضيوف؟

- يا رجل، هذا البلد سريع الفساد، سريع الحماس، سريع النكوص، ارجع عنه تسلم منه.

- لكني لم أرَ من الناس هنا أي سوء.

اعتدل الرجل في جلسته وفتح عينيه من الغيظ، ردّي عليه الكلمة بالكلمة عفرته، زفر دخان النارجيلة ووضع أنبوبها في حجره ثم أردف بجدية مفرطة:

- يا هذا.. هل تملك العين التي ترى القلوب؟

- وهل تملكها أنت؟

- نعم، أنا أنظر بعين الخبرة، إنها كاشفة، جميع سوابقهم مخيبة للآمال، أنا هنا لست مجرد عمدة، أنا بالنسبة لهذه القرية حكيمها، خابز أهلها وعاجنهم، العالمُ بضمائرهم، السابر أغوارهم، اقض حاجتك سريعًا وارجع لبيتك بسلام.

تناول أنبوب النارجيلة مرة أخرى ووضعه في فمه وأشار لي باليسرى أن أخرج، تعجبت من هذا الذي بنى قلعة عالية من الظلم والقهر ليحتمي بها من دعوات ناس مقهورين، ربما دعوة منهم تُقبل ذات يوم، سنوات كثيرة وهو يدعم مملكته الظالمة ومع ذلك يخشى من ضعيفٍ وحيدٍ مثلي.

استدرت للخلف ومشيت خارجًا، فاصطدمت برجل مخيف طويل، عريض المنكبين قوي البنية يقف خلف الباب لم أرَه أثناء دخولي، أسود البشرة، حاد العينين كالصقر وأنفه رفيع أرنبته حادة معقوفة، تغطس في مفرق الشارب المدبب الطرفين كالخنجر، عظمتا

وجنتيه مكورتان مرفوعتان تكادان تغلقان عينيه، يرتدي جلبابًا أسودَ كالحًا، يستند بقبضتيه إلى نبوت غليظ طويل يصل لصدره، ارتعدت فرائصي رعبًا من رؤيته، فسمعت من خلفي العمدة يستأنف الكلام بصوت مختلف، أكثر قوة وصرامة:

– آه لقد نسيت أن أعرفك بـ «ملك العذاب» إن هذا هو علوان، سيكون من الآن ظلك يسجل أعمالك كما الجالسان على كتفيك، ستراه في كل مكان، أمامك، خلفك، عن يمينك، عن شمالك، حتى في أحلامك، ولد بقلب من حديد لا تعرف الرحمة إليه سبيلًا، ما زار واحدًا بالليل إلا قبض روحه، وما زار واحدًا بالنهار إلا سحقه.

خرجت من عنده قاصدًا المسجد ولم أكن لأبالي لتهديده، لولا ذلك الشبح الأسود علوان، وصلت فوجدت في الجامع أكثر من عشرين رجلًا في انتظاري لإقامة صلاة العشاء، وبعد الصلاة جلست وجعلت ظهري إلى القبلة ووجهي لهم، فسلمت عليهم وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم {لا ينال عهدي الظالمين} صدق الله العظيم.

حدقتُ إليهم صامتًا، متأملًا ولسانُ حالي يقول: «كم أخبرني أبي عن تخاذلكم!» أرى في عيونهم شوقًا، ينتظرون الفارس المنقذ، الذي يواجه الوحش وحده ويحاول القضاء عليه {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، الله لا يحارب من أجل قوم متخاذلين إنما يرسل جنوده لمساعدة الشجعان، الظلم هو الوجه الآخر للجبن، فلا ظالم بلا جبناء، لهذا فإن هزيمته تبدأ بهزيمة الخوف بداخل نفوسهم، بنى الناس ذلك التمثال الكبير للوحش المخيف، بنوه بداخلهم رغم أنه مجرد رجل ضعيف ربما لو سقط عليه فأر أو برص لارتعد وعجز عن القيام ليهشه، وما رجاله إلا ثلة يستمدون القوة من الوهم الذي

يعتنقه الناس، لكن من أنت يا يعقوب كي تعتقد أنك ستحطم الأصنام أو ربما يفور التنور من أجلك سفينتك، مضى عصر يؤيد فيه الله الرسل بالمعجزات، حيث كان الناس جهلاء لا يدركون بعد أنهم المعجزة الكبرى التي سجدت من أجلها الملائكة.

أفكر الآن بتروٍّ وأسأل نفسي مِن أجل مَن سأجازف؟ لن أنزل النهر بكلتا قدمي، سأطرق على النفوس وأستبين مَن منهم سيفتح قلبه لنور الحرية وهواء الكرامة، والله إن صرنا خمسين شجاعًا لنهزم العمدة وثلته بإذن الله.

عشرون رجلًا تملأ عيونهم الأسئلة، ويعتقدون واهمين أني البطل الشعبي الذي أرسلته السماء ليحارب بالنيابة عنهم، لا يعلمون أني قدمت توًّا من عند الطاغية الذي جعل مني خصمًا من قبل أن أفكر في أي شيء، بعض الشباب حاولوا كسر الحواجز واجتياز المسافات، فتكلموا وسألوا، ليس في شيء بعينه، لكن في أشياء عديدة مختلفة تبدو بعيدة لكنهم بلؤم يستجلون شيئًا ما، يحاولون اختراق صدري واستكشاف ضميري كما أحاول كشف نيتهم، تكلمنا كثيرًا، ساعة أو يزيد، لم نبالِ بالرجل الواقف خارج المسجد يحمل البندقية على كتفه اليسرى.

***

نهرني جدي خوفًا عليَّ من بطش العمدة، ووقف حائلًا دون خروجي، والفجر ينادي، توسل إليَّ، وكاد يقبل يدي كي لا أخرج، حتى أذعنت.

- يا جدي أنا لم آتِ لأشعل نارًا وأقود تمردًا، أنا قادم لأجل مهمة محددة وأرجع بعدها، لكن هذا لا يعني أن أسير بين الناس مكمم

الفم، مطأطئ الرأس، للإنسان حياة واحدة وموتة واحدة ولن أموتها وأنا جبان ترتعد فرائصي من العمدة وزبانيته.

- يا ولدي لا تلقِ بيديك إلى التهلكة، ما من رجل وقف في وجهه إلا أهلكه، هل رأيت علوان؟

- نعم رأيته، ما له؟

- إنه وحش قاسي القلب، كلب مسعور يشرب الدم، يأكل القلب نيئًا، كم من رجل مات خوفًا بين يديه، كن حذرًا يا ولدي أنت أمانة لدينا فلا تعرض نفسك أو تعرضنا للهلاك.

إن جدي حريص على سلامتي كما حرص قديمًا على ابنه، وإني لأجد في عينيه الصدق والمحبة، تُرى هل سيأتي اليوم الذي تنام فيه العيون الطيبة تلتحف بالأمان وتستقبل الفجر الجديد بكرامة وكبرياء.

- جدي إني أحمل أمانةً، ووجب علي إيصالها لأصحابها وقد تأخرت كثيرًا.

سألني عنها فقصصت عليه قصة الصندوق وإن لي جدًّا يدعى بيشوي، يجب أن أذهب لزيارته وأسلمه الأمانة.

ارتديت ثيابي وحملت الصندوق بين يدي وتوكلت على الله، طلب جدي من سعيدة أن توصلني، مشت أمامي بخطوات سريعة تكنس الأرض بنعلها ويختفي جسدها النحيل في جلبابها الفضفاض القصير الذي يبين عرقوبين حادين مشدودين وكعبين متحجرين، التفتت لي وقالت:

- إنه قريب جدًّا، لكنه في الناحية الأخرى من الشارع الكبير.

وبالفعل عبرنا الشارع ودخلنا في آخر ضيق يتفرع منه في الناحية المقابلة، ثم انعطفنا يمينًا لحارة أكثر ضيقًا كل بيوتها ترسم الصليب أو تجعله بارزًا من الجص في الجدران أو محفورًا في الأبواب، وصلنا إلى بيت متواضع يحمل سمات الفقر والخلو من مظاهر الزينة والترف، منحوت على بابه الخشبي صليب طوله ذراعان وعرضه ذراع، مطلي باللون الأحمر، طرقت سعيدة الباب ووقفت بجانبي تختلس النظرات إلي، كنت أبادلها النظرات وأبتسم محاولًا تبديد القلق الذي يعتريني، ولا أنكر أن من أسباب قلقي وتلفتي أثناء الطريق خشية أن يظهر علوان كما قال العمدة، يبدو أنه كان يبث في نفسي الرعب ويستهزئ بي.

فتحت الباب سيدة أربعينية، تلقت هجمة الشمس الحادة بعينين مغمضتين قليلًا، رفعت ذراعها وحالت بكفها بين الشمس وعينيها ولما فتحتهما تدريجيًّا ظهرتا بُنيّتين كالعسل الأسود، لمع شعرها البني عاكسًا الأشعة الذهبية وبرز من خلاله شعرات متعرجة كخيوط من الفضة، لمحت سريعًا الجلباب الواسع الصدر الذي كشف عن رقبتها وحتى مفرق نهديها المكتنزين، الجلباب قصير الكمين يبين ذراعين بضتين ينمو فيهما زغب لامع خفيف متفرق، عيناها واسعتان كحيلتان، جبهتها عريضة وأنفها دقيق طويل بعض الشيء، شفتاها مرسومة بعناية، كقلب مسحوب الجانبين، ذقنها مدبب يشعرك بأنه لطفلة صغيرة، علمت فيما بعد أنها عمتي تريزا، بدت على ملامحها الدهشة ولسان حالها يقول: «عجبًا لهذا الرجل الغريب الذي يحملق بي!» انتبهت لحالي متأخرًا مما زاد عليَّ الأمر صعوبة وارتباكًا، فسألتها عن جدي بيشوي فردت ببسمة فاترة عبرت فيها عن استيائها:

- بالداخل.

- هل أستطيع أن أتحدث معه؟

أدخلتني وأجلستني، ردهة البيت واسعة مستطيلة بها ثلاث كنبات مفروش عليها بسط، جلستُ على التي في يمين المدخل، فرأيت طفلين يلعبان، البنت هي الكبرى تبدو ما بين الثامنة والتاسعة من عمرها، والصبي يبدو أقل من أربع سنوات، الطفلان ومجموعة من الدجاج والإوز والبط تلعب معًا في أنحاء البيت غير عابئة بالرجل الغريب، البنت ترمقني من حين إلى آخر وتبتسم كلما تلاقت نظراتنا، قطع شرودي وتأملي لتفاصيل المكان صوت رخيم يعانق الفؤاد:

- مرحبًا يا ولدي.

صافحني بيد معروقة مرتعشة كثيفة الشعر، وبسمته رقيقة تكاد تلثمني، جلس بجانبي الستيني ذو اللحية البيضاء الطويلة التي تصل إلى ما بين صدره وسرته:

- نوّرتنا.

- أهلًا جدي.

لم يتوقف عند اللفظة، ولم تبدُ عليه الدهشة فهو يعتقد بأني أقولها إكبارًا له.

- يبدو أنك رجل دين ألست كذلك؟

- بلى، أنا بالفعل شيخ أزهري لكني لست هنا واعظًا.

ظهرت الدهشة التي زودت حدة الغضون حول عينيه ولا شك أنه توجس أيضًا، لكني رغبت ألا أطيل أمد التعارف وألا أترك مرتعًا للوساوس:

- أنا يعقوب حفيدك لابنك متّى.

وقف الرجل المسكين يرتعش ساكتًا كخيال المآتة إذ تلعب به الريح لا ينبس بكلمة، وخرجت عمتي تريزا التي تبين أنها كانت تسترق السمع.

- كيف هذا يا ولدي؟

فأخرجت الصليب الخشبي والشهادة المختومة من الأم دميانة

- تفضل يا جدي لعل هذه الأشياء تشرح لك ما قد يلتبس.

أمسك بالصليب بيد مرتعشة فاحتضنه بكفيه ثم رفعه إلى أنفه وقد زادت الرعشة وهو يستنشق ويعب من عبيره، لم يحتج لوقت طويل لتتعرف أنفه على رائحة ابنه التي يبثها الصليب، قبّله ودسه في صدره وأخذ يبكي وسط دهشة عمتي والأخرى العجوز البدينة التي وقفت لتشاهد الأمر من بعيد، التي علمت لاحقًا أنها جدتي مريم، بكاء جدي جعل الطفلين يسكتان وينظران لجدهما بنظرات تختلط فيها الشفقة والخوف، اقتربت جدتي وقد جفلت لبكاء زوجها فوقفت أمامي قائلة:

- من هذا يا بيشوي؟

رفع جدي صوته عاليًا وحرك كفيه بإشارات وقال:

- إنه يعقوب بن متى.

كان الصليب كافيًا ليتأكد من صدق كلامي، فقد أخبرني فيما بعد أنه كان هدية من راهب هندي رحّال جاء لزيارة الدير منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ثم أعطاه لأبي قبل أن يسافر للإسكندرية ليحميه من الشياطين وشرور الدنيا.

لا شك أن الدنيا تغيرت كثيرًا في هذا البيت بعد قدومي، بيت احتلته الأحزان سنين طوال، عانقوني جميعًا، عانقوا فيّ الفرحة الغائبة، لقد زُرِعَ حبهم في قلبي زرعًا، وصبوا علي من حنانهم وعطفهم صبًّا، فهم يروننـي ذلك الطفل الذي حُرِم من رعاية الأب وحنان الأم، الطفل الذي يحمل دم وملامح ابنهم الذي أهلكته الصحراء، انقلب البيت رأسًا على عقب إلا مايكل الذي وقف في ركن بعيد يبول على الأرض غير عابئ بنا، ولن أكون مبالغًا إن قلت إن الطيور بالبيت شعرت بفرحتهم، الحمد لله كثيرًا، يكفيني بعد مشقتي وغربتي أن أرى تلك الفرحة وذلك الحنان.

❋❋❋

أحضر لي جلبابًا وأصر على بقائي وعدم المغادرة وكذلك ترجتني عمتي تريزا التي جلست ملتصقة بي، لقد غمروني بحبهم وحنانهم، حب أنساني أني عرفتهم توًّا، إنه حنين الدم للدم، قامت جدتي مريم بمسك إوزة وذبحتها، وقالت وهي تسخن الماء تمهيدًا لانتزاع الريش:

- الولد ضعيف يا حبة عيني!

أتي موعد صلاة الظهر فقمت أستأذنهم أن أذهب إلى المسجد، فوقع الأمر عليهم كوقوع الحجارة على الرؤوس، يبدو أنهم نسوا في غمرة الفرح ردائي وعمامتي، توجست حين رأيت الاستنكار يكسو وجوههم وفكرت لبرهة أن أعود من المسجد إلى بيت جدي أحمد، دخلت أتوضأ وهم على حالهم ذاهلون، فإذ بعمتي تريزا تلحق بي وتحمل عني الكوز وتقول لي:

- دعني أساعدك يا شيخ يعقوب بن متّى.

غمزت بعينها اليمنى وابتسمت حتى ظهرت أسنانها فابتسمتُ وأغمضت عيني ممتنًا لها.

- كيف أصل إلى المسجد؟

- إنه قريب من هنا بعد شارعين خلف البيوت مواجهًا لساحة إبليس..

أصرت أن توصلني، ارتدت جلبابًا طويلًا وعصبت شعرها بشال أسود خفيف وخرجت معي، بعد أن اجتزنا الشارع الأول سمعت صوت يؤذن للصلاة، قلت يا لها من بشرى، وما زاد من فرحتي أني وجدت الشارع الذي أمام المسجد تم كنسه ورشه بالماء حتى يترطب جوه ويهدأ عفره، والأجمل أني وجدت أمام باب المسجد أكثر من ثلاثين زوجًا من المراكيب، اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا، عندما أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم بالأذان للحج، ضمن له أن يأتي الناس من كل فج عميق، دخلت الباب متخطيًا سياجه الخشبي وسط نظرات الترقب والإعجاب.

- ماذا أخرك يا شيخ يعقوب؟

وجوه لم أحفظها بعد لكنها تحتضنني بطيبتها، صليت بهم الظهر وقد لفت انتباهي في أثناء الصلاة أن السقف قد أُصْلِح أغلبه، واختفت بيوت العنكبوت من الأركان، وأن الحوائط نُظفت جيدًا، هؤلاء الناس يشتاقون للمسجد الذي أُهمِل لسنوات طويلة تتخطى عمر بعضهم.

لم ألمح عميَّ في أول دخولي، لكني وجدتها خلفي عندما التفت أحث المصلين:

- استقيموا يرحمكم الله.

فابتسمت وتهللت لهما وهما أيضًا تبسما، انتهت الصلاة والنوافل ولم يتبقَّ سوى الخروج، قمت متجهًا صوب الباب لكن هيهات، همّوا بي يمنعونني ضاحكين.

- أين تذهب يا مولانا نريد أن نستزيد من علمك.

بدأت الأسئلة تنهال علي، يستفتوني في أمور حياتهم، فهناك من سأل عن القروض ومن سأل عن وجوب صلاة الجماعة في المسجد، ومن سأل في الإرث، وبعضهم شكا لي من مرض أو ألم وطلب العلاج، كنت أرد في كل اتجاه وقد نويت ألا أتطرق لأمور السياسة بأي حال وألا أدع لحاذق منهم أن يستدرجني لها، لكن كالعادة بلؤم ودهاء تمكنوا من استدراجي لفوهة البركان:

- ما قول الدين في الساكت عن الحق يا مولانا؟

- هو كالشيطان الأخرس كما قال السلف، وقد قال الله تعالى في كتابه الحكيم بسم الله الرحمن الرحيم: {فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} صدق الله العظيم.

- وما قول الدين في الحاكم الظالم؟

تمهلت في الإجابة لبرهة لأرى العيون المتحفزة تستنطقني، لكن عمي عمر قطع الحديث وطلب منهم تأجيل الأسئلة للصلاة اللاحقة، خرجنا من المسجد وتضاربت خطانا ومقاصدنا، كنت أقصد الذهاب لبيت جدي بيشوي، وهما يقصدان ذهابنا لبيت عمهما، وقفنا في الساحة الواسعة أمام المسجد، أنا موليًا ظهري للمسجد وكانا أمامي ومن خلفهما يقف حضن إبليس الخشبي وحيدًا إلا من غراب يقف

على رأسه، مد ظلًّا قصيرًا صوب الشرق متوجًا بظل الغراب، نُحِت التمثال كهيئة شيطان يلف ذراعيه يحتضن الفراغ.

- ما بك يا يعقوب؟

أفهمتهما أمر جدي بيشوي وبأني سآكل معه اليوم فقد ذبحوا من أجلي إوزة، وسأبيت عندهم فما زالت الأمانة لدي.

- وجدت عائلتك يا يعقوب وستنسانا؟

عمي عمر يسألني آسفًا.

- يا عمي والله لم أجد أطيب منكم، لكن لدي أهدافًا كثيرة ولا أعلم هل سأستطيع تحقيقها أم أن العمدة سيقف حائلًا؟

لم يزالا على حالهما يصران على رجوعي معهما، يجذبانني بالجدال وأنسلت منهما بالحجج، حتى سمعنا جلبة تأتي من بعيد، كلاب تنبح ورجل يصرخ كالنساء، ثم ظهر الجمع جليًّا من بين البيوت المطلة على الساحة، أربعة من الخفر تسحبهم كلاب سوداء مخيفة يتوسطهم شاب نحيل ممزق الثياب، تنبجس الدماء من كل بدنه، يزحف حينًا ويهرول حينًا، ثم ينكب على وجهه من الضرب بالسوط، يمشي خلفهم الرجل الأسود ذو القلب الأسود علوان المسعور، يضرب بالسوط بكل قسوة، الشاب يجري مدفوعًا من علوان والكلاب المحيطة به صوب وسط الساحة حيث «حضن إبليس» خرج الناس من المسجد مذعورين ووقفنا نشاهد ما يحدث كأن على رؤوسنا الطير، اضطرب قلبي بعنف وسيطر علي الهلع، شعرت حينها بقبضتين تمسكان يدي هما قبضتا عميّ، لم أفهم بدقة حكمتها ربما خافا من تهوري وربما يريدان طمئنتي، جرى المسكين يحتمي خلف التمثال الخشبي لكن

الخفر سدوا به الفراغ بين ذراعي أبليس قيدوا يديه من الأمام خلف ظهر إبليس كأنه يحضنه، وأصبح وجهه يطل من كوة في التمثال في موضع الرأس، وقف علوان يحدجني بقسوة يريد أن يطعن شجاعتي ببشاعته، شعرت برهبة لم أعرفها من قبل، كان أهل البلد قد حضروا ليشاهدوا ما سيحدث للرجل المسكين، سمعت نفرًا يقولون:

- هذا عاصم بن حاتم.

يقولون إنه يعمل خادمًا عند العمدة والناس يدّعون أنه يطأ زوجته، تكلم علوان بصوت أجش غليظ كغلظة قلبه، وأشار بسوطه صوب عاصم وقال:

- هذا الكلب خان العمدة وسرق بيته ووجبت عليه عقوبته

رفع ذراعه لأعلى، كأنه يأمر الزمان أن يتوقف، حدجني بنظرة طويلة حسبتها ساعةً وكأنه يقول لي انظر كيف نعاقب، ثم أنزل ذراعه فترك الخفرُ كلابهم.

***

لم أرَ في حياتي مثل هذه القسوة، أبشع ما سمعنا في قسوة العقاب كان عندما أعدموا سليمان الحلبي على الخازوق، لكني لم أشاهد هذا المنظر بعيني، لا شك أن ما رأيته ظهيرة اليوم كان أبشع، لقد هُزم البطل الكامن بداخلي الذي يوسوس لي في أوقات كثيرة كي أدعه يخرج للنور، جميل أن تكون حجرًا ثقيلًا يُلقي في بركة راكدة، فالركود هو الموت، لكن هل أنا قادر على أن أكمل تلك المخاطرة الرهيبة، يبدو أن حركتي الدائمة بين بيت جدي أحمد الطيب والمسجد وقدوم المرضى لي لأعالجهم قد تسببت في جنون العمدة وكلبه المسعور،

وهـذا مـؤشر ضعـف، لكـن نوبـات جنونهـم لا تمـر بهـدوء، فكانـوا كل يـوم أو يومـين يقـودون شـابًّا لحضـن إبليـس ويجلدونـه بحجـة أو بأخـرى وينتقـون أوقـات الصـلاة حتـى أشـهد أفعالهـم، وزادت نوبـات جنونهـا بالفتـك العشـوائي، لذلـك تكلمـت مـع جـدي بيشـوي في أمـر الصنـدوق ولم أبطـئ، وتخليّـت تمامًـا عـن فكـرة أن يكـون لي دور حقيقـي في إثـارة النـاس، فالنـاس دائمًا يحبـون صناعـة البطـل أو الإلـه، أو يريـدون المسـيح الـذي يحمـل أوزارهـم ويمـوت وحيـدًا، هـذا الأمـر ليـس لعبـة، وإن القـادم مـليء بـالآلام والدمـاء، أعلـم جيـدًا أن الرهـان عـلى أولئـك القـوم هـو رهـان خـاسر، إنهـم تعايشـوا مـع الـذل في سـلام مهـين، تلـك مغامـرة لا يعلـم عواقبهـا إلا الله عـز وجـل، كظمـتُ مشـاعر الرغبـة في الانتقـام مـن الجارحـي الـذي شرّد أبي، ومـن القـس بولـس الـذي قتـل الأم ميريـت العـذراء بزعـم أنهـا زانيـة وهـي أطهـر وأنقـى منهـم جميعًـا، كـم تعذبـت مـن تخيـل إحساسـها بعدمـا أغلقـوا عليهـا الكهـف ورجعـوا بقناديلهـم تاركـين لهـا الظلمـة والوحشـة والعـري والجـوع والعطـش، لقـد نجـح ذلـك المسعور أن يُسْـكِتَ الصـوت الغاضـب وتلـك الرغبـة العارمـة في الثـورة عـلى الطاغيـة، أطـل أبي في مخيلتـي مـن جديـد ينهـاني ويحـذرني: «إيـاك يـا يعقـوب أن تستسـلم للشـياطين التـي توسـوس لـك، كل حـال يتغـير إلا حـال قريتنـا... لا يتغـير أبـدًا».

قررت أن أوصل الرسالة قبل أن أذهب للصلاة وأنهي هذا الأمر.

- ما هذا؟

- أمانة كانت غائبة وعادت لأصحابها.

أسـتطيع أن أمـلأ الكتـب بوصـف اختلاجـات جـدي بيشـوي وهـو ينظـر إلى الصنـدوق، لقـد آن الأوان أن يحمـل كل إنسـان أمانتـه.

بعد صلاة العشاء حثَّني المصلون على الحديث بما يلهب مشاعرهم، ذابت صورهم أمامي لتظهر الكلاب السوداء تلتهم عاصم وهم واقفون يمصمصون الشفاه، فقررت أن أرسلهم جميعًا إلى الجحيم وألقيهم في سعيره أبابيل، انجرفت ألبي مطلبهم، فتكلمت وأفصحت وشرحت فبينت حتى سمعت التهليل والتكبير من أكثر من ستين فمًا، يسمعون الخطب وتأخذهم الحماسة حتى أعتقد أنهم سيقومون بعد كل حديث يقلبون الدنيا رأسًا على عقب فيصلحون ما فسد ويقتصون من المفسدين، وما زال أبي علي العطار يطل من بين الجموع فينقر عقلي بكلماته «كل حال بالدنيا يتغير إلا حال قريتنا، لا يتغير أبدًا» وعلوان المسعور يهجم عليَّ بكلابه فيحول أحلامي جواثيم، سأحرضهم وأرحل في الوقت المناسب.

❋ ❋ ❋

(14)

الأمانة

«أبانا الذي في السماوات.. ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء»

عدتُ لأجد رهطًا من الرجال يملؤون الردهة، جميعهم جلوس على الكنب إلا عمتي كانت واقفة ساندةً على الباب بذراعها، وجدتي جالسة على الأرض تضع حبات الفول المبلولة في منقار بطتها في ركن من الردهة، كان جدي يسرد لهم قصة الأم دميانة وما قالته عن الأم ميريت فيقول لهم: يعقوب قال كذا، يعقوب سمع من الأم دميانة كذا، يكرر اسمي كثيرًا يريده أن يصبح مألوفًا لديهم ويصبح وجودي بينهم أمرًا واقعًا، انضممت إليهم لأرى نفس نظرة الحيرة بسبب ردائي، نظرات فاحصة تشوبها الريبة ثم انتبهوا مرة أخرى لحديثه عندما استطرد مكملًا القصة، غضبوا وشتموا وصبوا اللعنات على البابا بولس والدير نفسه والرهبان جميعًا وعلى العمدة ورجاله لاتهامهم امرأة عذراء بالزنا وقتلها ظلمًا، قاطعَه ريمون الأبيض ذو الشعر الأصهب قائلًا:

– ولكن لماذا قتلها أبونا بولس واتهمها بالزنا؟ مؤكد كان عنده دليل على ذلك!

تبادلوا النظرات وبدأت تلعب بعقولهم الظنون، فتكلمتُ وقد وجب علي الكلام حينها

– إن بالصندوق برهانَ براءتها وسر قتلها.

أشار جدي بيده صوب غرفته فهرولت عمتي وأحضرت الصندوق، نظر الجميع إليه وقد بدت عليهم الإثارة، حتى هذه اللحظة أكاد أجزم أن لا أحد يعلم ما بداخله إلا الله، ولا أملك من اليقين سوى ثقتي بالسيدة المقعدة، جدي بيشوي يتوسط عميّ عطا الأعور وشنودة البدين الذي يرتعش جسده بصورة مستمر من دون توقف، له وجه مستدير أبيض ذو لحية طويلة يكاد يتمكن منها المشيب، علمت لاحقًا أنه عالمهم وحكيمهم، وضع الصندوق على فخذيه ثم طفق يفتحه، تمتم بكلمات قليلة بصوت هامس ثم فتح، عندما انفتح لم نجد به شيئًا سوى ورقتين، تناولهما عمي شنودة وتفحصهما وهما يرتعشان بين يديه، ثم قال:

– إنهما رسالتان، واحدة من الأم ميريت والثانية من البابا يوأنس الثامن عشر بابا الإسكندرية.

فقالوا له ابدأ بالأولى، فقرأ الرسالة التي استهلت بالصلاة:

«أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ليأتِ ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض أعطنا خبزنا كفاف يومنا واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نحن نغفر لمن خَطَأَ إلينا ولا تدخلنا في التجارب لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والتسبحة إلى أبد الآبدين.. آمين».

رددوا خلفه كلمة «آمين» ثم استأنف عمي شنودة قراءة الرسالة:

«لما علم أبونا يوأنس من بعض التجار النصارى بحال القرية وحال الأقباط والنصارى فيها، أحس بمرارة وقسوة الظلم الواقع عليكم من البابا بولس وغضب غضبًا عظيمًا وقال: كيف يملك قلة من الرهبان مئات الأفدنة، دير مترع بالنعم، وعامة الأقباط يتضورون جوعًا ويموتون مرضًا؟ كيف يعتقد أولئك الرهبان أن الرب يسمع صلاتهم وبطونهم ممتلئة والناس حولهم جياع؟ وأرسلني مع وفد من الكنيسة ووكلني بنقل الرسالة والجدال فيها، وعندما جلست بين يدي أبونا بولس لمست القسوة في عينيه والغلظة في قلبه، وما أفاد جدالنا إلا أن رماني بالزنا، وما أنا إلا رسولة الكنيسة ورسولة يسوع أحمل الرحمة لنصارى القرية، رسالة تحمل توصيات ترقى لمراتب الأوامر الإلهية، وأنا لا أملك سوى أن أنفذ وصاياه وأوصل رسالته لأهل القرية».

سكت عمي لبرهة وكنا سكوت كأن على رؤسنا الطير، لا يُسمع إلا صوت تنفُّسنا، وضع عمي شنودة الرسالة ولقف الأخرى وشرع يقرأها على عجل:

كانت رسالته أولها دعاء، وأوسطها توبيخ لأبونا بولس، وآخرها يأمره بتوزيع الثمر وإيرادات الدير على فقراء النصارى بقرية الدير بالتساوي، حتى يشبع الجائع ويُكْسَى العاري ويشفى المريض، أصبحت الحقيقة الآن جلية للجميع كضوء الشمس، اربدَّت الوجوه وأصبح الجو مشحونًا بالسخط، كرروا السباب واللعنات واسترجعوا ذكريات الفقر والذل والقهر، ثاروا وأقسموا ألا تهدأ ثورتهم حتى ينفذوا ما جاء بالوصية، كان أكثرَ الناس غضبًا العمُّ بطرس ذو الأنف الطويل المدبب الذي يفصل بين عينين إحداهما حادة كعين الصقر

والأخرى ضامرة مطموسة، وكان أيضًا يكثر الالتفات إليَّ، ما زال وجودي يربكه، وكأني جاسوس زرع بينهم، أما ابنه ريمون والأعمام عطا النجار وشنودة ومرقص ونبيل، فلم يبالوا كثيرًا بوجودي، بل إنهم تحاشوا النظر إلي.

قال عمي شنودة مستطردًا مستعرضًا علمه وهو ينظر إلي موجهًا حديثه:

- إن البابا يوأنس الذي بعث بتلك الرسالة مع ميريت قد مات منذ أحد عشر عامًا تقريبًا، سنة ١٧٩٦ ميلادية، لكن لا تخشَ شيئًا فالرسالة أصبحت محصنة وذات قدسية يكفي أنها تحمل وصية ذلك الأب العظيم الذي جاهد في الدفاع عن الكنيسة ضد الهجمات الغوغائية على الكنائس والأديرة وكذلك وقف ضد رغبة الكنيسة الرومانية لضم كنائس الشرق لها وظل هكذا حتى مات ليخلفه بعد ذلك البابا مرقس الثامن، لذلك فجميع الأقباط والنصارى يحبونه ويجلونه ويأتمرون بأمره وإن رسالةً مختومةً منه كمثل أمر إلهي نزل من السماء، ووصول تلك الرسالة إلى الناس سوف يغير كل شيء، سيقوم الناس ولن يرجعوا حتى تنفذ وصاياه، ولن يتأخر أغلب الرهبان عن تنفيذها بكل محبة ورضا، يجب أن تصل الرسالة لكل قبطي هنا يا يعقوب حتى تهدأ روح القديسة ميريت، وروح أبونا يوأنس، هذا البلد عانى من الظلم سنوات طويلة وحان الوقت لرفع الظلم عنه.

قاطعه جدي قائلًا:

- الناس المساكين يعتقدون بأن الراهب لا يكذب أبدًا.

ثم تكلم عمي بطرس وهو يزفر، وبدت المرارة والرغبة في الانتقام في كلماته:

- الشكر ليسوع أن المشتركين في هذه الجريمة ما زلوا أحياء، ربما ينالون جزاءهم قريبًا.

ظهر التحفز على وجه جدي وموافقته على فكرة الانتقام، لم أكن أتخيل أن ذلك الرجل الوديع يُكِنّ كل هذه الكراهية لأولئك المجرمين، وليست الكراهية فقط ما تحيرني لكنها رغبته في الانتقام، والتي فسرتها لي عمتي تريزا لاحقًا عندما سألتها عن زوجها فقالت لي إن العمدة عذبه وهو مربوط في حضن إبليس حتى مات مصلوبًا.

لكن بعد كل هذا الغضب ألقى ريمون سؤالًا بسيطًا على مسامعهم:

- ماذا علينا أن نفعل الآن؟

كان السؤال مثل طست ماء مثلج ألقي فوق رؤوسهم، سكتوا برهة وترامقوا متبادلين عجزهم، الارتباك جعل عمي عطا يرد بصوت مرتعش يفتقد للثقة والقوة المندفعة التي بدت عليه قبل السؤال:

- سنذهب إلى بولس ونطالبه بتنفيذ الوصية.

ريمون لم يقتنع بذلك الرد فأردف يسدد الطعنات للعقول:

- وما العمل إن رفض؟

- أف يا ريمون لا تسد الأبواب في وجوهنا!

أصابت عقلي صواعق الجنون، أفقدتني توازني وقطّعت أوصال منطقي، كيف خمدت النار التي رأيتها توًّا، لقد شعرت بلهيبها يخرج من فتحات أنوفهم، كانت العيون تطلق الشرر، الجباه تتفصد عرقًا،

تصلبت عضلاتهم متحفزةً للفتك، تشنجت كلماتهم، حتى شعرت أنهم سيقومون لتوّهم يحطمون الأسوار، لكنهم هدؤوا فجأةً دون سابق إنذار وقرروا تأجيل اتخاذ القرارات للقاءٍ لاحق ولم يُسمّوا له أجلًا، شعرت حينها بالألم وبتُّ أتأمل ذلك التمثال المعلق للمسيح، الناس رأوا المسيح -وإن شبّه لهم- وهو يقاد للساحة يحمل صليبًا كالجبل، وصلب أمامهم، يَداه ورجلاه مثبتة بالمسامير، ماذا فعلوا؟ بكوا.. بكوا كثيرًا، ثم خلّوه في النهاية.

انفضَّ الجمع وكل واحد فيهم يحمل في عقله صليب إرداته، أسئلة كثيرة انطلقت كالسهام تصيب العقول، كل منهم ينزف المرارة ويتجرع الهزيمة، حدق فيَّ عمي بطرس بنظرة فاحصة أخيرة قبل أن يترك الباب خلفه.

تبادلت النظرات مع جدي فأطرق رأسه أرضًا محسورًا مهزومًا:

❋❋❋

رقدت أنظر من خلال النافذة، أبحث عن براح لنفسي المختنقة، لا راحة ولا هناء فيكِ أيتها القرية الخانعة، مرت ساعة أو ساعتان وأنا أتقلب ضجرًا، ثم قمت أخيرًا فخرجت من البيت، ناويًا الجلوس أمامه حتى أتعب ويهزمني النوم، فوجدت عمي شنودة ذلك الرجل الذي تحدث عن أفضال الأب يوأنس، جالسًا على عتبة بيته المواجه لبيت جدي بيشوي، ابتسم وأشار لي أن آتي فذهبت له:

- ما بك يا ولدي؟

- لا شيء.

- تبدو متعبًا.

- لا شيء في قريتكم يريح البال.

- بل قل لا شيء في هذه الحياة يريح.

- وما أدراك بما في الحياة خارج هذه القرية؟

- الحياة متعبة للمفكرين في كل مكان يا يعقوب، إنهم مصابون بداء الفكر، وإنه لأقسى الأدواء إيلامًا.

- وفيمَ تفكر أنت؟

- أفكر في الحكمة من خلق الرب لنا، لا أرى إلا أنه خلقنا ليعذبنا.

- بسيطةٌ عندنا الحكمة معروفة: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} صدق الله العظيم.

- ليس الأمر بهذه البساطة يا فتى، لا تأخذني في دوكة.

- لا بل بهذه البساطة، لماذا تريد تعقيد الأمر؟

- قل لي إذًا، إذا كانت الملائكة والجبال والنجوم وكل ذرة خلقت في الكون تعبد الله وتسبح له لماذا خلق الإنسان؟ إن أغلب أهل الأرض يكفرون به غير المشركين والذين يتجرؤون عليه بالقول وفي النهاية سيساقون جميعًا للنار.

- لا أستطيع أن أتدخل في حكمة الله، فأنا أؤمن به وبملائكته ورسله وبالغيب.

- تقولون ساعة تفكر خير من سبعين سنة عبادة.

- نعم.

- إذًا المفكر أفضل من العابد.

- ربما العابد المفكر هو الأفضل.

– العابد المفكر يبحث عن براهين تثبت ما يعتقد به سلفًا، إنه لا يفكر بحرية ولا حيادية، أما المفكر الحر ربما يقوده التفكير للإيمان عن يقين.

– وقد يقوده للإلحاد.

– حقًّا. قد يقوده للإلحاد.

– ولماذا يخاطر الإنسان بالتفكير في شيء قد يقوده للإلحاد؟

– الرب خلق الإنسان مخيرًا، كيف تريد له ألا يسأل؟ كيف تريد له ألا يتفكر؟ وهل هناك فكر من دون أسئلة؟

– إن الله يقول لنا: {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم}.

– إذًا قل لي...

– أرجوك يا عمي كفى لقد أتعبتني! ألا تفكر في الجارحي وأبيكم بولس ذاك والرسالتين.. خير من تلك الأسئلة التي لا طائل منها؟ والله إني لأراك قد ألحدت بالذي خلقك!

سكت برهة ترقرقت خلالها دموعه ثم نزلت تنهمر تبلل لحيته، وزادت رعشة جسمه حتى بدا أنه يرتج وموشك على نوبة صرع ثم تكلم بصوت يملؤه الشجن:

– لا يا ولدي لم أكفر به لكني أعاتبه، أعاتبه وقلبي مملوء بالألم، لماذا يا أبتي؟ لماذا يا يسوع؟ لماذا يا إلهي؟

أخذ يردد عتابه ولم أعرف بعد ما سر العتاب حتى تركني غارقًا في حيرتي ودخل بيته وأغلق الباب خلفه.

***

لقد دوخني الرجل وأنهك عقلي، لم آتِ من أجل هذا، لقد كنت في قمة اليأس ونمت متلحفًا بالقنوط، لكني صبحت متفائلًا من دون سبب معقول، أقول لنفسي إن الأمر ليس بهذا السوء، لا شك أن هناك أشياء تتغير في القرية، الناس أصبحوا يتكلمون علانية في الشوارع عن الظلم ويسبون الظالمين، لم يعودوا يرتجفون كلما مر أمامهم أحد الخفر، لم يعد الحرص والمواربة والكلام بالرموز والإشارة هي الأساليب المتبعة، إن سد الخوف المنيع أصبح يتقشر وتتساقط منه الأحجار، الميت لا يخاف القتل، ويجب أن يعرف الناس بأنهم بالفعل موتى وإن كان الموتى لا يشعرون بمرارة الذل.

– الجنة تتزين للفقراء والمساكين «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات».

يتمتم جدي بيشوي بكلمات طيبة ليصبر نفسه على الهوان، محاولًا نسيان جراحه بالتسامح، نسيان ابنته التي ترملت وحفيديه اللذين تيتما، نسيان تلك الندبة التي تركها كعب بندقية أحد الخفر فوق حاجبها الأيسر لتبدو ملامحها باكية كلما حاولت الابتسام.

نصف الهزيمة يسببه الكبار، العجائز الذين يخافون على مكتسباتهم، وهي في الحقيقة ندف من الفتات، فتات لا تسد الرمق، يقولون سر بجوار الحائط تسلم، فمن يمر بمنتصف الطريق تدهسه سنابك الخيول، هكذا نجح الجلاد على مر السنين في ترسيخ قواعد وهمية، إن الطغاة هم في واقع الأمر رجال مذعورون، يتحصنون بالحرس والسلاح والمتاريس والأسوار العالية والحوائط السميكة، الوحش الرهيب ليس له وجود إلا في خيالنا والمارد صنيعة جبننا، عمدة لا

يقوى على الوقوف ومئة رجل مسلح يقودهم علوان المسعور يحكمون قرية بها عدة آلاف من البشر الساخطين.. الخائفين.

الشباب وحدهم يستطيعون إحداث التغيير، لأنهم فوضويون يتبعون فطرتهم أما الكبار فهم الحكماء، والحكمة هي الخنوع.

أذكر في ذات حديث دار بيني وجدي الطيب، أراد أن يقوم فيه بدور الحكيم، كنا جالسين في الردهة وكان المكان مظلمًا إلا من حفنة ضوء تجاهد الهباب المتراكم لتنفذ من خلال بلورة القنديل، يوجه لي النصيحة، ويقنعني بتلك الحكمة، يطلب مني أن أبتعد عن الشر، سرحت بغير عمد أثناء حديثه في تلك الحشرات الصغيرة التي تحترق في القنديل، ولاحظت ذلك البرْص الذي يلتقط الفراشات النائمة على الحائط هناك.. الحقيقة لم أفهمه أو ربما لم أسمعه، لقد ذكرني بحديث جدي بيشوي «هل تظن يا يعقوب أن المسيح كان يتعذب على الصليب، لا لا لقد كان الصليب هو الذي يتعذب»، أي كلام في أي حديث لا أعلم ماذا يقصدون، لم يخرجني من هذا الشرود المحرج سوى نداء شباب من القرية يريدون الحديث معي وطلبوا مني الخروج، يقودهم عبد الصمد شاب أسمر نحيف ممصوص الوجه، وأكثرهم حماسة ونضجًا وكانت أفكاره محددة وواضحة، يعبر عن أفكاره بقوة، كلماته سريعة ومرتبة كأنها خطبة تدرب عليها جيدًا، اللقاء تم عند الساقية تحت شجرة التوت ليلًا في مكان مكشوف يضمن عدم وجود أي جواسيس، عبد الصمد يصلح أن يكون قائدًا أو زعيمًا، أما عبد الواحد وحسين ووليد فكانوا يرتضون بالوقوف خلفه قليلًا.

هو يتكلم وهم يهزون رؤوسهم بالموافقة، يقول إنه قد حان وقت القصاص من العمدة وكلبه علوان، والقضاء على دولة الجارحي للأبد، الأرض ملك الفلاحون، فهم من زرعوها وأصلحوها وشقوا فيها الترع والمصارف:

- لقد سرق الأغنياء عرقنا وفرضوا علينا الإذعان بالترهيب والإكراه.

- ما الحل في رأيك إذًا؟

كمن يلقي حجرًا في بحيرة ليدرك مدى عمقها.. ألقيت سؤالي، أريد أن أصل لمدى نضج فكرتهم، وقوة عزيمتهم، فأنا لا أريد أن أتجرع سم التخلي في اللحظة الفارقة، يوم تحتدم المواجهة ويصبح الطريق للتراجع مسدودًا.

- يمتنع الفلاحون والصيادون عن العمل حتى يشعر الأغنياء بالخسارة وتبور أراضيهم، وتنفد خزائنهم، ولا يجدون من يأتي لهم بالماء العذب من الترعة الكبيرة.

- ذلك الحل مستحيل فهم أقدر على الصمود منكم فعندهم مخزون من الغلال والماء يكفيهم حتى تموتوا.

- سنستولى على خزائنهم ونحصد زرعهم نحن أولى به منهم.

- هل تريدون أن تبنوا ثورتكم على السرقة والنهب؟

- يا شيخ يعقوب لا أحد يتصرف بنبل مع من ظلمه، كف بكف والبادئ أظلم، إنهم سرقونا وعذبونا وقتلوا منا العشرات بظلم وقسوة.

انحشر حسين في الحديث قائلًا بغيظ بيّن:

– لا استئذان في القصاص، سنباغتهم ونقضي عليهم.

أولئك الشباب هم بذرة الثورة ويجمعون بين الغضب والذكاء، أعتقد أن الحشرات الصغيرة ستتوقف قريبًا عن السقوط في النار، وهنيئًا للبُرص التهام الفراشات النائمة.

***

يبدو أن الرسالة الغاضبة من الأب يوأنس سوف تنام كثيرًا في مخبئها الجديد، فمنذ ذلك اللقاء وأنا لم أرَهم يتحدثون في الأمر ثانية، أكثر من مرة يجتمعون لكنهم لا يتكلمون، يبدو أني أمثل لهم أيقونة الصمت، وكلما رآني عمي شنودة يهلفط بكلام عن مؤامرة إلهية ضد الإنسان، علمت من عمتي إنه حماها وقد أثرت وفاة ابنه الوحيد على سلامة عقله، حينًا يكون أعقل وأحكم أهل القرية فهو أكثرهم علمًا، وحينًا يصبح ساخطًا على الله ويعاتبه كلما هجم عليه الحنين أو خنقته الوحدة، يعتقد بأن الله يتعمد تعذيب البشر بكل الطرق، وأنه لا يشعر بالعدل أو الرحمة، حتى جسده المرتعش لا يرتعش دائمًا.

عدت من صلاة الظهر وجلست على الكنبة بالردهة فجاءني مايكل متلهفًا ضاحكًا فحملته وأجلسته في حجري، وكانت عمتي وجدتي منهمكتين في قطف أوراق الملوخية وإلقاء عيدانها للطيور، قامت عمتي فأحضرت الطبلية والمخرطة وجلست فاردة ساقيها وبدأت في التخريط، كنت أريد سؤالها حول الرسالة ومصيرها لكن مايكل كان يصر على أن ألاعبه، يتشاجر معي كلما انشغلت عنه حتى نهرته أخته سارة قائلة: «لا تضايق ابن خالك يا مايكل، عيب عليك، تأدب».

عمتي تحرك ذراعيها بعنف، كأن بينها وبين الملوخية ثأرًا، عيناها مثبتتان تجاه أسفل الكنبة التي أجلس عليها، حالة من الصمت الكاذب، كل شيء يتكلم لكن من دون أن ينبس، الطيور ومايكل وصوت المخرطة المضطربة وصمت عمتي المشحون بما لا أعلم حتى الآن، هي اليوم غير التي أعرفها، توقفت حركتها بما أشعرني بهدوء وسكينة تغشاها، توقفت تمامًا ثم شردت برهة أخرى ثم باغتتني بنظرة واجمة وقد ظننت للحظة أنها ستعود لتستأنف تخريطها المنفعل لكنها تحدثت بصوت متهدج:

– لقد مات زوجي أمام أعينهم ظلمًا وعدوانًا ولم يهب واحد منهم بالدفاع عنه، أعرفُ ما تفكر فيه يا ولدي، لكن هؤلاء الناس سيخذلونك ويتركوك وحيدًا أمام العاصفة، ستموت وحدك يا حبيبي، لقد سمى الناس زوجي جرجس الحكيم، أخذ من أبيه العلم والحكمة وكان تقيًّا ورعًا فأحبه الجميع، مثلما أحبوك، هل تعرف لماذا قُتِل؟ لأنه كان محبوبًا مسموعًا من النصارى والمسلمين على حد سواء، كان يعمل في صناعة مراكب الصيد، حاذقًا في صنعته، يقول للناس كلامًا كالسحر يؤلف القلوب ويدعو العقول للتفكير والتأمل، وإنها لسلعة نادرة في قرية الدير، ذات يوم كان يتحدث مع ثلة من شباب المسلمين والنصارى فتذكروا أمر المركب الذي صنعه الفلاحون وأحرقه العمدة منذ أكثر من عشرين سنة، إنها حكاية لا تنسى وإن كان أغلب الشباب لم يرَها لصغر سنهم، فأقنعهم أن يصنع لهم قاربًا يكونون شركاء فيه –من يملك قوتَه يملك كرامته– ويتحدون على حمايته، اقتنع الشباب بالفكرة وأقسموا على حمايته بدمائهم، قام يصنع لهم القارب وزيّنه ليكون فريدًا في ألوانه ومتانته، كانت الفرحة تجعل

روحه خفيفة تكاد تلمس السحاب، يهزر ويضحك ويتسامح مع المسيء، كان ذلك القارب عنده كسفينة نوح، ستكسر هيمنة العمدة وتحرر الناس من أسره، وما إن اكتملت الفرحة وتسلم الشباب القارب، وبللوه بماء البحيرة، حتى أطفأ الظلوم فرحتهم وأحرق قلبهم، وقفوا عاجزين خائفين أمام علوان، أما جرجس فهاج كأنه جُن، وفشلنا في كبح جماحه، خرج يأكل الشوارع بقدميه حتى تسمر أمام اللهب، ترامق مع علوان اللعين ثم هجم عليه يضربه، لكن الأخير كالصخر أو أشد صلابة، ضربه وقيده واقتادوه مصفدًا لحضن إبليس وعذبوه أمام الثلة المحبين، لقد مات قبل القتل يا يعقوب، مات حين احترق حلمه أمام عينيه.

فيض جارف من الدموع بلل وجنتيها، وبعض دمعات استقرت على رقبتها، وبدا صوتها مخنوقًا ووجهها مربدًّا.

- ستنظر في أعينهم وقت قيدك في حضن إبليس في الساحة وسترى العيون تنكث والجباه تنخفض حتى المتعاطف معك سيخاف أن يظهر تعاطفه، ستبحث في عيني جدك بيشوي فلن تجد سوى العجز، ستنظر في أعين عميّك فلن تجد سوى الخوف، ستسمع صدى صوت جدك أحمد الطيب يؤنبك ويقول لك: لقد حذرتك يا ولدي مرارًا وتكرارًا.

- لا تنسي أن ترجعي المخرطة لخالتك أم مينا يا تريزا، إن قطها جملًا.

قاطعَنا صوت جدتي التي كانت تكسر الخبز الجاف في حجر جلبابها وتفرط حبات الذرة من الكيزان الجافة، تتكلم ولا تلقي بالًا لأحزان ابنتها، استمرت عمتي تتكلم كأنها لم تسمع شيئًا.

– أتعلم يا يعقوب كم كنت أحب أباك متّى؟ لقد كان عطوفًا كريمًا حنونًا، أكبر مني بخمسِ سنوات، وعاملني كأني ابنته، أنت تشبهه كثيرًا، في الشعر المجعد والعينين البنيتين والوجه الرفيع، وتشبهه أيضًا في حنانه وعطفه وشروده وتأمله في كل شيء، لكم أحبك وأشكر الرب على عودتك، لكني سأقول لك شيئًا وقلبي يتمزق.

سكتت لبرهة شعرت فيها أن الكون كله قد سكت، التفتُّ لجدتي مريم المنهمكة في عملها لا تستطيع أذنيها سماع ذلك الصوت الخفيض، إنها تجلس كالملائكة لا علاقة لها بالبشر، لكني انتبهت مرة أخرى لعمتي لأعرف ماذا تريد أن تقول ويستحق تلك الصمتة التي تنبئ بقول شيء خطير.

– يا ولدي لقد مر عليك أكثر من أربعين يومًا والعمدة يراقبك ويتربص بك وإنه لغادر، ينتظر الوقت المناسب ليستطيع هزيمة أكبر عدد من الحالمين، المؤيدين لك، ارجع إلى القاهرة، عد حيث كنت، وانج بنفسك، كفانا فقدان أبيك وأمك، لن أتحمل فقدك يا حبيبي، ربما تعود بعد سنوات يتغير خلالها الحال.

كم زلزلني حديثها! حديث صادق نابع من قلب ملتاع، وكم أشفقت على عمي شنودة الذي قتل ابنه الوحيد في ريعان شبابه! لكن كيف سأتخلى عن الشباب الذين يبحثون عن اللحظة المناسبة لتحقيق أهدافهم، للتخلص من ذلك الطاغية الذي لا يموت؟ كيف سأترك أحلامي تضيع سدى؟ لا لن أستطيع ولتكن مشيئة الرب. مشيئة الرب؟! أصبحت أتكلم مثلهم!

***

عدت من صلاة العشاء لبيت جدي الطيب نزولًا على رغبته، وبمجرد أن وصلت وجدت سعيدة تنظر لي غاضبة، إنها متغيرة من يوم ذهبت إلى جدي بيشوي ولكن ما يضايقها في ذلك؟

- ما بك يا سعيدة؟

ردت غاضبة بـ«لا شيء» وأشاحت وجهها عني.

- أرجوكِ تكلمي يا بنت لا تتعبيني وإلا شكوتك لجدك!

- تدخل بيت جدك النصراني وتغلق خلفك الباب غير مبالٍ بالتي كانت توصلك؟

- حقًّا؟! اعذريني يا سعيدة، أقسم لك بالله أني لم أقصد شيئًا ربما كان ارتباكي وتفكيري في الأمر سيطرا على تفكيري، سامحيني أرجوكِ.

أشاحت عينيها مرة أخرى وسكتت قليلًا ثم قالت:

- سأسامحك هذه المرة على ألا تعاودها.

- إن قلبك أسود يا بنت، هل أنت غاضبة من يومها؟

- ألا يستحق الأمر؟

طلبت منها بعدما عادت لها بسمتها الجميلة أن تذهب لبيت جدي النصراني ذاك ليعرفوا بأمر بياتي هنا.. تعشيت مع جدي في حين جلست سعيدة تعد القهوة في الركوة صغيرة التي سودتها الأدخنة، أخذت قهوتي وصعدت لأحتسيها فوق سطح الدار، الخريف مر سريعًا، ما أجمل الخريف هنا! رغم أكوام الأوراق الذابلة التي تدفعها الرياح الشمالية، ورغم تخلي أشجار كثيرة عن شالها الأخضر، الجو بارد وقطرات الندى بللت هذه الفرشة من أعواد حطب الذرة وقش الأرز التي ألقيت جسدي عليها، صوت صراصير الحقل والضفادع

الذي يتكرر برتابة عجيبة لم يعد يضايقُني، بل على العكس لقد أصبح يساعدني على الاسترخاء، حتى البومة الوافقة على السطح المقابل ساكنة طيبة لا تزعجني أو تخيفني.

لم يستطع ذلك الجو الرائع تصفيةَ عقلي ونفسي، وما زلت على حيرتي بين الكر والفر، مر علي الوقت هنا وأنا مسلوب الإرادة أعجز عن القيام، أشعر بالخدر في جميع بدني، مرت غيمة أمامي تشبه حسناء، وغيمة تبتسم كعبد الرازق وغيمة تفتح أبوابها تشبه دكاننا، وأخرى كالجبل، أو هو جبل فعلًا، تحرك فوقي بنفس سرعة الغيمات، حتى خيم على السماء كلها، ثم بدا لي الكهف، كهف ميريت القديسة، اقتربت الفجوة السوداء، فتحة الكهف تتسع ويزداد سوادها، الكهف هذه المرة هو الذي يقترب مني لا أنا الذي أسير إليه، سمعت صوتها قادم من السماء، لا لم يكن صوتها لقد كان صدًّا لصوتها إنها تناديني.. يعقوب.. يعقوب، ارتعد قلبي خوفًا هذه المرة، لماذا لم تظهر لي منذ قدمت إلى القرية، ولماذا لم أعد أفكر فيها؟ هل انشغلت عنها؟ هل ارتاح عقلي بعدما فسرت طلاسم الحلم؟ هل هي حزينة بسببي، بسبب التخلي عنها؟ هل رميت الرسالة لجدي ليرتاح ضميري أو هكذا هيأت لنفسي؟

شعرت بخشخشة تحدث قرب قدمي، توجست منها، هل هي لثعبان؟ نعم مؤكد إنه ثعبان سام سوف يلدغني، أردت أن أسحب قدمي لكني كنت محنطًا كمومياوات الفراعين، زادت رجفتي وأخذت أتمتم بالاستغفار وأطلب من الله أن ينجيني: «يا لطيف.. يا لطيف!».

جرى عبد الرازق أمامي، لا إنه يتقافز كالغزلان، لا لا إنه يطير، يعلو ويهبط، إنه يضحك ثم يجلس ثم ينطلق كالسهم فيصيب شيئًا

ثـم يسـحبه، ثـم يعـود يجـري ويتقافـز ويطـير، لا وزن لجسـمه الآن إنـه أخـف مـن بالـون الفرنسيس الفاشـل الـذي سـقط بعـد سـاعة مـن تحليقـه: «عبد الرازق.. يا عبد الرازق».

أناديـه لكنـه لا يسـمعني، يجـري وأنـا مشـلول الجسـد، ينطلـق كالسـهم ويصيـب، إنـه محـدد الهـدف منـذ قديـم الزمـن، يعـرف غايتـه، مسـتعدٌّ دائمًا للتضحيـة مـن أجـل مبادئـه، لم تشـله الحـيرة مثلي، ارتعـش جسـدي بـل انتفـض بعنـف حتـى شـعرت بتكسـر عظامـي، أفشـل في كـسر الأحجـار التـي مـلأت جسـدي فجعلتـه ثقيـلًا صلبًـا كجبـل، ذهـب صديقـي ولم يـرَني وأنـا منـدس في كومـة القـش والحطـب، ثـم نضحـت الريـاح الحـادة بزخـات مـن نبـاح لـكلاب بعيـدة في أذني، ثـم علـت الأصـوات تدريجيًّـا حتـى رأيـت السـوداء ذات الأنيـاب الطاعنـة تقـترب منـي، تريـد أطـرافي والسلاسـل الحديديـة الصدئـة تحـول دون الوصـول إلي، ثـم جـاء رهـط مـن القريـة مهرولـين، بعضهـم ضاحـك وبعضهـم حانـق وأخـذوا يدفعـوني نحـو الـكلاب الكافـرة، صرخـتُ كالنسـاء، نعـم سـمعت صـوتي، كنـت أولـول، ثـم جـاء عبـد الـرازق يجـري صـوبي لينقـذني، فاختفـى الجميـع إلا هـو، فجلـس بجـواري، فقلـت لـه:

– ماذا أصابني يا عبد الرازق هل شللت؟

فقال لي باسمًا وحزينًا:

– عقلك هو المشلول يا صديقي، في حيرة عظيمة بين أمرين.

– أي أمرين قل لي؟

– قل لي يا يعقوب.. هل تدافع عن الناس أم عن الحق؟

***

مرت أيام لا أذكر عددها، أفقت بعدها من غيبوبتي لأجد جدي الطيب وعميّ محمد وعمر وسعيدة يجلسون في جانب، وجدي بيشوي وجدتي مريم وعمتي تريزا وطفلها مايكل يجلسون في الجانب الآخر، أما سارة الجميلة ذات العينين الخضراوين العسليين فكانت فوق جبهتي تبتسم لي:

- أمي أمي لقد صحا يعقوب، فتح عينيه.

سمعت كلمات الشكر والحمد تصدر من جميع الأفواه، كلمات تخالطها الغمغمات، قامت عمتي تريزا وجاءتني مسرعةً، أمسكت يديّ وقبلتهما:

- نحمد الرب على سلامتك يا يعقوب.

ثم علا صوت عمي عمر يقول:

- هل جننت يا يعقوب كيف تنام على السطح في مثل هذا الجو البارد الرطب؟

تكلمت بصعوبة، شعرت بألم شديد في حلقي، كأنما بلعت صخرة حادة الحواف وقد انحشرت في حنجرتي:

- لا أذكر شيئًا يا عمي

فأردف يسرد ما حدث دون التفات لردي:

- كنت أبحث عنك لنذهب معًا للمسجد لنصلي الفجر، سمعت صوتك بالسطح تخرّف بكلمات غير مفهومة فصعدت مسرعًا لأرى جسدك يرتجف وقد غمره الندى، فحملتك على كتفي ونزلت بك السلم، الذي ناء بحملنا فانكسر وسقطنا معًا ولم تشعر بأي بشيء.

قاطعه جدي الطيب:

- الحمد لله لقد كانت حالتك خطيرة.

سردوا لي تفاصيل أربعة أيام كنت أرتجف فيها من الحمى ولا تهبط حرارتي أبدًا، ثم انقلب الحديث بعدها للمرح، أول مرة أرى فيها فرحة حقيقية هنا بالقرية، كم هم جميلون وهم يبتسمون ويضحكون! أما عمتي تريزا فقد كان شأنها شأن آخر، فعيناها تترقرقان بالدموع رغم المجهود المضني لرسم البسمة على شفتيها ووجنتيها الخمريين، إنها تحبني أكثر من الجميع وما زالت على يقينها بأن العمدة يتربص بي، لذلك فهي خائفة رغم فرحتها.

- الناس بالمسجد يسألون عنك كل يوم ويطمئنون على صحتك، وكثير منهم حضر لعيادتك.

عمي محمد يوّصل لي رسالة خفية بأني أصبحت ذا شأن عظيم هنا، اندفعت سعيدة تؤكد المعنى:

- وكذلك النساء اللواتي شفين من وصفاتك العشبية.

ثم أتبعهما جدي بيشوي:

- وجاء لزيارتك أعمامك بطرس وعطا وشنودة أكثر من مرة ليطمئنوا عليك.

لا فرق بين تلك الوجوه والنفوس على الجانبين، الملامح متشابهة، الابتسامة واحدة، خوفهم علي، فرحتهم بي، ما أروع جدتي مريم! تلك البيضاء الممتلئة، تجلس على الكنبة وتتدلى رجليها لا تصل إلى الأرض، تبتسم محلقة في ملكوتها، لا تسمع من الحديث إلا ما علا منه واقترب من أذنيها لكنها تقرأ العيون، وملامح الوجوه، وحركات الشفاة، كم هي طيبة!

لا أعرف ما فاتني في الأيام السابقة وأنا راقد هنا، لكن بعد كلمة عبد الرازق بالرؤية فأنا سوف أدافع عن الحق، يجب أن أساعد الأمور على الاشتعال في الأيام المقبلة فلا أعرف كم من الوقت سيسمح لي علوان بالتمدد بين الناس والتأثير فيهم.

❋ ❋ ❋

أحضرت لي سعيدة طعام الأفطار قمت من فراشي وقد شعرتُ بصحة جيدة، لاحظت أنها متكحلة، عجيب! هذه أول مرة أراها مزوّقة، جميلتان عيناها، تبدو لي ناضجة، كأنها كبرت عدة سنوات، ناولتني الطعام ثم تكلمت مطرقة عينيها للأرض:

- لقد تقدم عبد الصمد لخطبتي.

يبدو أنها قرأت ما يدور بعقلي، لكن كيف يفعلون كل هذا، الحقيقة أني لم أفرح لسماعي هذا الخبر بل انزعجت كثيرًا.

- تفكرون في الخطبة والزواج وأنا أتقلب بين الحياة والموت؟

- لا لم نقم بأي شيء فقد قال جدي لا أريد سماع أي كلام عن الزواج قبل أن يقوم يعقوب من مرقده وتتحسن صحته.

حديثها عن خطبتها حولها لفتاة أخرى غير التي أعرفها، احمر وجهها خجلًا، وانسدلت رموشها كأنها في سِنَة حالمة، قلت في نفسي ذلك اللئيم عبد الصمد بالأمس يتكلم عن ثورة عاتية واليوم يفكر في الحب والزواج؟

- هل تحبينه يا سعيدة؟

- لا تخجلني يا يعقوب!

ابتسمتُ لها وسكتُّ احترامًا لحيائها، لكنها أردفت بعد صمتة قصيرة كأنها لا تطيق الكتمان وتريد أن تبوح بما في قلبها:

– لم أفكر فيه يومًا، لكن بعدما طلبني من أبي شعرت بأني أحبه منذ سنوات!

عبد الصمد رجل بمعنى الكلمة ويُعْتمد عليه، أرجعتني الفتاة لتذكر حسناء ولقاءاتنا الساحرة، ذات نظرات الخجل وحمرة الوجه...

– سيكون الزواج بمنتصف الشهر.

– هل بهذه السرعة؟!

– لا يحتاج الأمر لوقت طويل فنحن نعرفه وهو يعرفنا، ولن يصنع أكثر من طلاء غرفته وشراء سرير نحاسي وكنبتين، أما أنا فلا أحتاج أكثر من بعض الثياب والأواني النحاسية.

– نعم نعم الأمر بسيط حقًّا، مبارك لكما، سيكون يومًا جميلًا بإذن الله.

سعل جدي ثم ناداها من الكنيف يطلبها لتصب له الماء، اختفت الفتاة من أمامي وما زال الخبر يتردد في رأسي، الآن قبل أن أفكر في أي شيء يجب أن أدرك أن الشاب الأكثر حماسة في تلك القرية مقبل على الزواج وسيعرف قلبه طعم الخوف، سيخاف على حياته الجديدة وعلى زوجته.

مرت الساعات وأنا أفكر في كل شيء، أسئلة مهمة لم أجد لها إجابات، هجم الليل علي فحاولت الهرب من خلال بوابة النوم، محاولات يائسة فاشلة وأنا أتقلب على جنبيّ يمينًا وشمالًا، يبدو أن العقل الذي أفاق بعد عدة أيام يشتاق لليقظة، قمت من فرشتي وقد

شعرت بدوخة لكني غالبتها، منذ قليل سمعت حركة جدي أحمد وهو يخبط بالطاسة ويغرف الماء من التسط ويتمضمض ويستنشق، يبدو أنه يستعد لصلاة الفجر، قمت فلحقته فتوضأت وصلينا، وبعد ساعة عاد لفرشته وعاد السكون مرة أخرى للبيت، خرجت أسير إلى حيث توجد شجرة التوت والساقية، تبعتني هرة بيضاء كثيفة الفرو لم أرَها من قبل، كدت أتعثر بها أكثر من مرة وهي تحاول المرور من بين ساقي والتمسح بهما، جلستُ مستندًا إلى جذع الشجرة ونظرت إلى البرسيم النابت من الأرض المبسوطة في الأفق، يعكس ضوء الصباح الذي يتسرب للسماء رويدًا رويدًا، يتمايل مع كل هبة نسيم مندفعة، النور الجديد يغير الأشكال، يجعلها نقية بلا شوائب، يخفي العيوب ويلبس كل شيء في الطبيعة بلباس فضي تتخلله خيوط ذهبية مستمدة من الشمس النابعة من غياهب الشرق، فتطل على الوجود بشيء من وجهها البهي، استنشقت النسمات الباردة، بينما جلست الهرة بين رجليّ، مسحتُ على رأسها ولاعبتها قليلًا، تذكرت حينها القاهرة، كم أوحشتني، بزحامها وأزهرها ومساجدها، وصراعاتها أيضًا، وأوحشني أحباء لي هناك تركتهم وأنا مكره، لا سامح الله الوالي وأعوانه، ترى كيف حالك يا حسناء اليوم؟ وكيف حال خالتي كوثر هل عاد لها ابنها؟ وكيف حال عمي عنتر؟ علّه بخير، سأحرص عندما أعود أن أبشره بأنهم أخبروني أن الرجل الذي كان يسعى للثأر منه قد مات منذ عشر سنوات ولم يعد هناك ما يهدده، ربما حان وقت العودة، اثنان وعشرون عامًا من الهرب، لكن لماذا يعود؟ ومِن أجل مَن؟ هل سيعود ليرى الصورة الجميلة التي يحتفظ بها في ذاكرته قد تشوهت، الأطفال أصبحوا كهولًا كالأشباح، منهكين كادحين،

أصبحت وجوههم تشبه التربة المشققة التي أهلكها العطش، أما الكبار فمات أغلبهم، ومن تبقى منهم مؤكد أنهم نسوه تمامًا، مسكين أنت يا رجل، لقد عشت هاربًا من الوهم وعازفًا عن الزواج مخافة أن تُقتل وتترك أرملة وأطفالًا أيتامًا.

انتبهت الهرة فجأة فقامت على ساقيها الأماميتين ونصبت أذنيها ناظرة نحو اليمين، فنظرتُ كما نظرتْ، لمحتُ من بعيد شبابًا قادمين يتلفتون حولهم، يا بشراي إنهم ريمون وعم عطا وعبد الواحد وحسين ووليد.

- أين أنت يا شيخ أتعبتنا بحثًا عنك؟

- مرحبًا، كم أسعدني تجمعكم لكن أين عبد الصمد؟

- دعك منه لقد كان سهران طوال الليل منهمكًا في دهان غرفة العرس.

- ها خيرًا إن شاء الله، كم أنا سعيد بتجمعكم!

- دلنا يا يعقوب على الطريق الذي نستطيع من خلاله قهر ذلك الطاغية وكلابه.

قالها ريمون الذي بدا شجاعًا كعبد الصمد قبل الخِطبة.

- الأمر صعب يا ريمون فنحن لا نحارب العمدة فقط بل نحارب الخوف الذي تملَّك أهلَ القرية جميعًا.

تدخل وليد وتكلم بحنق:

- لا تتعبنا يا شيخ يعقوب وقل لنا شيئًا نفعله.

- يا وليد.. الثورة غضب عارم يحطم الأسوار، فيضان أعظم من أن تتحمله السدود، لا طريقة يحددها العقل، إنها أعظم من الوعي، وأقوى من التفكير، فإذا زاد حد الغضب في الميزان حتى غلب حد الخوف وجبت الثورة، وفرضت نفسها، فتسير كالطوفان كانسة كل الجور والظلم والاستبداد، ولا يقف في وجهها طاغية أو زبانية أو أسلحة.

مع الأسف إنهم متواكلون يريدون من يفكر لهم ويخطط لهم وربما ينفذ لهم أيضًا، جلست وحيدًا في الغرفة مقرفصًا، وفردت ذراعيَّ مسنِدًا مرفقي على ركبتي وضعت في كف يدي اليسرى العمدة وعلوان وكلابها وفي اليمنى الشباب المتحمس، لكن ومع الأسف الشديد، كفة الجارحي وكلابه ما زالت هي الأثقل.

***

- لا تعتقد أن الهدوء يعني الأمان وأن كل شيء يمر بسلام، من أمن شر العمدة فقد خدع نفسه، ومن استهان بعلوان فقد سلم روحه إلى الهلاك.

عمتي تريزا أسيرة الوساوس والهواجس، لقد ساءت حالتها حتى أصبحت مضطربة، تشرد كثيرًا، واجمة دومًا حتى نصائحها أصبحت أوامر ونواهي، تحذرني بعنف وتشنج، لا تستطيع التخلص من عقدتها القديمة ويبدو أنها لن تستطيع، ولا أنكر أنها تنجح في كل مرة بنشر الوساوس في نفسي، تجعلني أراجع حساباتي جميعها وأفكر في كل شيء من جديد، ويكفيني أن أرى عبد الصمد -رافع بيرق الثورة سابقًا- منشغلًا في عرسه، ومنهمكًا بطلاء غرفته، وإصلاح الأجزاء المتساقطة من سقفها، وتفصيل الجلابيب والسراويل والمراكيب، لقد أصبح

هادئًا لا يتكلم عن الثورة، ليس غاضبًا، بل تترجل نظراته تتسكع في الفراغ ثم يبتسم، ربما تذكر كلمة قالتها سعيدة بغنج، أو ألقمته ابتسامة مسكرة صافية، ووصل به الأمر أن يحاول تهدئة الآخرين حتى يدخل بعروسه.

إن كان ما حدث من عبد الصمد أمرًا عجيبًا فإن الأعجب الذي جعلني أشك في سلامة عقلي هو ما أظهره العمدة وعلوان في الأيام اللاحقة من معاملة حسنة للناس، هكذا؟ فجأة؟! حتى إن الأب بولس قد أولم وأطعم ووزع بعض الغلال والحبوب على الفقراء، ونزل من صومعته يزور النصارى والأقباط ويطمئن عليهم، سبحان مغير الأحوال، الناس يضربون كفًّا بكف متعجبين، يبدو أن المعجزة قد حدثت، حتى المسجد الذي خرج من حسابات الجميع حتى نخر السوس عروقه وعروشه، أحضر له العمدة أكلمةً جديدة وحُصْرًا لم تدهسها الأقدام، أيلاعبونني؟

قلت للمصلين لن أدخل المسجد ما دامت البُسُط الجديدة فيه، وليته ظهري ووقفت بخارجه، نظرت للشرق وانحرفت إلى اليمين قليلًا فأقمت الصلاة وصليت، سمعت دبيب الأقدام خلفي وعلا العفر فأبعدته هبة ريح خريفية قادمة من الشمال، خرج الناس من المسجد وتراصوا في عدة صفوف خلفي، فضّلوا التراب والرياح بالخارج على البسط الجديدة الملوثة بالمال الحرام، اقترح الناس أن نرجعها لصاحبها فبيت الله لن يفرش إلا من المال الحلال الطيب، تكأكأ عبد الصمد ولان حديثه وحاول بث عدوى المهادنة بتثبيط النفوس الهائجة:

- لعله تاب، أنقفل الأبوب في وجه تائب؟

فقلت كلمتي الأخيرة:

- سوف أرجع تلك العطايا، فالله لا يقبل الصدقة من مال حرام.

رحب أغلب الناس وسكت القليلون، فقام المؤيدون بثْني وتطبيق الأكلمة وبرم ولف الحصر وألقوها في الساحة بجوار حضن إبليس، أعتقدُ أن هذه الخطوة هي الأجرأ والأكثر شجاعة في تاريخ القرية، فهي تمثل تحديًا واضحًا وصريحًا للعمدة، توقعت حينها أن تبدأ الحرب وكذلك توقع الناس، وانتظرنا مترقبين أن يكشر عن أنيابه، لكن الرجل الخبيث فاجأني للمرة الثانية، وفي خلال يومين قام ببناء جامع واسع في مكان قريب، أذن فيه الشيخ داود للصلاة، إنه فقيه العمدة والمُشرع له الذي يضفي على أفعاله الشرعية بفتاويه، لم يحضر له رجل واحد فأمر العمدة خفره أن يجلبوا الناس من الشوارع بالترغيب والترهيب، وبعد كل تلك المحاولات لم يتخط عدد المصلين عشرة أفراد، كلهم من الخفر أما باقي الخفر فكانوا يتهربون بحجج مختلفة، في الوقت الذي يتزايد فيه عدد المصلين بالجامع القديم كل يوم، لم يعد يقل عن مئة وخمسين في كل صلاة، أما صلاة الجمعة فيزيد العدد فيها عن خمسمئة رجل، يملؤون المسجد ومساحة كبيرة موازية له بالساحة الخارجية، حتى كادوا يبتلعون حضن إبليس.

الناس يشيرون لذلك المسجد قائلين: «هنا يُعبد الشيطان» وبعضهم يسخر ويشبهون تصرف العمدة كمن يبني زاوية للصلاة في ماخور، توقعت أن ينفد صبره ويكشف عن وجهه القبيح، لكنه ما زال على

حالـه الجديـد، مبتسـمًا متـودًا للنـاس، لا يُظهِـر لهـم إلا اللـين والوداعـة، تـرى مـا وراءكـما يـا جارحـي أنـت وعلـوان؟ هـل يتحـول الذئـب لحمـل بـين عشـية وضحاهـا، كل مـن يعتقـد هـذا فهـو سـاذج أكيـد وإن كان البعـض مالـوا للتصديـق لإراحـة عقولهـم ونفوسـهم، أمـا الباقـون وهـم الأكثريـة فشـعروا بالقـوة وبـأن الجـرأة الجديـدة أخافـت العمـدة وكان هـذا يبـشر بمزيـد مـن الجـرأة والتمـرد.

***

(15)

القيامة

عادت الروح تدب في الأبدان بعد بيات أزلي، خَضار الربيع آخذ في التوغل فيهم رويدًا رويدًا، حياة مختلفة شقت طريقها إليهم، عنفوان كسا العيون التي ألفت الانكسار، لم يعد الجوع أكبر همهم، إن ما يشعرون به الآن يشبعهم، من ذلك الوقت حين رموا البُسُط في وجه العمدة، إنها لحظة الهزيمة الحقيقية للخوف، للوهم، لن ألتفت مرة أخرى لعمتي وهي تضم شفتيها وتلويهما يمينًا ويسارًا، مؤكِّدةً أنه لا فائدة، ولا تلك الجملة التي حفرت بمسمار في ذاكرتي «كل حال في الدنيا يتغير إلا حال قريتنا لا يتغير أبدًا»، لقد تغير الحال يا أبي، أبشر!

أرسل لي العمدة كلبه الوفي لأمثل أمامه، كان بصحبتي حسين ووليد وعبد الواحد وبعض الشباب الآخرين، أرادوا أن يأتوا معي لكن علوان رفض وقال لهم بخشونة وفظاظة: «لو أردنا قتله لقتلناه بينكم»، وحدجهم بنظرة بثت الرعب فيهم وجعلتهم يسكتون مرتعدين.

سرت معه وشعرت بأن الحياة تسير ضدي، اقتربنا من البوابة الحديدية السوداء ليزداد نباح الكلاب، الضجيج يعلو، وبمجرد أن

دخلنا من البوابة رأيت أكثر من عشرة كلاب سوداء مخيفة، مؤكد أنها هي تلك التي أكلت عاصم، بعضها مقيد بأغلال مثبتة بالجدار وبعضها يمسك الخفر أغلالها، دخلت إلى العمدة وقد بدا عليه أن صبره قد نفد، فلم يعد يطيق المهادنة أو الحرب المتوارية وهذه في رأيي بداية الهزيمة الكبرى، أن يشعر الخصم بالعجز أمامك فيغضب ويقرر المواجهة، وجهه هذه المرة أكثر قبحًا من الذي رأيته في المرة الفائتة، يجلس وأمامه رجل نحيف يضع على فخذيه ثلاثة كتب كبيرة مجلدة بجلد بني عتيق، علمت اسمه عندما استشهد به العمدة قائلًا: «ما رأيك يا شيخ داود؟» كان يتكلم بعصبية لكنها عصبية تفتقد للثقة، شيء ما يخيف هذا الرجل مني، سر لا أعلمه، السؤال يدور برأسي كثيرًا لماذا لم يفتك بي طوال الفترة الفائتة، هذا أمر هين له، رد من دون تردد أو تفكير ذلك الشيخ النحيف بصوت رفيع مبحوح كالفحيح، مؤكد أنه الشيخ الذي يصلي بالخفر في مسجد العمدة.

– ما حكايتك يا شيخ، ألم تقل إنك ضيف، ألا تكون ضيفًا خفيفًا، ألم تسمع المثل يقول: يا بخت من زار وخفف؟

أومأ له العمدة أن يصمت فصمت توًّا:

– لقد حذرتك من قبل، وهذا التحذير هو الأخير، لقد أخذت كفايتك، فارحل سالمًا بلا شر ولا تختبر حلمي وصبري أكثر من ذلك.

لا أستطيع فهم بعض الكلمات بسبب شفتيه الغاطستين في الشحوم المتراكمة والزبد المتراكم على جانبيها.

– لقد جئت زائرًا للحاج أحمد الطيب وقلنا أهلًا وسهلًا، ثم ذهبت للمسجد ونظفته وصليت بالناس، ثم داويتهم وعالجتهم

وتجمعهم حولك، وتمشي بين الأقباط والمسلمين وأصبح لك مريدون في أيام قليلة، هل أنت ساحر؟ ماذا تريد من هذا البلد؟ ألا تعلم بأن لتلك القرية عمدة تستئذنه قبل أن تفعل أي شيء؟

– هل هناك إذن لتعمير بيت الله، أو لمساعدة الناس؟!

– أنت وقح وتعتقد بأن هيئَتك وعمامتك قد تدفعُ عنك سخطي، لا أحد هنا يستطيع أن يخرج عن طوعي.

– وهل من الكرم يا عمدة أن تطرد الضيوف؟

لم يعر لسؤالي انتباهًا ورد وقد بدأت الكنبة تطقطق تحته من ثقل جسمه:

– اسمع يا هذا.. أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم.

هذا الغبي يتحدث في الدين، أعوذ بالله، كم قتل وكم عذب، حتى إنه لا يطيق أن يرى الناس تصلي جماعة في المسجد.

قاطعه علوان بحدة وتعجبت أن يقوم واحد بمقاطعة العمدة، فتكلم بغضب وقد زاد سواد وجهه من الغل:

– ما أصبرك يا عمدة، والله إني لأتوق للشرب من دمه!

خرجت من عنده وقد أمهلني باقي النهار وسواد الليل، لن أستطيع إيقاف الزمان، سأرى بأم عيني نزيف الساعات الأخيرة لقصة تحتضر، قال بليغًا: «لا تعود الشمس إلى القرية وأنت فيها».

لن أنكر بأن ذلك اللقاء قد دوخ رأسي، لقد استطاع الطاغية في النهاية أن يئد الفكرة بكلمة منه، ساعات قليلة فقط تحول دون تنفيذ العمدة تهديده، تذكرت في أثناء حديثنا أمر فرح سعيدة وعبد الصمد، إنه بعد سبعة أيام، هذا أمر معقد فعلًا، كنت أتمنى أن يكون آخر

ذكرى لي في القرية قبل الرحيل هو فرحهما، مشيت وأنا أفكر في الأمر، متسائلًا ترى هل سيقف الناس معي أم سيخذلونني؟ الوقت يداهمني ويجب أن أعرف سريعًا هل سأجد من يقف معي أم أني سأكون ضحية رخيصة بلا ثمن، تركت دار الشيطان خلفي ومشيت أتحسس الطريق والدنيا في ظلام دامس، فإذ بالشباب الذين تركتهم من ساعة يخرجون من تحت الأرض ينادونني.

- شيخ يعقوب.. يا شيخ يعقوب!

وليد ينادي بصوت خافت، توقفت والتفت صوبهم فإذ هم يأتون مهرولين

- ماذا أراد منك ذلك الخنثى؟

- لا شيء! فقط أمهلني للرحيل حتى بزوغ الفجر.

غضبوا وأقسموا على أن يذودوا عني بأرواحهم، وألا أخرج من القرية إلا على جثثهم، يبدو أن الأمر الآن أصبح موشكًا على النفاذ، سأختبر الليلة عزيمتهم، بعد صلاة المغرب وسأتكلم مع الجميع سواء المسلمين بالمسجد أوالأقباط في بيت جدي بيشوي فإن وقفوا بجانبي ستحدث المواجهة المنتظرة، وإن صمتوا سأشق الليل وحيدًا وقبل أن تنتهي المهلة.

***

الخوف يفرك قلبي بقبضتيه الحديديتين، وعدم اليقين يلعب بعقلي، لا شك أن حديث أبي عن القرية ووسوسات عمتي تسببا في جعل الأرض التي قد أبني عليها أبراج يقيني تميد بكل أساس أحاول ترسيخه، هنا الأمور أكثر غموضًا من القاهرة، والناس هنا مختلفون،

فهم ماهرون بإيهامك بأنك ذو قدرة خارقة وأنك تستطيع فعل المعجزات، وأنهم معك وحولك ولن يتخلوا عنك أبدًا، كم من واهم زجوا به في المواجهة، يلبسونه تاج البطولة، يلتفون حوله، يهتفون له، ثم يتركونه في النهاية يواجه مصيره وحده، يا لها من قسوة، عندي عائلتان ومئات المريدين بالمسجد ولا أملك اليقين بأني إن دخلت في مواجهة ما فسأجدهم يقفون معي..

هل أنا أيضًا خذلت الأم ميريت أم أن الأقباط هم من خذلوها؟ ماذا أستطيع أن أقدم لها؟ هل سأحارب العمدة وحدي؟ أحارب بولس وحدي؟

ها هو شفق الغروب يفرش لونه الدامي على السماء والسحاب والبيوت والأشجار والطرقات وفي العيون التي تتحرك خلفي متابعة ظلي الباهت، أرى الآن كل ما هو خلفي يسير أمامي وكل ما هو أمامي يمضي، ستسدل الستائر عما قريب وسأعود مهزومًا كما جئت مهزومًا، لا لا، لا داعي لهذا التشاؤم بعد يجب ألا أسبق الأحداث.

وصلت إلى المسجد وكانت صلاة المغرب على وشك فجلست في الظلماء وحدي في ركن توارت عنه الشمس تمامًا، حتى بدأ الناس يتوافدون وأوقدوا القناديل، خمسة قناديل متفرقة جعلت الرؤية جيدة، ستكون رؤية العيون والأسارير سهلة، صلاة المغرب هي الوقت المناسب للحديث ففي أثناء صلاة العصر يكون أغلب الناس بالغيطان ولن أضمن حضور عدد كبير منهم.

دخل عميّ محمد وعمر وجدي الطيب ودخلت الثلة الأولى صاحبة فكرة الثورة يتقدمهم عبد الصمد، وباقي أهل القرية من المنتظمين على الصلاة، لاحظت أن المسجد قد امتلأ عن آخره، عشرات من الناس.

آخر كلمة سمعتها بالظهر قبل أن أترك الشباب كانت من وليد: «سوف نخبر الناس جميعًا» ها هم أمامي وإنها الكاشفة.

لا أرى على وجوههم ملامح التحفز، بل أرى الحسرة، مال عليَّ ولد يافع وقال: «السلام عليكم» ثم قبّل كتفي وهمس في أذني بأن الخفر محتشدون بالخارج، أعينهم تطلق الشرر، والبعض منهم يجلس بين المصليين، أومأت برأسي إيماءتين أي حسنًا، فاعتدل الغلام ووقف بباب المسجد فأذن للصلاة، برهة مرت ثم أقمنا الصلاة فصلينا، وأتبعناها بالنافلة وانتهينا ولم يبقَ سوى ما ينتظره الجميع: اللحظة الحاسمة، بدت لي لوهلة عمتي تريزا بجلبابها البيتي القصير تمر من بين المصلين القعود وتقول لي: «انج بنفسك يا يعقوب، لا تصدقهم يا حبيبي، سيتركونك تواجه الموت وحدك» لقد فات أوان الكلام والآن وقت اتخاذ القرارات، فبدأت خطبتي:

«بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد، ألا إنه قد انتشر الشر وعم البلاء، فتجبر الطغاة بجبن الجبناء، سأقول لكم أحبتي كلمات قلائل ولن أزيد ولن أستفيض ولن أحث على شيء، لقد طلب مني الجارحي الرحيل وإلا أَنْفَذَ إرادتَه عنوة ونفاني بالقوة، أو قَتَلني، وقررت إن وجدت فيكم قوة وعزيمة لمكثت فيكم، أما إن ركنتم إلى الخوف والاستسلام فالرحيل أولى بي، والآن أصبح الأمر بين أيديكم والخيار خياركم».

صمتٌ ووجوم ولا أحد يتحرك أو يلتفت كأنهم أصنام، حتى قطع ذلك الجمود المبين قيام واحد منهم ثم تبعه آخران بغير كلام، تبعت أرجلهم وهي تتخطى السياج بالباب، وبدأ المندسون بالمسجد ينظر بعضهم إلى بعضٍ يتغامزون، رأيت الوجوه مسودة، كلما نظرت

إلى وجه منهم سقط خائرًا يطرق للأرض، ازدردت ريقي وأنا أشعر بالخزي، إنها هزيمة سريعة بشهادة أكثر من مئتي واحد داخل المسجد، أما حسين ووليد وعبد الواحد فكانوا غاضبين يلعنون جبن الناس، يزفرون ويضربون كفًّا بكف، تبادل الخفر النظرات الشامتة يكتمون الضحكات وبعضهم يشير بإصبعه ساخرًا مني، عجزت رجلاي عن حملي وتمنيت أن تنشق الأرض فتبلعني، قام الناس ينسحبون تباعًا، فقمت من مكاني فتوجهت صوب الباب والأحبة المقربين على حالهم قعود، شققت جمع الخفر وهم يتكالبون عليَّ يودّون لو يفتكون بي لولا اشارة من علوان أسكنتهم، خرجت قاصدًا بيت جدي بيشوي، أمشي وحيدًا أجر ذيول الخيبة منكسرًا، من يَجبُرك الآن يا يعقوب؟

طلبت من جدي جمع من يقدر عليهم من الأقباط، فأعدت عليهم ما قلته بالجامع، فرد علي عمي عطا:

- ماذا قال لك أهل البلد؟

- لا أرى في السؤال إلا بحثًا عن مبرر للهرب.

فتكلم عمي شنودة بهدوء وجسد ثابت لا يرتعش كعادته:

- يا يعقوب إن واجهنا العمدة ستكون فتنة وسيكون الدين والعصبية طرفان في المواجهة، أنتم أولى بالعمدة ونحن أولى ببولس.

على أي حال ليس عندي ما أقدمه أكثر من ذلك وسعيت لتوصيل رسالتي ولكني أشعر بأن كل شيء ضدي، ولذلك فقد وجب علي أن أبر بقسمي وأن أعود أدراجي إلى القاهرة وليفعل الله ما يريد، فأنا لست سيدنا إبراهيم الذي دخل لساحة الأصنام وحطمها وحده، ولن تأتي المعجزات لتجعل النار بردًا وسلامًا عليَّ، أحمد الله أن جعلني

سببًا لإعمار بيته ورجوع المصلين له، وأضيئت به القناديل، ووصلتُ رسالة أبونا يوأنس، والعقود لجدي أحمد الطيب، ولا أظن أني أستطيع فعل المزيد، لا يجب أن أورط أحدًا في حرب لا يبالي بها، ما زال سد الخوف أعظم من نهر الغضب، لي الآن البقجة وما تبقى لي من المال الذي تركه أبي، حان وقت الرحيل.

***

مشيت بالخلاء خلف البيوت متسللًا متخفيًا قاصدًا البحيرة، تتكالب عليَّ مشاعر متوحشة تنهش قلبي، الغضب والخوف والإحباط واليأس، راغب في البكاء والصراخ وأن أسبهم بملء فمي: « اللعنة عليكم جميعًا» لا أرى شيئًا أمامي ولا أدرك ما يحدث خلفي، أشعر بحركة غريبة نعم، أشعر بأن هناك من يتبعني ويترصدني، لا يهم فلأواجه مصيري ونتيجة اختياراتي، سمعت من ينادي علي بصوت خافت، التفتُّ لأجد أربعةَ شباب يقتربون مني بحذر حريصين ألا تُصدر نعالهم أي صوت، ينعكس على وجوههم ضوءٌ وانٍ لقمرٍ يافع ينشد الكمال بعد أسبوع، إنه ريمون وبعض أصحابه، فوقفت ذاهلًا لا أفهم سر تتبعي.

- ريمون! ماذا تريد؟

- أبي يريدك الآن.

- لا لا أنا راحل ولن أعود مرة أخرى، ولن تفلح قوة في الأرض على إعادتي مرة أخرى.

- أرجوك يا يعقوب تعال، الخفر ينتظرونك عند البحيرة يريدون

قتلك بعيدًا عن العيون، إن لم تأتِ معنا سنحملك مرغمًا.

دخلت عليه وكان معه رهطٌ من الكهول وثلاثة عُجُز غير الشباب الذين كانوا معي، لم يكن بينهم جدي بيشوي وعمي شنودة، إنهم غاضبون متحفزون، مني ولي، فهم يظنون بي الظنون، تكلم عمي بطرس، الذي لم أشعر يومًا أنه يحبني، بيّن بكلمات مقتضبة محددة واضحة الألفاظ والمعاني:

– اسمع يا يعقوب سأقول لك كلمات فاسمعها جيدًا واستوعبها، إن كنت صادقًا بأمر رسالتك وقصة الراهبة المقتولة في الكهف.. فسنقف بجوارك وسنكون عونًا لك، أما إن ثبت كذبك فسوف ندفنك بنفس الكهف حيًّا، لا أَكْذِبُك: أنا لم أصدق قصتك يومًا!

سكتُّ وقد تملكتني مشاعر الصدمة والدهشة وأشياء أخرى كثيرة لا أستطيع وصفها، فالسيدة الميتة بالكهف مجرد حلم بالنسبة لي، أما الرسالة فهي أمانة من الأم دميانة أحملها لهم وقد وصلتها، لكن لم يعد هناك متسع لكل هذه الأفكار، وأي كلمة سأقولها مجادلًا ستكون عواقبها وخيمة، لذلك نظرت له راضيًا ولم أنبس بكلمة، نظر إلي بعين فاحصة وكأنه يبحث عن نبأٍ توشي به أساريري، وسكت الجمع ينتظرون ردي:

– أعرف يا عمي أنك لم تحبني يومًا وأنك لا تصدق كلامي، لكني أوافق على كل شيء تريدونه ومستعد له.

– إذًا سنخفيك عندنا ولن يعلم بوجودك إنسان وسنقول إنك رحلت ليلًا ولا نعلم شيئًا عنك، حتى يأتي يوم فرح بنت عمر بن غانم،

حينها نستغل انشغال أهل البلد بالعرس وسنصعد للجبل نتحرى الكهف ونبحث عن المرأة فيه.

- أسيرًا؟!

- بل ضيفًا، نعطيه الأمان ونفديه بأرواحنا.

❋❋❋

تذكرت مخبئي الأول في مخزن عمي عنتر، يبدو أن الرحلة بدأت بمخبأ وستنتهي بآخر، كان ريمون هو خادمي وأنيسي والمسؤول عن توفير كل ما احتاج إليه بين تلك الجدران القاتمة التي تسرب قدرًا ضئيلًا من الضوء بالنهار وتنعدم الرؤية ليلًا، علمت من ريمون أن أهل القرية حزانى بسبب رحيلي والشباب يتلاومون بسبب جبنهم وخذلانهم لي، أما جدي بيشوي وجدتي مريم وعمي شنودة وعمتي تريزا فهم الأكثر حزنًا وكمدًا بسبب رحيلي عن القرية مكسورًا يائسًا، وقال إن جدي الطيب رقد في بيته وانقطع عن المسجد من الهم، وعميّ يذهبان إلى المسجد مطأطئ الرأس:

استغلت الذكريات البعيدة والقريبة وحدتي فأحاطت بي وهجمت علي، يا لها من رحلة طويلة مليئة بالأوجاع والحوادث الجسام! ثورات وحروب وخيانة وقتل وهرب، أحوال كثيرة تغيرت ودنيا انقلبت، وتفرق الأحباب، النور الكاشف يشعرني بالألم في بصيرتي، والظلام الدامس يخنق حدقتيّ، وحركة الظلال الوهمية وطاويط تطير متخبطة، أهشها فتصفعني، أصرخ فيها تنفث في عقلي الوساوس والهواجس:

- هل جننت؟

قالها ريمون متعجبًا، بعدما دخل متوجسًا وجلًا من أحاديثي الذاتية، لكني أعود لطبيعتي وأتحدث إليه بهدوئي المعهود ووداعتي، حدثته عن عذاباتي في ظلام الليل، فيربت على قلبي بكلمات كالكفوف الرحيمة وصوت حنون:

- اصبر يا يعقوب إن الرب يمتحنك، هانت، اقترب البدر من التمام.

❋❋❋

جاء اليوم بعد طول انتظار، يوم العرس الميمون، أنا منتظر حتى يأتي ريمون والرجال لنصعد إلى الجبل حيث الكهف هناك والقديسة المنتظرة، إنهما نقطتان مظلمتان في جبين الدير، وبالفعل سمعت أصوات أقدام كثيرة تتحرك صاعدة السلم، سأتخلص أخيرًا من هذا الأسر وسأرى الدنيا من جديد، قفزت لمخيلتي ذكرى صعود رجال الوالي وهجومهم على أبي، ذات الدبيب، دبيب هجوم لا دبيب قدوم، انقبض قلبي وأيقنت أنهم رجال العمدة وبخاصة بعدما بدؤوا بتحطيم الباب، وكسر القفل بالخارج، يكاد الباب ينخلع من شدة الضربات، مفصلاته الحديدية كادت تنفصم عن بعضها، وقفت حينها مذعورًا أستند إلى ركن الحجرة، لم أتوقع أن تكون هذه هي النهاية..

انفلق مصراع الباب الأيمن إلى نصفين، فانفتح المصراعان عن آخرهما حتى ارتطما بالحائط، ودخل رجال كثيرون لا تتسع الغرفة لمثل عددهم، تأكدت بأنهم سوف يقتلونني حيث أقف، لكن كبيرهم علوان أخذ يصرخ في وجهي ويسبني:

– هل كنت تعتقد أننا نائمون على آذاننا يا ابن الزانية؟ لقد عرفناك من يوم ذهابك لبيشوي النصراني، فأصبحت شكوكنا يقينًا.

لم أدرك شيئًا بعد ذلك الألم الرهيب الذي شعرت به من ضربة بكعب بندقية كاد يفلق رأسي، كالتي تلقتها عمتي تريزا فوق حاجبها الأيسر من سنتين وتركت ندبتها في روحها.

***

كل شيء أمامي أبيض.. السماء، الطيور، السحائب التي تسير متمهلة، لا لا ليس كل هذا، إنها أمواج رقيقة، كبحر النيل إذ يتوشح بالصباح الرائق، وعبد الرازق هناك يستحم عاري الصدر، يضرب الأمواج بيديه، لاعبًا ضاحكًا، يشير إليَّ كي آتي إليه، حقًّا يا صديقي إني مختنقٌ وأريد أن ألحق بك، لكن شيئًا ما يكبلني، اقترَبَ مني فربت على صدري وقال: «كم أنا فخور بك يا صديقي!» أمسك بذراعي وغطس في الماء لكن بدَني لم يستجب لجذبه، هاجَت الأمواج وعبد الرازق على حاله غاطس، ثم هدأتْ رويدًا وتهادتْ برِقّةٍ كشالٍ أبيض خفيف رقيق يحركه النسيم، اتسعت حدقتاي والشال يدنو ويدنو حتى أصبحت الدنيا كلها الشال، ثم ظهر شيء مضيء قادم من أعماقه، ضوء بارد بدا يتجسد حتى انبلج منه جسدٌ يرتدي ثوبًا أبيض رقيقًا فضفاضًا، ووجهٌ كأنه لحورية من الحور العين متوجة بإكليل من الياسمين، ابتسمت فقلت لها: «من؟».

– هل نسيتني يا يعقوب؟ أنا ميريت.

لقد بدّل الله حالها، لم يعد بها شيء من نصب، وجهها كلؤلؤة فضية تشع نورًا، عيناها واسعتان تبثان الرحمة والعطف.

- الحمد لله أنك أصبحتِ بخير.

- يعقوب جئت لأخبرك بأن الرب يحبك.. مبارك لك.

كانت هي البشرى، جاءتني من سيدة قُتِلت من بضعةٍ وعشرين عامًا، لم يفلح قاتلها أن يخنق روحها.

***

أفقت على لسعة سوط رسمت خطًّا مستقيمًا، صرخت صرخة كادت تخرج الروح معها، هل أنا مستيقظ أم بكابوس، لسعة أخرى كانت كافية لأفيق تمامًا وأدرك ما أنا فيه، أنا مربوط اليدين حول خصر تمثال حضن إبليس، عارٍ إلا من سروالي، الجارحي يقف أمامي يحمل السوط في يده، وعشرات من الخفر يصنعون سياجًا منيعًا بأجسادهم، يكونون حلقةً كبيرة بداخلها العمدة وشيخه الزائف وعلوان الرهيب وأنا كنت في المنتصف تمامًا وأهل البلد يقفون متحلقين حولنا يتطلعون لرؤيتي من خلف الخفر الذين يحملون القناديل في الأيدي اليمنى والبنادق المحشوة بالطلقات على الأكتاف اليسرى، عشرات القناديل تكفي ليشاهد الجميع عملية القهر وكسر عمود جديد في خيمة كرامة تلك القرية، جدي أحمد الطيب واقفٌ يبكي وصوت نحيبه يسلك الطريق لأذني من بين ضجيج الناس، يسنده ولداه، سعيدة ترتدي ملابس العرس، تلطم وجهها الذي تلطخ من سيلان الكحل ولطمها عليه،

أما عـمّاي عمـر ومحمـد فقـد كانـا سـاكتين غاضبـين، يلجمهـما العجـز وقلـة الحيلـة، عبـد الصمـد واقـف في الجهـة المقابلـة لعروسـته، وجهـه كالزجـاج، لامـع ولا يظهـر أي أنفعـالات، رجـال البلـد وبعـض النسـاء يبكـون وميـزت منهـم وجـوه كثـيرة ممـن كانـوا يصلـون معـي بالأيـام الأخـيرة، وتقـف أمامـي مباشرة عمتي تريـزا تـصرخ وتحـاول الوصـول إليَّ لكـن الخفـر يمنعونهـا، أمـا جـدي بيشـوي فـكان يبكـي ويترجـى العمـدة أن يتركنـي أرحـل: «سـيرحل بـلا عـودة صدقنـي يـا عمـدة»، وعمـي شـنودة يـصرخ كالدراويـش بصـوت جهـوري: «ألم أقـل لـك يـا يعقـوب، إنهـا مؤامـرة»، وأخـذ يـردد كلمـة مؤامـرة كالمجنـون.

صرخ العمـدة وهـو يمـشي ناقـلًا قدميـه بصعوبـة كمـن يزحـزح أحجـار الأهرامـات عـن مواضعهـا:

– هـل كنـت تعتقـد أني لا أعرفـك يـا ابـن الزانيـة؟ لقـد عرفتـك مـن أول يـوم رأيتـك فيـه، أنـت ابـن عـلي والزانيـة القبطيـة.

لم أرَ أثـرًا لريمـون وعمـي بطـرس والشـباب الأقبـاط والرجـال الذيـن كانـوا موجوديـن يـوم الاتفـاق، هـل هربـوا جميعًـا خوفًـا مـن انتقـام العمـدة؟!

كان هـذا هـو السـؤال الـذي يـتردد في عقـلي، ألم يقولـوا إنهـم سـيحمونني بأرواحهـم؟

أرى الوجـوه كـما وصفتهـم عمتـي تريـزا بنفـس الدقـة في الوصـف، ذلـك اليـوم عندمـا داعبنـي مايـكل ونهرتـه أختـه، قالـت: «سـيقف الناس

عاجزين منكسي الرؤوس» حتى عبد الصمد الشاب الثائر الذي كان يريد قيادة ثورة مدمرة ضد العمدة وباقي طغاة البلد يقف ساكنًا بلا حراك، يريد أن يستمتع بفراشه الجديد بلا منغصات، لكن يبدو أن هذا الحلم بعيد المنال، علا صوت الجارحي فوق صوت الجلبة وطغى عليها فقال:

– ما رأيك يا شيخ داود في رجل جاء من القاهرة فيبيت في بيت رجل مسلم في أيام ويبيت في بيت رجل قبطي في أيام أخرى؟

يبدو أنه سيدور حوار متفق عليه مسبقًا، فرد الشيخ من قبل أن ينتهي العمدة من حرفه الأخير:

– إما أن يكون قد تنصر وارتد عن الإسلام، وإما أنه يسعى لفتنة عظيمة ستزهق فيها الأرواح وستطير فيها الرقاب، كما تجرأ على ولي أمر القرية ويقلب الناس عليه، ويعالج الناس بالسحر والعياذ بالله.

– وما جزاء من يفعل ذلك؟

اعتدل الشيخ العاقد الحاجبين وتصنَّع الوقار، قام بفتح كتاب يحمله وتصنَّع بعينيه أنه يقرؤه، ثم تكلم برصانة بصوت رفيع حاد يحاول شق الهينمات والنحيب:

– الحكم صريح في كتاب الله يا حاج خالد، وهو لا يخرج عن أمرين.

– ما هما؟ بيّن وأسمِعِ الناس.

– إن اعتبرناه من المفسدين في الأرض فسنطبق عليه حكم الله الذي أورده في سورة المائدة فقد قال الله جل وعلا: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ**﴾ صدق الله العظيم.

– وإن كان مرتدًا يا شيخنا.

– نحرقه كما أحرق سيدنا أبو بكر الصديق المرتدين ليقضي على الفتنة.

ثم تكلم العمدة موجهًا الكلام للناس.

– هذا الشيخ المزيف الذي أوهم الناس أنه من شيوخ الأزهر وعالم بكتاب الله جاء القرية التي كانت تعيش في سلام وأمن وأمان ليسعى بين المسلمين والأقباط بالفتنة يريد هدم الدين وخلق الصراعات وإشعال النار بين الناس.

قاطعته أصوات عديدة من الخفر يقولون: «لعنة الله عليه».

ثم ينطق صوت غاضب من بين جموع الفلاحين يقول:

«هذا ظلم.. هذا ظلم.. دعوه يا ظالمون».

أشار العمدة للخفر فسكتوا، وأخذ يوجه نظرات التحدي للواقفين واحدًا واحدًا، عميّ، وشباب القرية، كأنه يقول لهم من منكم يجرؤ على معارضتي أو الوقوف ضدي الآن، فكانت العيون تنخفض الواحدة تلو الأخرى، فقال لهم بصوت عال:

– هل من معترض على حكم الله؟ هاه تكلموا أريد أن أسمع!

لا صوت يجيب سوى النحيب والولولة.

- إذًا سأنفذ حكم الشرع والجزاء من جنس العمل هذا الرجل الذي كان يريد أحراق القرية بنار الفتنة، يجب أن يحرق.

علت الولوة والصرخات وكان يجب أن أتكلم الآن كلماتي الأخيرة قبل أن أموت، فصرخت بأعلى صوتي:

- يا جارحي أنا لا أخاف منك أيها الجبان، بل أنت الخائف مني، انظر حولك إنك لا شيء من دون أولئك الخفر، أنت تستمد قوتك من ضعف الناس، وشجاعتك من جبنهم.

- اسكت يا ابن الزانية!

- أنت أيها المخنث الذي ستسكت، أنتم عشرات والناس حولكم مئات، أنتم ضعفاء لا تقدرون على شيء، لو أن كل واحد منهم رماكم بحجر لرجموكم، اللعنة عليكم أيها الجبناء!

أخذ الجارحي يضربني بسوطه ويصرخ في: «اسكت يا ابن اللئيمة.. اسكت يا ابن الزنا»، كنت أحاول أن استحث الناس في محاولة يائسة وبدا أنها تبوء بالفشل، ثم أشار الجارحي بيده التي تحمل السوط لبعض الخفر فجاؤوا مهرولين يحملون الحطب ويلقون به أمامي، ثم تبعهم كبيرهم علوان بدلو مملوء بالزيت فسكبه علي حتى غمرني من شعر رأسي حتى سروالي فالتصق بجسمي.

انطلقت أصوات عديدة متجرئة أكثر من بين الناس: «هذا ظلم.. هذا ظلم»، وعمي شنودة يكرر كالمجذوب كلماته «إنها مؤامرة».

ثم انطلق صوت ثاني «أنت ظالم يا عمدة».

ثم صوت ثالث «يلعنكم الله يا كفرة يا فسقة».

انفتح جفناي حتى كادت مقلتاي تقفزان لخارجهما، الناس يتدافعون، والخفر يحاولون منع ضغطهم المتزايد، رأيت الحلقة تضيق حتى شعرت بأنها تضيق على صدري ولم أعد أستطيع التنفس، العمدة في لحظة خشى أن ينفلت منه الأمر فألقى الشعلة صوب الحطب فبدأت تشتعل النيران فيها، فعلا لهيبها سريعًا بسبب الزيت، الخفر بدؤوا يطلقون طلقات البارود من بنادقهم ليسيطروا على حالة الفوضى العارمة، رددتُ الشهادة مرات كثيرة ربما مئات المرات، تملكني الهلع والنار توشك أن تقترب مني والزيت يغمرني، هل ستكون تلك النهاية؟ أموت محروقًا.

شعرت بلهيب النار يلسعني، وقبل أن تمتزج كل الأشياء أمامي.. وجدت رجلًا ممزق الثياب، دامي الوجه، يُقْذف مخترقًا الزحام بسرعة الطلقة لوسط الحلقة فوقع قريبًا من الجارحي وأمامي مباشرةً فنظر له العمدة مذعورًا مرتعدًا: «أبونا بولس!» هي آخر كلمة قالها العمدة وآخر كلمة سمعتها وسط كل هذا الصخب..!

طالت النار سروالي فصرخت صرخة عظيمة وأخذ جسدي يرتعد بقوة، محاولًا نفض النيران عني، رأيت عمتي تريزا تشق اللهب لتظهر أمامي وتحتضنني محاوِلةً إطفاء النار بجسدها، حينها التحم الناس بعضهم ببعض بعنف شديد، زحام وفوضى، النساء

والأطفال يصرخون، أصوات طلقات البارود، ارتطام نبابيت، وعمتي تريزا تولول مستغيثة بمن يساعدها في إخماد النار التي انتقلت لثيابها، ألم عظيم يفوق أي ألم شعرت به من قبل، حتى شممت رائحة جلدي يحترق... ثم باغتتني ضربة قوية من نبوت ثقيل، وغرقت الدنيا في ظلامٍ دامس!

❊ ❊ ❊